



الدكتور محمد مصطفى صِفْوَت
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الاسكندرية

إنجلترا وفترة السويس

١٨٥٤ - ١٩٥٦

الناشر
المكتبة التجارية الكبرى

الدكتور محمد مصطفى صفوت
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الاسكندرية

انجلترا وفترة السويس

١٨٥٤ - ١٩٥٦

الناشر
المكتبة التجارية الكبرى

الى الاستاذ محمد شفيق غربال

مقدمة

هذا كتاب في موقف إنجلترا بأزاء قناة السويس من وقت أن فكر الفرنسيون في إنشائها إلى قرب أواخر هذه السنة (١٩٥٦) . ولقد حاولت تبسيط الموضوع وعرضه من الناحية التاريخية العلمية قبل كل شيء .

لقد حاربت إنجلترا مشروع القناة ، بكل ما أوتيت من قوة حتى إذا أصبحت القناة حقيقة في سنة ١٨٦٩ ، كانت إنجلترا أولى الدول استفادة منها ، وحرصت من أول الأمر على ألا تسيطر دولة واحدة عليها أو على إدارة شركتها . ثم ساعدتها الأيام فاشتريت أسهم الحديد في القناة في سنة ١٨٧٥ . ولم تمر ثمان سنوات إلا وقد احتلت إنجلترا القناة ومصر جميعها وأصبح لها مركز فعلي ممتاز في القناة لاريب في ذلك . واحتفظت إنجلترا لنفسها بهذا المركز ما بقي الاحتلال الانجليزي في مصر ، على أساس الحق الذي ادعته لنفسها من أنه يهيمها أكثر من غيرها حماية حرية المرور في القناة للسفن الحرة وغيرها في وقتي السلم والحرب .

على أن مصر لم تعترف يوماً ما بهذا المركز ، فصر ، التي تمر القناة في أراضيها هي صاحبة الحق الأول في القناة ، وهي الحارس الطبيعي لها والحامي لحرية الملاحة فيها ، ولم تبد اعتراضاً على معاهدة سنة ١٨٨٨ الدولية ، التي حددت مركز القناة والتي اعترفت بها الدول جميعاً ومنها إنجلترا .

ولم يرد الجانب المصري في معاهدة سنة ١٩٣٦ أن يعطى لبريطانيا حقاً دائماً في الدفاع عن القناة ، بل جعل بموافقة بريطانيا الحق الأول في الدفاع عنها للجيش المصري .

على أنه بعد إلغاء مصر لمعاهدة سنة ١٩٣٦ في ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ ظلت بريطانيا إلى سنة ١٩٥٤ متمسكة بمركزها في قناة السويس بعد أن تقدمت هي والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا بمقترحات الدول الأربع فرفضتها مصر ، وبررت إنجلترا موقفها في القناة بما يأتي :

١ - أن منطقة القناة منطقة استراتيجية تصلح قاعدة للدفاع عن الشرق الأوسط والعالم الحر .

٢ - حماية حرية المرور في القناة ، وهذا كما ترى إنجلترا أمر لا يهم إنجلترا وحدها بل يهم للعالم جميعاً ، وما وجود إنجلترا ، كما أعلن الجنرال روبرتسون قائد القوات الانجليزية في الشرق

الأوسط في آخر سنة ١٩٥١ (وكان يتكلم باسم الحكومة البريطانية) ،
« إلا مساهمة منها في الدفاع عن العالم الحر » ، ولكن العالم والمسكر
الحر لم ينتدبا إنجلترا للقيام بهاتين المهمتين . ولم ترض مصر صاحبة القناة
منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية عن وجود الانجليز في القناة ، وصرحت
رسمياً بذلك أكثر من مرة ، لانجلترا وللعالم الممثل في مجلس الأمن ، بل
وألغت معاهدة سنة ١٩٣٦ نفسها ، ولقد وجدت إنجلترا في سنة ١٩٥٤ أن
استمرار الاحتلال في قناة السويس لا يحقق رغبات إنجلترا ولا سياستها
بأى حال ، فالقناة لن تكون آمنة ولن تكون مركزاً استراتيجياً ذا غناء
إلا إذا كانت القوات الموجودة فيها مطمئنة ، وإلا إذا كانت المواصلات
بكل أنواعها في منطقة القنال آمنة ، وإلا إذا كانت الأيدي العاملة
والمواد الغذائية فيها متوفرة . وكلها أمور لم تتوفر بعد إلغاء المعاهدة .

ولقد وصفت صحيفة التيمز الأسبوعية في ٢ يناير سنة ١٩٥٢
الموقف الاستراتيجي في قناة السويس من حيث وجهة النظر الانجليزية
في ذلك الوقت فقالت ماملخصه « إن مصلحة إنجلترا الاستراتيجية في
القناة عظيمة ، وأن قواعدها الحرية فيها قيمة ، ولكن التمسك بها في
وجه عداء مصر ومقاومتها معناه ربط عدد كبير من القوات دون
داع ، معناه اضطراب الأمور في الشرق الأوسط . إن القوات
البريطانية في مصر قوية ، وقيمة قواعدها قناة السويس هي في سهولة

اتصالها بالبحر الأبيض المتوسط شمالا وبالبحر الأحمر جنوباً ، فمنها
تستطيع انجلترا إرسال قوات إلى أية جهة في مساحة واسعة ، وأما
الغرض الآخر من وجودها ، وهو الدفاع عن القناة ، فهذا أمر
ثانوى — ولكن إذا كانت القوات الموجودة في هذه القواعد مشغولة
طول الوقت بالدفاع عن نفسها ، فإن قيمة هذه القواعد تقل كثيراً .
ولقد وجدت انجلترا في سنة ١٩٥٤ أن استمرار الاحتلال في
القناة في غير صالحها ، وكان لمشكلة الجلاء أن تحل بالمعاهدة الانجليزية
المصرية التي عقدها حكومة الثورة في سنة ١٩٥٤ . فإيمان مصر الجديدة
بقضيتها وتماسكها ووحدتها وتعزيد العالم العربى لها والظروف العالمية ؛
كل هذه العوامل كانت حاسمة في تسوية هذه المسألة .

ولكن مشكلة القناة لم تنته بعد ، فلقد عادت انجلترا إلى مناصبة
مصر العداء بعد تأميم مصر للقناة في صيف سنة ١٩٥٦ ، ولم تكتف
انجلترا بذلك بل جمدت أرصدة مصر الاسترلينية وهددت باستخدام
القوة إذا لم توافق مصر على تدويل القناة ، وذلك بالرغم من أن مصر
أكدت حرية الملاحة وحق المساهمين في تعويض عادل ، وتماسكت
مصر ولم تنزعزع موقفه بحقها وقانونية عملها وبضرورة المحافظة على
سيادتها وحماية مصالحها .

وإلى هذا التاريخ لم تحل مشكلة القناة .
ولا يسعنى فى هذا الكتاب إلا أن أعترف بالفضل الكبير
الأستاذ محمد شفيق غربال ، لما تفضل به من اقتراحات طيبة ونقد
قيم وعون مشكور .

محمد مصطفى صفوت

الاسكندرية فى ١٥ أكتوبر ١٩٥٦

موضوعات الكتاب

صفحة

مقدمة ..	٣
١ - مصر طريق للتجارة بين الشرق والغرب ..	٩
٢ - موقف إنجلترا من امتياز قناة السويس ..	١٩
٣ - ديزريلي وقناة السويس ..	٤٨
٤ - احتلال إنجلترا لقناة السويس ١٨٨٢ ..	٦٩
٥ - إنجلترا وتحديد مركز القناة من سنة ١٨٨٣ - ١٨٨٨ ..	٩٤
٦ - إنجلترا والقناة من سنة ١٨٨٨ - ١٩٣٥ ..	١١١
٧ - موقف إنجلترا لإزاء القناة من ١٩٣٥ - ١٩٣٩ ..	١٢٩
٨ - إنجلترا والقناة من سنة ١٩٣٩ - ١٩٥٠ ..	١٤٣
٩ - إنجلترا والقناة من سنة ١٩٥٠ - ١٩٥٢ ..	١٥٦
١٠ - الجلاء الإنجليزي عن القناة ..	١٩٤
١١ - إنجلترا وتأميم مصر لشركة القناة ..	٢٢٠
١٢ - من أهم المصادر والمراجع ..	٢٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - مصر طريق للتجارة

بين الشرق والغرب

أشرفت مصر على طريق التجارة بين الشرق والغرب حيناً مذكوراً من الدهر منذ أواخر العصور القديمة ، وظلت تشرف على هذه الطريق خلال العصور الوسطى إلى أن انتصف تقريباً القرن الخامس عشر الميلادى .

وكان جانب كبير من تجارة الشرق فى العصور الوسطى : نفائسه وكنوزه وتوابله وعطوره ومنسوجاته الحريرية والصوفية ومعادنه تأتى من الشرقين الأوسط والأقصى إلى البحر الأحمر لتنتقل عبر الأراضى المصرية فى خليج السويس ثم فى طريق مائىة أو برية إلى النيل ، ومنها إلى ثغور مصر على البحر الأبيض المتوسط ، ثم تنتقل فى ذلك البحر وهو الطريق العالمية المهمة للدواصل ، حيث ترسو على ثغور إيطاليا ، ومن أهمها البندقية وجنوه ، ومن هاتين المدينتين

الذين أصبحنا دولتين قويتين غنيتين ، توزع في بقية أجزاء أوروبا الغربية والوسطى ، حيث قامت مدن أخرى تجارية غنية .

وجنت مصر من هذه التجارة الكبيرة الغنية ، وكانت تجارة كاليات في الغالب أرباحاً طائلة ، وكذلك كل الأمم المطلة على سواحل البحر الأبيض المتوسط أو الواقعة في وسط وغرب أوروبا التي كانت تقوم بنقل أو توزيع هذه التجارة أو الاشراف عليها . فلقد أصبحت الضرائب المفروضة على هذه التجارة مورداً مهماً من موارد الإيراد المصرية .

كانت مصر إذن بموقعها الجغرافي الممتاز حلقة مهمة في سلسلة المواصلات بين الشرق والغرب . وكان المصريون في مختلف العصور هم الذين يشرفون بالفعل على انتقال هذه التجارة داخل حدود بلادهم ، ولم يكن هناك عنصر أجنبي له حق التدخل أو الهيمنة على الطريق التي تمر فيها هذه التجارة . وكانت حكومة مصر في كثير من العهود التاريخية تمتع بالسيطرة التامة على البحر الأحمر وعلى شرق البحر الأبيض المتوسط . وكانت لها الحرية المطلقة في التصرف بما تمليه مصالحها الخاصة ومصالح المصريين .

وترتب على ذلك أن أصبح البحر الأبيض المتوسط أهم طريق للتجارة العالمية بين الشرق والغرب . وأصبح للأمم التي تتصل بها مياهه التفوق في المضمارين التجاري والمالي فترة طويلة من الزمن . وظلت الحال على ذلك إلى أن كاد ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي ، فشاهد العالم تغيراً هاماً لا في وسائل النقل المختلفة ، وإنما

في الطرق التي تسير فيها تجارة العالم . شاهد تحولا واضحا عن البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلنطي .

وكان ذلك بعد أن كشف البرتغاليون ، وهم أولى الدول البحرية ظهوراً في العصور الحديثة ، تلك الطريق البحرية الجديدة الطويلة حول رأس الرجاء الصالح ، وكان الدافع الرئيسي لهذه الدولة هو الاستحواذ على تجارة الشرق الغنية ، والوصول إلى مواطن الثروة فيه عن طريق لا يشرف عليه المسلمون ولا يسيطر عليه الأتراك ، ولا تهيمن عليه مصر التي كانت حتى أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة مركز الإسلام وقلبه النابض وقوته المتفوقة وحصنه الحصين .

فتح إذن المحيط الأطلنطي لأول مرة في تاريخ البشرية للتجارة العالمية ، بعد أن كان بحر الظلمات ، بجزراً مغلقاً يكتنفه الغموض والأسرار والمخاطر ، وتحول إليه نشاط الدول القومية الأوروبية التي نشأت في غرب أوروبا ، لقد استيقظت هذه الدول للوحدة والنمو والاستعمار والتوسع والاستحواذ على تجارة الشرق التي تجلب الثروة والغنى والقوة . استيقظت هذه الدول لاستغلال شعوب الشرق التي كان قد حل بها الضعف والوهن ، وتمزقت وحدتها ، وتدهورت حكوماتها .

وكان أهم هذه الدول الناشئة البرتغال وإنجلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة (هولندا) .

سارعت هذه الدول يدفعها نشاطها وحبها للكسب والمغامرة إلى الهند والشرق الأقصى ، بلد العجائب في ذلك الوقت الذي تجمعت

حواله الأسرار والأساطير ، ونسجت حوله القصص الغريبة ، تنشئ
المحطات التجارية والمستعمرات والقواعد البحرية ، وتكونت في الهند
وفي الشرق الأقصى بصفة خاصة الامبراطوريات الاستعمارية القوية
الانجليزية والفرنسية والهولندية .

وقام النزاع عنيفاً وحاداً لا يبق ولا يذر بين المستعمرين الانجليز
والفرنسيين وانتهى أخيراً بتفوق الانجليز في ذلك الميدان . . ميدان
الاستعمار والامبراطورية .

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه هذه الدول ، دول غرب أوروبا ،
تشرّب للحياة والتوسع والاستعمار ، كانت دول البحر الأبيض المتوسط
التي ازدهرت على تجارة الشرق ، وخاصة مصر ، تزداد ضعفاً على ضعف
وتضمحل بالتدريج ، وانتهى الأمر باحتلال الأتراك الحربى لمصر
والشرق الأدنى في أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

ولكن احتلال الأتراك لمصر لم يعمل على تحسن الأحوال في
وادي النيل ، بل ازدادت الحال خلال عهد الأتراك الطويل سوءاً على
سوء من كل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ثم أخذ
الأتراك أنفسهم منذ النصف الثانى للقرن السابع عشر فى الضعف السياسى
والانحلال الاقتصادى ، وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا هم ودولتهم
التي امتدت فى شرق البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا إلى حدود
مراكش مطمعاً للدول الأوروبية الغربية .

ولم يأت القرن الثامن عشر إلا وقد أخذت الدول الكبرى

الأوربية تفكر جدياً في كيفية تقسيم ممتلكات الأتراك وفي إحياء الطريق الشرقية القديمة للتجارة ، طريق مصر ، فإن نظرة واحدة إلى خريطة العالم تكفي لأن ترى أن مصر تقع في منطقة هي ملتقى القارات الثلاث : أوربا وآسيا وأفريقية ، وأنها بموقعها الجغرافي الممتاز هي أقرب وأيسر طريق بين الشرق والغرب ، وأنه ليس من المستحيل وصل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر ، إما بطريق برية أو بطريق مائية . فلقد وجدت الطريقان في القديم وفي العصور الوسطى .

ومن أهم الدول التي اهتمت بفتح هذه الطريق فرنسا ، فحكومتها تحاول منذ القرن السابع عشر أن تقنع العثمانيين بقيمة فتح هذه الطريق للتجارة الشرقية . وبذلك في ذلك جملة محاولات . ولكن جهود فرنسا في هذه الناحية أثارت حسد إنجلترا ، وخاصة في وقت كان التنازع الاستعماري بين الدولتين على أشده ، ووجد بعض مواطني إنجلترا في الشرق الأدنى أنه ربما كان من الخير لوطنهم أن يشارك في فتح هذه الطريق التي ربما تحولت إليها تجارة الهند والشرق ، فإعادة فتح هذه الطريق قد تعود على إنجلترا بالخير العميم ، وربما عملت على نمو التجارة البريطانية .

وما إن تبوأ المملوك على بك الكبير الحكم في مصر ، وسيطر على جزء من بلاد العرب ، وأعاد لمصر بعض مركزها القوى القديم ، حتى زاد اهتمام الفرنسيين والإنجليز ببذل جهودهما في ذلك السبيل . فالإنجليز من

ناحياتهم يودون لفتح طريق البحر الأحمر إلى السويس لسفنهم الآتية من الهند والمحيط الهندي ، والفرنسيون يودون لو استطاعوا الاستيلاء على تجارة الشرق وحرمان الإنجليز منها عن طريق تحويلها إلى طريق مصر . ولكن الإمبراطورين الإنجليز والفرنسيين لم يظفروا في آخر الأمر بنجاح ، فقد وجدوا عقبات كأداء في طريقهم لا بد من تذليلها ، فالدولة العثمانية ، وإن تظاهرت وقتاً بالإصغاء إلى آرائهم ، إلا أنها كانت أحرص من أن تأذن بفتح هذه الطريق التي تجعل بمتلكات الدولة العثمانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط ميداناً جديداً للتنافس والتوسع الأوربي يصنع فيه النفوذ التركي .

ولقد بررت الدولة العثمانية مسلكها هذا لدى الدولتين الكبيرتين بأن الملاحة الأوربية محرمة في البحر الأحمر ، فضروري للدولة العثمانية احترام مركزها بين المسلمين ، ولا يكون ذلك إلا بالمحافظة على حرمة الأماكن المقدسة الإسلامية من أن ترسوا على شواطئها سفن مسيحية أوربية . والدولة العثمانية وإن كانت ضعيفة من الوجهة الحربية ، ولكن ساستها برعوا حقيقة في فن السياسة ، فكان لهم من بعد النظر السياسي والمهارة في الانتفاع بما بين الدول من أحقاد ومنافسة ما يمكنهم من المحافظة على الدولة وسط التيارات الدوابة العنيفة . وكان هؤلاء الساسة يخشون أن يعمل إحياء طريق مصر على زيادة موارد بكوات الممالك الذين استقلوا بأمور مصر استقلالاً يكاد يكون تاماً ، واحتقروا من

الناحية العملية سلطة السلطان وعملوا على الانفصال عن الدولة العثمانية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولقد حاول الإنجليز والفرنسيون الذين لم تعوزهم الحيلة أن يلجوا باباً آخر للوصول إلى أغراضهم المادية . فحاولوا عقد معاهدات مع بكوات الممالك أنفسهم أصحاب السلطة الفعلية والنفوذ في مصر ، ولكن هذه المعاهدات لم تسفر عن نتيجة ، فأمر مصر السياسية لم تكن مستقرة وأحوال الأمن الداخلي مضطربة وعهود بكوات الممالك لا يوثق بها ولا تربط أحداً .

على أن ما يهمننا في هذا المكان هو أن إنجلترا وفرنسا اهتمتا بأمور مصر ومستقبلها نتيجة لاهتمامها بفتح الطريق القديمة ، ففرنسا ترى أن فتح هذه الطريق سيجلب لها متاجر الشرق ، وسيلحق بتجارة أعدائها الإنجليز الضرر البالغ . والإنجليز من ناحيتهم يرون في فتح هذه الطريق غنماً كبيراً لتجارهم واقتصاداً كبيراً في الوقت والتنفقات وزيادة في الإيراد القومي .

وأتى الفرنسيون إلى مصر في السنتين الأخيرتين للقرن الثامن عشر فاتحين . فقد جعلت حملة بوناپرت من أهدافها الأولى استعمار مصر واتخاذها مركزاً للتوسع في الشرق الأدنى ، وفتح الطريق المائية التي تصل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وتحويل طريق تجارة الشرق . وما إن استقرت أقدامهم في أرض مصر حتى أخذوا يجد في دراسة

مشروع توصيل البحرين دراسة مستفيضة . ولكنه لم يهيا لهم النجاح
فبقائهم في مصر كان قصير المدى ، شغلوا في أثناءه بالدفاع عن مركزهم
في هذه البلاد أمام الأهالي المصريين وأمام الأتراك وأمام الإنجليز .
فضلا عن أنهم في دراستهم للمشروع قد ظنوا أن مستوى أحد البحرين
أعلى من مستوى الآخر .

وخرج الفرنسيون من هذه البلاد ، بعد أن وجهوا ، وهم لا يريدون ،
نظر السياسة الإنجليزية إلى أهمية هذه البلاد من الناحية الاستراتيجية
والحرية ومن ناحية المواصلات العالمية .

وأصبحت لـإنجلترا لأول مرة سياسة خاصة واضحة محددة نحو مصر
وضعت أسسها في مطلع القرن التاسع عشر ، اتبعتها مدة طويلة ، فـإنجلترا
لن تسمح لدولة أوربية بالاستيلاء على أرض مصر أو الاستحواذ
بالنفوذ الأكبر فيها ، ولن تسمح بقيام حكومة قوية في مصر تهدد
مصالح إنجلترا .

على أن مشروع وصل البحرين لم ينته بخروج الفرنسيين ، فلقد ظل
حيّاً في أذهان بعض الفرنسيين والأوربيين ، ولم يكن الإنجليز في أول
الأمرمعارضين له ، بل كانوا مرحبين به . وحاول الفرنسيون والإنجليز
دراسة المشروع دراسة قائمة على أسس علمية صحيحة ، وحاول بعض
الفرنسيين جاهدين تحقيقه في عهد محمد علي والى مصر . ولكن حاكم
مصر القوي في ذلك الوقت الذي حاول الاستقلال بمصر عن الدولة

العثمانية كان له من بعد النظر السياسى وفهم الموقف الدولى ما جعله يعض النظر عن تنفيذه ، وإن كان قد وجه عناية كبرى إلى فتح الطريق البرية التى تمر خلال مصر من الإسكندرية إلى القاهرة ومن القاهرة إلى السويس . هذه الطريق اقتنعت الحكومة الإنجليزية بأفضليتها على القناة من الناحية السياسية ، إذ أنها اعتقدت أن تنفيذ مشروع القناة سيؤدى إلى فتح بوسفور جديد ، وإثارة مشاكل جديدة ، ربما تضطرها إلى احتلال مصر .

ولأسباب مختلفة عمل حكم محمد على القوى على استئجاب الأمن والطمانينة فى كل ربوع البلاد ، وأعدت الطريق البرية لإعداداً تاماً لخدمة أغراض محمد على ولتكون صلة مهمة بين الشرق والغرب . وما خشيه محمد على حاكم مصر من المشروع الفرنسى هو ما كان يخشاه على مستقبل هذه البلاد من إنشاء بوسفور جديد ، كان يخشى عواقب إنشاء قناة بحرية تصل ما بين البحرين وتغير من مركز مصر الجغرافى وتجعل منها ميداناً للتنافس الأوروبى يفقد فيه سيطرته . كان محمد على يرى أن إنشاء القناة سيجعل من مسألة مصر مشكلة دولية يهتم الدول البحرية جميعاً بالتدخل فى تحديد مصيرها . وما كان يرى إليه محمد على هو استقلال مصر فى ظل دولته وعائلته .

ثم يأتى عباس باشا الأول ليتولى حكم مصر ، ويرسم لنفسه خطة محمد على فيها يختص بموضوع القناة . فلما اشبكت إنجلترا وفرنسا فى نضال استعمارى شديد فى وادى النيل ، وأيدت إنجلترا إحياء الطريق البرية

تأييداً كاملاً بوضع مشروع للسكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة والسويس عارضت فرنسا بطبيعة الحال ذلك المشروع معارضة شديدة واستغلت في سبيل ذلك ما لها من نفوذ في مصر وتركيا ، ولكن المشروع الإنجليزي كتب له النجاح ودخل في دور التنفيذ . وفي أثناء إنشاء السكة الحديدية بين مصر والإسكندرية مات عباس باشا الأول ، واعتلى سعيد باشا منصة الحكم في مصر والياً للدولة العثمانية .

وشاء الله أن ينجح المشروع الفرنسي ، مشروع إنشاء القناة ، كما نجح المشروع الإنجليزي من قبل . وكان لشخصية فردناند دى لسبس صاحب المشروع ، وصبره ومثابرته وجرأته ثم لصلته الوثيقة بوالى مصر الجديد أثر كبير في إخراج المشروع الفرنسي إلى حيز الحياة والتحقيق .

ومنح سعيد باشا دى لسبس امتياز قناة السويس بشروط مجحفة بحقوق مصر وصالح المصريين ، فلقد نص في الامتياز الممنوح للشركة العالمية لقناة السويس على تسخير عدد كبير من الفلاحين المصريين لخدمة الشركة وتنفيذ أغراضها . كما أعطاهما فرمان الامتياز من امتيازات الملكية ومن حيازة مساحات شاسعة من الأراضي في منطقة القناة ما لم يسمع له نظير ، وليس هنا المجال لشرح نصوص ذلك الامتياز أو التعليق عليه . ولكن يكفي أن نقول أن وجهة نظر سعيد باشا كانت ترمى إلى تثبيت مركزه في مصر قبل كل شيء . ولذا فهو يقدم كل التسهيلات ويبدل كل شيء في سبيل تدعيم مركز شركة القناة وفي سبيل تحقيق المشروع .

٢ - موقف إنجلترا من امتياز قناة السويس

(١٨٥٤ - ١٨٦٩)

كانت الحكومة الانجليزية تنظر إلى مشروع قناة السويس كشروع فرنسى قبل كل شىء من شأنه أن يجعل للفرنسيين نفوذاً كبيراً فى مصر يمكنهم من التحكم فى طريق عالمية للخدمة أغراضهم الامبراطورية الخاصة . حقيقة كانت تربط إنجلترا بفرنسا فى الخمسينات للقرن التاسع عشر فى عهد الامبراطور نابليون الثالث ، صلات ود وصداقة نمت فتحوّلت إلى تحالف متين الاواصر فى حرب القرم ، حين وقفت الدولتان جنباً إلى جنب مع الدولة العثمانية ضد أطماع الروس . ولكنه بالرغم من وجود ذلك الحلف لم تنس الدولتان أبداً تنافسهما القديم فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى ميدان الاستعمار .

ففرنسا خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ترى أن سواحلها الجنوبية تطل على ذلك البحر ، وهذا يعطيها الحق كما رأت فى أن تعمل على تفوق نفوذها فيه ، وخاصة فى مصر والشرق الأدنى . فذكريات حروبها فى ذلك البحر ، وذكريات صليبيها ومعاهداتها بصفتها بنت الكنيسة الكبرى مع الدولة العثمانية — كل هذه تشير إلى مستقبل زاهر لفرنسا فى ذلك البحر ، وبصفة خاصة فى مصر وفى شمال إفريقيا ولقد كانت مصر طوال هذا العهد فى نظر فرنسا هى الميدان الذى

جاهد فيه لويس التاسع في حملته الصليبية . وجاء إليه أنبغ أبناء فرنسا من رجال الحرب بحملته المشهورة التي أيقظت مصر من سبات العصور الوسطى . ومصر هي البلاد التي احتلها الفرنسيون ، وقاموا فيها بمشروعاتهم العظيمة وأزاحوا الستار عن ماضيها المجيد . ومصر هي البلاد التي ساعدوا على نهضتها الحديثة في عهد محمد علي وأبلى منهم بلاء حسناً رجال في خدمة ذلك الوالي القوي ، في تكوين جيشه وبناء أسطوله ، وتدعيم التعليم في عهده .

وكانت سياسة لوى فيليب في الأربعينات من القرن التاسع عشر عاملة بلا ريب على إحياء الدول الصغيرة في البحر المتوسط وربطها بفرنسا بحبال صداقة لا تنفصم ، ففرنسا في ذلك الوقت ترى أن لها دلالة على مصر وعلى ولايتها من أبناء محمد علي ، ولها الحق أن تمتع بنفوذ متفوق في وادي النيل .

ولذا فبالرغم من صلات الصداقة والود التي كانت تربط الدولة الفرنسية بالجلترة في عهد لوى فيليب ونابليون الثالث . فلقد عملت الحكومة الفرنسية (بصفة غير رسمية) ومن وراء ستار على مكافحة النفوذ الانجليزي في كل مكان في البحر الأبيض المتوسط ، في الدولة العثمانية ، في شمال إفريقيا ، وفي مصر بصفة خاصة .

وكيف تعمل فرنسا على نمو نفوذها في مصر؟ لا يكون ذلك باحتلال مصر ، فبريطانيا بقوتها البحرية ووافقة لها بالمرصاد ، ولن تسمح بذلك أبداً .

بل هي على قدم الاستعداد للدخول في حرب ضروس مع فرنسا إذا حاولت هذه المحاولة الجريئة . ثم إن نابليون الثالث الذي كان يدير شئون فرنسا الداخلية والخارجية في ذلك الوقت كان أبعد الناس تفكيراً عن أن يقوم بأى عمل من شأنه إفساد علاقته الطيبة بالإنجلترا ، فأنجلترا هي الدولة الكبرى التي رحبت بمقدمه إلى تولي تقاليد الأمور في فرنسا ، وهي التي اعترفت رسمياً بحكمه ، ونسيت تاريخ وعداوة عمه ، ولم تثر عقبات في وجهه . وبعد ذلك فنابليون الثالث لا يرى أبداً الدخول في حرب مع صديقه الأخرى ، الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، وخاصة بعد أن وقف في صفها وحارب بجانبها ضد روسيا وبعد أن أعلن إعلاناً تمسكه بسياسة المحافظة على كيائها وسلامة ممتلكاتها .

ولكنه مع ذلك لم يكن لدى عاهل فرنسا الكبير مانع من أن يعمل الفرنسيون على زيادة نفوذ فرنسا في مصر بالطرق السياسية ، وذلك بالقيام بالأعمال والمشروعات العظيمة التي سترفع بلا ريب من مركز فرنسا في مصر والعالم .

ونابليون الثالث بعد ذلك رجل عواطف وخيالات تملأ المشروعات ذهنه وتعرض كثير من الآمال الغامضة تفكيره ، فهو تارة يفكر في إنشاء امبراطورية عربية في شمال إفريقيا ، وتارة تدور في خلدّه صور لسيطرة فرنسا على أهم الطرق العالمية التي تصل بين الشرق والغرب . فلا عجب إذن إذا أولى مشروع دى لسبس عطفه وتمنى له النجاح ،

وبذل له كل تأييد سياسي يمكن لاسيما وأن مشروع فردنند دي لسبس ليس مشروعاً حكومياً رسمياً أخذت الحكومة الفرنسية على عاتقها تنفيذه . وإنما هو مشروع فردى خاص ، يقوم به أحد الأفراد الفرنسيين ، له ولعائلته من قبل صلات وثيقة سياسية وشخصية بالشرق الأدنى ومصر . وقد أعلن نابليون الثالث مراراً في سنة ١٨٥٦ أنه قد اهتم بالمشروع وبدراسته وأكد مرة لدى لسبس « إنك تستطيع أن تعتمد على تأييدى وحمايتى ، والواقع إنه لم يكد سعيد باشا بمنح دي لسبس فرمان امتياز القناة حتى تقدم نابليون الثالث فمنح سعيد باشا نيشان اللجيون دونور .

وشارك نابليون الثالث في عطفه على مشروع دي لسبس الصحافة الفرنسية التي أيدت المشروع كمشروع قومى ، وكذلك الهيئات العلمية وخاصة أكاديمية العلوم في باريس . وكان المشروع يجد كذلك كثيراً من العطف خارج فرنسا من الدولتين النموية والروسية ، فقد كانتا تؤمنان بقيمة المشروع .

وأما الحكومة الإنجليزية فلقد كانت تفهم جيداً مراعى السياسة الفرنسية ، وعملها على التفوق في الشرق الأدنى ، بل وسعيها لتحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة فرنسية . ولذلك فالحكومة الإنجليزية تبذل جهودها لوقف ذلك التفوذ والعمل على تفوذ التفوذ الإنجليزي . حقيقة لم تكن لانيجلترا سواحل مطلة على ذلك البحر . ولكن قوة انجلترا وتفوقها البحرى ، وقواعدها الحصينة في جبل طارق ومالطة ،

وصلات الصداقة والتحالف التي كانت تربطها مدة طويلة بالدولة العثمانية ، كل ذلك جعل لها مركزاً قوياً بل وممتازاً في ذلك البحر .

وإذا كانت فرنسا تعمل جاهدة على إنشاء دول صغيرة في البحر الأبيض المتوسط مدينة لفرنسا بوجودها واستقلالها ، فلقد ناضلت إنجلترا بقوة هذه المحاولة ونجحت في ذلك نجاحاً مذكوراً . ظهر ذلك النضال في تأييد فرنسا لمحمد علي في حركته الاستقلالية التي كانت ترمي إلى الانفصال عن الدولة العثمانية في سنتي ١٨٣٩ ، ١٨٤٠ ووضع حد للسيادة التركية العتيقة البالية ، وفي وقوف إنجلترا في طريقه وقضائها على آماله .

ولقد أخذ يمثلو إنجلترا في بلدان البحر الأبيض المتوسط ، وقناصلها ، على عاتقهم تنفيذ هذه السياسة بحذافيرها ، وغلوا في ذلك غلواً كبيراً ، واشتدت حماسهم ، وقام بينهم وبين زملائهم الفرنسيين تنافس شديد بل ونضال حتى أواره تنوسيت فيه في كثير من الأحيان آداب المجاملة الشخصية ، ووصل الخصام بين الفريقين إلى حد أن قطعوا صلاتهم الشخصية . وكثرت تقاريرهم إلى حكوماتهم ، وطالت ، وامتلأت بالصور القائمة والتم الكثيرة . فيكتب القنصل الانجليزي ريتشاردود ، وهو من القناصل الانجليز الذين كانوا هممة ونشاط النفوذ الفرنسي مدة طويلة في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا ، وأحد الذين أثاروا الشغب على حكم محمد علي في الشام — يكتب مذكرة مطولة إلى حكومته

بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٨٥٩ ، يرسم فيها صورة قائمة حالكة لمشاريع فرنسا في البحر الأبيض المتوسط ، ففرنسا ، في نظره ، تبذل جهوداً مضنية في سبيل فصل مصر وتونس عن الدولة العثمانية ، لتضم تونس إلى ممتلكاتها الجزائرية ، ولتحتل مصر في أول فرصة مناسبة .

وحين يصف ذلك الفصل مركز فرنسا وانجلترا في البحر الأبيض المتوسط لا يجد في سياسة فرنسا الخارجية سوى محاولة إلحاق الضرر بمصالح انجلترا . ووجد أن فرنسا قد أصبح لها مركز قوى في ذلك البحر ، وخاصة بعد احتلالها لإقليم الجزائر ، وتركيزها لقوات بحرية وبرية كبيرة في شمال إفريقيا .

وهو يسطر في مذكرته الطويلة المذكورة أن فرنسا إذا أرادت الاضرار بانجلترا ، فهي دائماً تلجئ إلى مهاجمة المصالح الانجليزية في البحر الأبيض المتوسط ، وبين أن ما يرمى إليه الفرنسيون من بذل هذه الجهود ، هو أن يضعوا انجلترا في مركز لا تستغني فيه أبداً عن صداقة الفرنسيين إذا أرادت المحافظة على ممتلكاتها في الهند ، وقال إن الفرنسيين يستخدمون في سبيل الوصول إلى بغيتهم والأضرار بمصالح انجلترا كل الوسائل مشروعة كانت أو غير مشروعة .

فانجلترا إذن تكافح بقوة في سبيل منع الفرنسيين من الحصول على امتياز من وإلى مصر خاص بشق القناة . وكلما ازدادت حماسة الفرنسيين في تعضيد مشروعاتهم ازدادت حماسة الانجليز في معارضته . بل لقد

وضعت إنجلترا مشروعاً قوياً منافساً للمشروع الفرنسي ، وهو مشروع إنشاء السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة والسويس . ونجحت في ذلك مع والى مصر عباس باشا الأول الذى لم ينس درس سنة ١٨٤٠ وعرف مقدار ما تستطيعه القوة البحرية الانجليزية ، تيقن عباس باشا الأول من أن إنجلترا لديها العزم القوى على تنفيذ سياستها في الوقت الذى هددت فيه فرنسا وأندرت ، ثم أخيراً تخاذلت عن نصرته والى مصر فى أزمته الشديدة سنة ١٨٤٠ . رأى والى مصر الجديد أن يحامل إنجلترا ويؤجل المشروع الفرنسى غير آبه كثيراً لإلذار فرنسا له بالعمل لدى الباب العالى على عزله عن ولاية مصر .

أرسلت الحكومة الانجليزية تعليقات إلى فصلها العام فى مصر بأن يقنع عباسا الأول بقيمة مشروع السكة الحديدية ، وبأن مشروع القناة يكلف ما لا يطاق من الجهد والوقت والمال ، فال والى ناحية المشروع الانجليزى وعمل على تنفيذه .

ولكن فردندى لسبس استطاع أن ينتهر فرصة تولى سعيد باشا فيسارع إلى مصر مذكراً والى الجديد بصلاتهما الوثيقة القديمة ، ويجد من والى الجديد ترحيباً كبيراً ، وينجح فى إقناعه بقيمة المشروع الفرنسى فى فتح القناة البحرية وتوصيل البحرين ، ولا يدرى أحد بالدقة ماذا دار بينهما من حديث ، وماذا وضع دى لسبس أمام سعيد باشا من آمال ، ولا يدرى بالضبط ماذا كان يدور بخلد والى مصر من

دوافع لمنح مثل ذلك الامتياز ، وإن كان البعض يظن أن غرض الوالى كان العمل على اكتساب صداقة فرنسا وتأييدها لاستقلاله إذا ما تأزمت الأمور بينه وبين الباب العالى صاحب السيادة على مصر .

يوافق سعيد باشا على منح فردندى لسبب الامتياز الخاص بمشروع فتح القناة البحرية التى تتصل فيها مياه البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، ويتم ذلك فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ .

ويستقط فى يد انجلترا ، فلقد أخذ فردك بروس يمثلها فى مصر فجأة بتصميم سعيد باشا على منح ذلك الامتياز وتنفيذ ذلك المشروع ولم يفلح فى تحويل الوالى عن رأيه ، حتى بعد أن أعلن منذراً بأن الحكومة الانجليزية لا تستطيع أن توافق على ذلك المشروع ، فهو فى نظرها مشروع خيالى وغير عملى . ولم يحن الوقت ولا الظروف الملائمة لمحاولة تنفيذه . وأن خيراً منه هو إتمام مشروع الطريق البرية الحديدى من القاهرة إلى السويس .

على أن الحكومة الانجليزية لم تجد فى ذلك الوقت أن تقدم إنذاراً رسمياً للوالى ضد تنفيذ ذلك المشروع ، فالعلاقات بينها وبين الحكومة الفرنسية كانت بصفة عامة جيدة . وتقديم مثل ذلك الإنذار معناه أن الحكومة الانجليزية تحارب رسمياً مصالح الفرنسيين ومشاريعهم فالحكومة الانجليزية لم تتخذ مثل هذه الخطوة ، ولم ترد الذهاب إلى ذلك الحد .

ثم إن منح سعيد باشا للامتياز ليس بذى أهمية كبيرة ، إلا إذا وافقت عليه الدولة صاحبة السيادة على مصر . فعلى الحكومة الإنجليزية إذا أرادت عرقلة المشروع أن تبذل مساعيها لدى الباب العالى فهو صاحب السلطة الرسمية فى مصر ، وأن تنصحه بعدم الموافقة على الامتياز أو على الأقل بتأجيل النظر فيه .

وكان سفير الحكومة الإنجليزية لدى البلاط العثمانى سترانفورد دى ردكليف - وكان يتمتع فى الأستانة بنفوذ لا نظير له ، كان يرى أن على انجلترا أن تبين للباب العالى خطر المشروع الفرنسى على الدولة العثمانية ، فما تريده فرنسا من وراء ذلك المشروع هو فصل مصر عن الدولة العثمانية بممر مائى يصلح لأن يكون خطأ دفاعياً حريباً ، وإنشاء مستعمرة فرنسية فى شرق مصر ، ثم السيطرة على كل مصر بعد ذلك . ولذا فخير للباب العالى ألا يصدق على الامتياز . ولم تقتصر محاولات سترانفورد على ذلك ، بل طلب تعليقات رسمية من حكومته تؤيد موقفه . ولذا وجد لورد كلارندن ، وزير الخارجية البريطانية ضرورة الاتصال بسفير الحكومة الفرنسية فى لندن ليبين له وجهة نظر الحكومة البريطانية فى مشروع القناة ، فهذه الوجهة تتلخص فيما يلى :

١ - نظراً لأن تنفيذ المشروع يستلزم نفقات كثيرة فالغرض الواضح منه سياسى .

٢ - والمشروع يؤخر إتمام السكة الحديدية من

الإسكندرية إلى السويس .

٣ - المشروع وليد سياسة عدائية بالنسبة لمصر من ناحية فرنسا .
ولم تجدد محاولات فردنند دى لسبس في الاتصال بستراتفورد ،
وإقناعه بأهمية المشروع وعدم تعارضه مع المصالح الإمبراطورية
الإنجليزية ، وأن المسألة مسألة مصرية تركية قبل كل شيء . لا داعي فيها
للتدخل الحكومي الإنجليزي أو الفرنسي .

ولقد نجح ستراتفورد دى ردكليف في نصحه للباب العالي ، بما عقد
الأمور كثيراً لدى لسبس . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أرسل
الباب العالي نتيجة لمساعي إنجلترا خطاباً شديد اللهجة إلى سعيد باشا في
مصر يحذره فيها عواقب عمله الجريء .

ومع ذلك فقد قدر للمشروع الفرنسي البقاء نظراً لتدخل الدولة
النمساوية في صالح دى لسبس ، فلقد كانت تعضد المشروع الفرنسي
تعضيداً كبيراً .

ولقد اصطدمت المصالح الإنجليزية والفرنسية في هذا المشروع
وهاجت بينهما الإحن القديمة ، إحن القرن الثامن عشر ، إلى حد أن وجدت
الحكومتان الإنجليزية والفرنسية ضرورة المحافظة على تحالفهما وعلاقتهما
الطيبة ، فانفقتا فيما بينهما على أن تمتنع عن التدخل الفعلي لابتعضيد المشروع
ولا بالعمل على فشله . ولكن هذا الاتفاق لم يمنع الحكومة البريطانية
من أن تتابع خطتها في بث العقبات والعراقيل أمام المشروع الفرنسي .

وهذا الموقف اضطر صاحب المشروع بطبيعة الحال للقيام بالدعاية للمشروع في إنجلترا ذاتها .

وكان على رأس الوزارة في إنجلترا في ذلك الوقت لورد بامرستون وهو يمثل الرجل الانجليزي والسياسي الانجليزي أصدق تمثيل ، فهو مؤمن بتفوق إنجلترا ويعمل لعظمتها وخدمة مصالحها قبل كل شيء ، ويرى أنه من الواجب على الدول الأخرى أن تستمع لآراء إنجلترا بما لها من مركز قوى ممتاز في العالم . وهو لا يتقيد كثيراً بالخيارات ولا يؤثر فيه النواحي العاطفية إذا ما تعارضت مع مصالح إنجلترا الحقيقية ، وهو لم تماماً بأمور السياسة الخارجية لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من أمورها .

وهو فوق كل شيء من أكبر دعاة الإمبراطورية البريطانية ، ومن القائلين بضرورة حماية مواصلاتها وطرق تجارتها . وهو الذي وضع سياسة إنجلترا التقليدية في الشرقين الأدنى والأقصى . فليس إذن غريباً أن يعارض هذا الرجل كل مشروع فرنسي ، فهو لا يوافق على مشروع القناة ، لأنه يرى أن المشروع يتعارض مع مصالح إنجلترا الإمبراطورية وهو لا يثق كثيراً في استقرار الأمور السياسية في فرنسا ، وخاصة ما يتعلق منها بنظام الحكم ، ويرى أن إنجلترا يجب أن تتمسك بطريق الأطلنطي لأنها تستطيع الإشراف عليه ، وهي مشرفة عليه بالفعل بقوتها البحرية المتفوقة .

فهو يعترف بأن حكومة نابليون الثالث صديقة لـإنجلترا ، ولكنه لا يستطيع أن يضمن أن الحكومة التي تخلفها في المستقبل ستحافظ على ولاء إنجلترا . فقد تستغل هذه الطريق الجديدة لمناوأة النفوذ البريطاني ومحاربة المصالح الانجليزية فيما وراء البحار والأضرار بها .

ولذلك حين حاول دى لسبس الاتصال به لم يجد منه أذناً صاغية . فلقد بين بامرستون لصاحب المشروع بصراحة ووضوح ، شأنه في كل تصريحاته السياسية ، بأنه لا يوافق على ذلك المشروع فهو غير عملي ولا يمكن تنفيذه .

على أن موقف الحكومة الانجليزية العدائي لم يدع دى لسبس إلى القنوط أو إلى التنازل عن فكرته ، ولذا فهو يحاول الاتصال بالزعماء الانجليز الآخرين من أمثال كوبدن ، وجلادستون . وحاول كذلك الاتصال بالرأى العام الانجليزي ، يقنعه بقيمة المشروع من الناحية العملية ومن الناحيتين الحضارية والانسانية . أرسل خطابات إلى أعضاء البرلمان الانجليزي وإلى إدارة شركة الهند الشرقية وأصحاب السفن وأعضاء الغرف التجارية وكبار رجال الصناعة وأصحاب المصارف ، يحاول أن يقنعههم بفائدة المشروع من الناحية العملية والمالية ، ولم تذهب كل مساعي دى لسبس دون جدوى ، فلقد أظهرت شركة الهند الشرقية عطفها على مشروعه ، وكذلك بعض شركات خطوط الملاحة لاسيما شركة الـ P. & O.

والواقع أن الرأي العام البريطاني لم يكن مجمعاً على معارضة المشروع، كما كانت الحكومة الانجليزية معارضة له . فلقد كان جانب منه مجبداً للناحية التجارية للمشروع ، وهذا شجع دى لسبس على أن يسير قدماً في مشروعه وفي طريقه ، وأن يبين للرأي العام الانجليزي أن المشروع ممكن تنفيذه من الناحية العملية ، فأعلن أن تقارير المهندسين الفرنسيين من أمثال لينان بك وموجل بك قد أثبتت بطريقة لا تقبل الشك أن المشروع من الناحية الهندسية عملي ويمكن تنفيذه . ولم يقتصر دى لسبس على ذلك ، فهو رجل جم النشاط متملىء بمشروعه ، موثق بقيمته ، كبير الأمل في تحقيقه ، كوّن دى لسبس لجنة دولية ضم إليها عدداً من كبار المهندسين الانجليز أنفسهم لفحص المشروع ودراسته والتقرير عن إمكان تنفيذه .

ولقد بدأت اللجنة الدولية عملها في سنة ١٨٥٥ ، وانتهت من وضع التقرير في يناير سنة ١٨٥٦ ، ولو أنه لم ينشر إلا بعد ذلك . وفي ذلك التقرير أيدت اللجنة الدولية إنشاء القناة البحرية التي تصل ما بين البحرين ، وبينت أن التنفيذ ليس صعباً كما يتصور المعارضون ، وأن النجاح في إنجاز المشروع ممكن .

وعلى أساس هذا التقرير الجديد . حاول دى لسبس في يوليو سنة ١٨٥٧ الإجابة على اعتراضات بامرستون ، وبين أن الرد على هذه الاعتراضات قائم على أسس تجارية وفنية وسياسية . فن الناحية التجارية قيمة

المشروع لا تقدر لانجلترا ، لايحتاج ذلك إلى بيان في نظره . فطريق القناة إذا تمت أقرب الطرق إلى الشرق وفي هذا توفير للوقت والمال والجهد ، وأما من الناحية العملية فهذا تقرير اللجنة الدولية التي تجمع بين أعضائها أعضائها عدداً من كبار المهندسين الانجليز يقول بأن المشروع عملي ويمكن تنفيذه ، وقد أبدت هذا التقرير أكاديمية العلوم في باريس والمعهد الامبراطوري الفرنسي . وأما من الناحية السياسية فأراء لورد بامرستون قائمة على أساس أخطار وهمية على الهند والامبراطورية العثمانية ولا خطر على الدولة العثمانية من مشروع القناة طالما يملك الانجليز جبل طارق ومالطة وعدن وجزيرة پریم . أما الدولة العثمانية فمركزها مضمون بالمعاهدات والمواثيق الدولية. بل إن فتح القناة سيجعل مصر بمنأى عن أطماع الدول الأوروبية إذ سيجعل لها مركزاً عابداً ١١ وفي هذا كما يرى دى لسبس تأييد لسياسة الانجليز التقليدية في المحافظة على على سلامة الدولة العثمانية !

كان دى لسبس يرى أن لهجة بامرستون متناقضة وغير منطقية وغير معقولة ، فلا داعي في نظر دى لسبس لأن يعتقد بامرستون أن سيامة فرنسا مربية ، وأن فرنسا هي التي شجعت محمد علي على مناورة انجلترا ، وأن ذهب لوى فيليب ملك فرنسا هو الذي أنشأ قلاع الاسكندرية وأن مشروع القناة يرى إلى مناورة انجلترا .

وعلى أي حال فلقد نال دى لسبس على أساس تقرير اللجنة الدولية من سعيد باشا امتيازاً جديداً خاصاً بالقناة روعي فيه مقابلة بعض مخاوف

انجلترا ، فلقد نص فيه على حياد القناة ، وأن معظم من سيقومون بالتنفيذ مصريون لافرنسيون ، كما نص فيه أيضاً على ضرورة موافقة الباب العالي . ولقد كان تكوين هذه اللجنة الدولية ، والنتيجة التي وصلت إليها ، من العوامل التي زادت ثقة دى لسبس في مشروعه ، وضمت جانباً كبيراً من الرأي العام والانجليزى والأوربى إلى صفه في مشروعه الجرىء .

على أن الحكومة الانجليزية استمرت في معارضتها للمشروع ، وبررت ذلك الموقف بتعارض المشروع مع سياسة انجلترا التقليدية إزاء الدولة العثمانية ، وأنه سيوجد فاصلاً مائياً بين مصر وتركيا . وردد بامرستون هذا رأى بصراحة تامة في مجلس العموم البريطانى في شهر يولية سنة ١٨٥٧ . فلما ثار موضوع القناة في مجلس العموم البريطانى في يونيه سنة ١٨٥٨ ، أعلن بامرستون أن تنفيذ المشروع سيعمل على انحلال الامبراطوريتين العثمانية والبريطانية ؛ وأن السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية تكفى لخدمة مصالح انجلترا أكثر بكثير من حفر القناة . وأبان جلادستون في الجلسة نفسها عن ضعف هذه الفكرة ، وذكر أن القناة بجرى مائى ، وإذا قدر لها أن تقع في يد أية دولة ، فستقع في يد أقوى الدول البحرية وهى انجلترا ، وطلب من الأعضاء أن ينظروا إلى مشروع القناة لا كشروع سياسى ولكن كشروع تجارى قبل كل شيء . ولكن آراء جلادستون وإن تركت

أثراً في الرأي العام البريطاني إلى أنها لم تحول الحكومة البريطانية عن رأيها .

فلقد عبر لورد كلارندون وزير الخارجية إذ ذاك عن رأي الحكومة البريطانية في ضرورة الوقوف أمام المشروع ، بل وأندرك الباب العالي بأنه إذا صدق على الامتياز الممنوح لدى لسبس . فيجب ألا ينتظر أن تستمر بريطانيا أو غيرها من الدول الكبرى الأوربية في سياسة المحافظة على الدولة العثمانية وعلى سلامتها . ولم تجد كثيراً محاولات الأباطور نابليون الثالث لإقناع الحكومة البريطانية بالكف عن معارضتها .

ولم يمنع هذا لدى لسبس من المضي في تنفيذ مشروعه ، فلو استطاع جمع المال اللازم لتنفيذ المشروع ، لهدم هذا حجة قوية من حجج الحكومة الانجليزية بأن المشروع غير عملي ، وأنه لن يقبل على المساهمة فيه أحد . ولذا لما فتح لدى لسبس باب الاكتتاب في المشروع تهافت عليه بعض الناس في أوربا ، فكان نجاح الاكتتاب من عناصر تقوية المشروع وتأيدده . وإن كان الانجليز أنفسهم لم يكتبوا في الأسهم التي كانت مخصصة لهم !

ولكن ما تطلبه تنفيذ المشروع من نفقات باهظة ومالافاه من صعوبات كثيرة في أول الأمر كاد يودي بكل المشروع لولا العطف والتأييد الذي لاقاه من امبراطور الفرنسيين ومن الحكومة الفرنسية والرأي العام الفرنسي ومن تأييد والى مصر .

إذ أنه في سنة ١٨٦٠ بعد أن تابعت شركة القناة أعمال الحفر كتبت الصحف اليومية الإنجليزية مثل «الديلي نيوز» و«التيمنز» تسخر من المشروع ، وتبين ، متهمكة ، أن من السهل حفر حفرة كبيرة في الصحراء وجمع أكوام من التراب الذي تذرره الرياح ، فيخطئ الحفر من جديد. وأبانت عن أن المشروع فاشل لا محالة وسيكلف كثيراً من النفقات التي لا تستطيع القيام بها شركة خاصة ، وردد مثل هذا القول في البرلمان الإنجليزي . فقال بامرستون أن المشروع مجرد جمعية وخداع ، وأنه سيكلف من الوقت والمال والعمل ما لا تستطيعه شركة القناة ، وأضاف في خلال كلامه أن والى مصر قد اضطر إلى الاقتراض من مصرف في مارسيليا للوفاء ببعض التزاماته إزاء شركة القناة .

وفي السنة التالية في مايو ثارت في البرلمان الإنجليزي معارضة شديدة ضد المشروع الفرنسي ، وتكرر نفس الطعن السابق . فالمشروع في نظر بعض الأعضاء غير عملي من الناحية التجارية ، فهو كثير النفقات كبير الخسارة على المساهمين ، وفوق كل ذلك فهو يعطى الشركة الفرنسية أراضى شاسعة في قلب مصر حول القناة ؛ وأن الحكومة الفرنسية قد تستطيع استخدام هذه الأراضى لمصلحتها الخاصة والاستفادة من مركز المنطقة الاستراتيجي . وذكر بعض الأعضاء أن المشروع في نظر فرنسا له قيمته الاستراتيجية ، وأنه لا يمكن اعتبار شركة القناة شركة خاصة فهي شركة تسكلم باسم الشعب الفرنسي وتدعى أنها

تمثل الحكومة الفرنسية وتطلب تأييدها في كل آونة وأخرى . وأشير إلى زيادة عدد الرعايا الفرنسيين في مصر ، وطلب إلى الحكومة الإنجليزية أن تستوضح من الحكومة الفرنسية موقفها الحقيقي إزاء هذا المشروع . وأجاب ممثل الحكومة البريطانية في البرلمان بأن سياسة بريطانيا ثابتة لم تتغير فهي تراقب الموقف بدقة متناهية ، وهي لا تعترض على المشروع كمشروع تجارى ولكنها تنظر إليه بالنسبة لتركيا وإزاء مركز مصر السياسى . ونادى بعض الأعضاء بأنه يكفى انجلترا المحافظة على بوسفور واحد ، وأنه لا معنى لمشروع يضع انجلترا بين يدي فرنسا وتحت رحمتها ، لأنه إذا نفذ المشروع ، فعندئذ تستطيع فرنسا إرسال أساطيلها بسرعة ، وقطع المواصلات بين انجلترا والهند . ولذا فلا مناص لانجلترا من معارضة المشروع .

ولجأت انجلترا إلى عرقلة المشروع في دور التنفيذ من ناحية أخرى ، فأثارت مسألة تسخير الفلاحين في أعمال الحفر . فهاجمت الصحف الإنجليزية تسخير الفلاحين على أساس أنه ليس إلا صورة من صور الرق ، ووصفت ما يلاقيه هؤلاء العمال من عذاب وقسوة ، مثلهم في ذلك مثل الرقيق في الولايات الجنوبية للولايات المتحدة . ولقد أثير مراراً موضوع السخرة في البرلمان الإنجليزي ، وطالب بعض النواب الحكومة الإنجليزية بأن تعمل ما في وسعها للتخفيف من آلام وشقاء هؤلاء البؤساء .

على أن محاولة الانجليز عرقلة المشروع من هذه الناحية لم تنجح كثيراً ، فلقد أسرع دى لسبس في تنفيذ مشروعه لبضع الحكومتين العثمانية والانجليزية أمام أمر واقع ، والتنفيذ من شأنه أن يقنع الحكومة الفرنسية بضرورة تأييد المشروع وحماية أموال المساهمين الفرنسيين . وفي ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٢ وصلت مياه البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة التمساح ، فالنجاح الذي أحرزه أبناء فرنسا من المغامرين في منطقة صحراوية ، كان لها أثره المشهود على الرأي العام الأوروبي والانجليزى .

ولم يحول هذا الحكومة البريطانية عن رأيها وعن عداتها للمشروع ولتنفيذه . فعادت إلى الاحتجاج الشديد على شروط الامتياز . فهي شروط كما بينت مجحفة بحقوق السلطان وحقوق واليه على مصر . وأقنعت الباب العالي بضرورة إرجاء موافقته إلى أن تنتهى الشركة من تسخير الفلاحين المصريين .

لقد كان الفلاحون المصريون يجمعون جمعا ، ويساق بهم إلى أماكن الحفر كالأنعام أو كالرقيق الدليل ، وذلك في أعداد كبيرة قد تصل إلى عشرين ألفاً طوال أيام السنة تقريباً . وهناك يسامون الخسف فلا يعنى بصحتهم ولا بمعاملتهم كأدميين لهم حقوق الإنسان العادى . وكانت المتاعب والآلام لا تقتصر على هؤلاء العمال وخدمهم بل كذلك على زوجاتهم وأطفالهم الذين كانوا يتركون بغير عائل . وكثيراً

ما كانت الشركة تتوقف عن دفع أجورهم الزهيدة التي لاتسمن ولا تغنى من جوع ، ، هذا ما قاله خصوم الفرنسيين في مجلس النواب البريطانى . والواقع أن العمال كانوا يجمعون من كل أجزاء مصر ، ويسIRON المسافات الطويلة حتى يصلوا إلى مناطق الحفر ، ثم بعد ذلك يقطعون المسافات الطويلة إلى القاهرة لصرف الصكوك المعطاة لهم ويقاسون الأمرين فى سبيل ذلك .

* * *

ولم يؤثر موت سعيد باشا تأثيراً كبيراً فى تصميم الشركة على إنجاز المشروع ، وإن كانت الشركة قد فقدت فيه عوناً كبيراً . ولكن اسماعيل باشا كان لحسن حظ الشركة ، مؤيداً من ناحية المبدأ للمشروع فهو يرى أن المشروع إذا تم إنجازة فسيجعل لمصر مركزاً ممتازاً فى العالم ، وسيجعل لاسم حاكم مصر دويلاً لم يكن له من قبل .

ولكن اسماعيل باشا لم يكن يرضى عن كل شروط الامتياز ، وخاصة ما كان متصلاً منها بالسخرة ، فلم يكن ليرضى عن تسخير الفلاحين المصريين . ورأى مقدار الخسارة التى تحل بمصر والزراعة من جراء ذلك ، إذ مصر فى ذلك الوقت بلد زراعى قبل كل شيء . فضلاً عن أن تسخير الفلاحين المصريين بهذا الشكل يتنافى مع أبسط مبادئ الإنسانية .

واستغلت إنجلترا هذا الموقف الجديد لصالحها ، فما كانت الحكومة

الإنجليزية ترى أن ترك مسألة تسخير الفلاحين المصريين تمر بسهولة لصالح الشركة ، فلقد أرادت انتهاز هذه الفرصة لإرهاق الشركة وعرقلة المشروع إن لم يكن القضاء المبرم عليه .

لقد استغلت الحكومة الإنجليزية الحركة الإنسانية التي شملت إنجلترا كما شملت غيرها من الدول ، لخدمة مصالحها الخاصة في مصر ، ليث العراقيل أمام المشروع الفرنسي ، فاستمرت الصحافة والرأى العام الإنجليزي في مهاجمة الفرنسيين «لاسترقاق الشركة للفلاحين المصريين» ، كما قالت، ورأت الحكومة الإنجليزية في هذه الحركة وسيلة قوية لحرمان الشركة من الأيدى العاملة التي تعتمد عليها ، وأجاب فردنند دى لسبس على ذلك بأن المسألة كلها مفتعلة وليس فيها إخلاص ، فلقد نسيت إنجلترا أن السخرة قد استخدمت قبل ذلك في إنشاء الخط الحديدي من الإسكندرية إلى القاهرة . فعلى أى أساس تحتاج الحكومة الإنجليزية الآن ولقد تابعت الحكومة الإنجليزية السير في خطتها . فزار السفير الإنجليزي في استامبول سير هنرى بولور مصر في أواخر عهد سعيد باشا ليطلع بنفسه على أمور الحفر في القناة ، وقبل كل شيء ، ليرى ما إذا كانت الشركة الفرنسية تقيم تحصينات في منطقة القناة ، وليعرف إلى أى حد يسخر الفلاحون المصريون في شق القناة . وربما بالغ سير هنرى بولور في وصفه لبعض الأمور في منطقة القناة . وأبدى خشيته من أن تتحول المدن التي تنشأ في منطقة القناة إلى مدن ومستعمرات

نسبة . كما كشف عن تخوفه من إشراف الفرنسيين على هذه المنطقة .

وأشار في غير مبالغة إلى كثرة عدد الفلاحين الذين ينزعون من قوتهم قسراً ، وينقلون في بعض الأحيان ، وهم عشرات الألوف إلى بيث يسخرون . ووصف سير هنرى بولور قلة أجورهم ، وسوء حالهم لبؤس الذى يعانون ، والآلام التى يقاسونها . وكانت لآراء سير رى بولور تأثير كبير على حكومة الباب العالى التى أمرت من جانبها ، مطالبة الحكومة المصرية بإلغاء السخرة .

وكذلك اتصلت الحكومة الإنجليزية بإسماعيل باشا نفسه ، بنت له الأضرار البليغة الناشئة عن تسخير الفلاحين ، وأثر ذلك فى راحة المصرية التى حرمت من جانب كبير من الأيدى العاملة التى نغل فيها . ولذا فإسماعيل باشا ، وإن كان مؤيداً لإنجاز المشروع ، أنه كان يرمى إلى إلغاء السخرة فى حفر القناة تؤيده انجلترا فى ، وثانياً هو يرى إلغاء امتلاك الشركة للأراضى الكبيرة التى أخذتها منطقة القناة ، فامتياز الأراضى يخول الشركة وضع جاليات أجنبية لاستغلالها ، وهذه الجاليات لها أن تتمتع بنفس الامتيازات التى مع بها الأجانب فى مصر . وكانت انجلترا تؤيده فى هذه الناحية لأنها أن تغدو هذه الأراضى مستعمرات فرنسية فى منطقة القناة .

ولذا كان إسماعيل باشا يرمى من وراء إلغاء هذين الشرطين فى

الامتياز معالجة نقص الأيدي العاملة في الزراعة ، في فرصة لا بد من انتهازها ، ولا سيما بعد قيام الحرب الأهلية الأمريكية ، وزيادة الحاجة إلى القطن المصري الذي ارتفعت أسعاره في الأسواق ارتفاعاً كبيراً ، ثم إن إسماعيل باشا يطمح كذلك إلى إنشاء امبراطورية كإمبراطورية جده محمد علي والجيش الذي يعتمد على الفلاحين هو أدواتها الأولى . وإسماعيل باشا بعد ذلك قد أعلن صوته إلى جانب الحركة الإنسانية التي ترمي إلى إلغاء الرقيق ، فكان عليه إذن أن يقوم بمحاولة حاسمة لإلغاء تسخير الفلاحين في حفر القناة .

وأما إنجلترا فهي تهدف إلى منع الفرنسيين من إنشاء مستعمرات فرنسية لهم في مصر ، وهي تريد في نفس الوقت توفير العدد اللازم من الفلاحين للاهتمام بزراعة القطن التي كانت مصانع إنجلترا في أشد الحاجة إليه نظراً لقيام الحرب الأهلية الأمريكية . لقد ربط الانجليز بين مشروع القناة والرق . وحاولوا الخفض من شأن مشروع القناة لانصاله بمسألة تسخير الفلاحين ، وأفلحوا في إحداث كثير من القلق والاضطراب في دوائر شركة القناة .

وسرت إنجلترا للجفاء الذي ساء علاقة إسماعيل باشا بالقنصل الفرنسي العام دي بوفال ، فذلك القنصل قد بذل كل جهد مستطاع في تأييد دي لسبس في كل ما قام به ، وفي كل مطالبه من الحكومة المصرية بشأن القناة . ولم تحزن الحكومة البريطانية كثيراً لسحب

الحكومة الفرنسية له من مصر . وكانت انجلترا تبني كثيراً من
الآمال على موقف اسماعيل بإزاء امتياز القناة ، وترى في مطالب
اسماعيل باشا بإلغاء السخرة وإرجاع ملكية الأراضي لمصر مسألة قد
تؤدي إلى فشل المشروع الفرنسي وعدم إنجازه .

ولقد اعتقدت شركة القناة في وقت ما أن تفكير اسماعيل باشا
الجدى في إلغاء السخرة وتأييد انجلترا له ضربة قد تذهب بالمشروع كله
واضطربت لذلك دواثرها ، وأخذت تفكر في تعديل سياستها إزاء
العمال المصريين . ولقد وجدت الصحافة الانجليزية في موقف
اسماعيل باشا تأييداً لتشديد مهاجمتها لمشروع القناة ، وفعلاً انخفضت
أثمان أسهم القناة ، وساد الذعر بين المساهمين .

على أن دى لسبس لم يفقد الأمل في نجاح مشروعه ، فهو يلتجئ
إلى نابليون الثالث لحماية المشروع الفرنسي .

واضطر اسماعيل باشا إلى أن يلتجئ إلى الباب العالي يطلب
تأييده أمام فرنسا ، فهو يخشى بطبيعة الحال غضب الحكومة
الفرنسية ، والتجأ الباب العالي من جانبه إلى انجلترا ، فأبدى سفير
انجلترا في استامبول رأيه في أن الامتياز الممنوح لا قيمة له طالما لم
يوافق الباب العالي عليه . ولكن الحكومة العثمانية لم تكن تجرؤ
على اتخاذ مثل هذه الخطوة وتلغى الامتياز ، وخاصة بعد أن سار
المشروع الفرنسي في دور التنفيذ مدة أربع سنوات فالحكومة

الفرنسية لا بد وأن تحتضن المشروع حتى تحافظ على مصالح وأموال رعاياها .

وانتهز السفير البريطاني فرصة وجود إسماعيل باشا في العاصمة التركية (سنة ١٨٦٣) ليحضنه هو وحكومة الباب العالي على الصمود أمام مناورات فرنسا ، فانجلترا لن تقوم بتأييد الاثنين إلا إذا حافظا على مصالحهما واستقلالهما ، وبين للفريقين أنه لا مناص من وضع حد لتسخير الفلاحين المصريين ، ولا بد من أن تدفع الشركة أجوراً معقولة لهم . ونبه إلى أن عقد الامتياز لا يصبح ملزماً إلا إذا وافقت على كل شروطه الحكومة العثمانية ، فهي إذن تستطيع تعديل الشروط التي تراها منافية لمصلحتها ولمصلحة مصر . وليس للحكومة الفرنسية إذن حق الاحتجاج . وأن على الدولة العثمانية اتخاذ كل التدابير لحماية مصالحها لا تخشى في ذلك لومة لائم ، وأن تبلغ قراراتها للدول الكبرى . وقد ذكر السير هنري بلور الحكومة العثمانية أن الحكومة الانجليزية لن ترضيها أن ترى سيادة الباب العالي وحكومة الوالي في مصر ستاراً لنفوذ دولة أجنبية . وكان الهدف الحقيقي الذي ترنو إليه الحكومة الانجليزية من كل هذا هو أن توقع شركة القناة في أزمة مالية كبيرة وأن تقضى على الثقة فيها .

ولكن آمال انجلترا في القضاء على المشروع انهارت حين

علمت أن اسماعيل باشا حين رجع إلى مصر وصل إلى اتفاق مع شركة القناة . فهذا الاتفاق مع الشركة فيه اعتراف ضمني من ناحيته بمركزها وبقيمة المشروع . فلهذا أخذت الحكومة المصرية على عاتقها حفر الترعة العذبة من القاهرة إلى وادى الطميلات في مقابل تنازل الشركة عن حقوقها في الأراضي الواقعة على جانبي الترعة . واتفق إسماعيل باشا أيضاً مع الشركة على تقصير المدد التي تدفع فيها الحكومة المصرية الأقساط المستحقة من ثمن الأسهم .

ثارت نائرة إنجلترا لذلك التصرف من جانب إسماعيل ، ووبخت الحكومة البريطانية قنصلها العام في مصر وبذلت جهودها لإلغاء الاتفاقية ، وأرسلت إلى اسماعيل تنذره بأن دى لسبس لا ينبغي سوى أن ينتقص من سلطة الوالى ، وأن الخطر لا شك محقق بمركزه إذا استمر في هذه الخطوة واستمع للفرنسيين . ولكن اسماعيل باشا وجه لهذا الإنذار أذناً صماء ولم يغير سياسته .

وحين أراد السلطان عبد العزيز زيارة مصر ، عارضت إنجلترا في هذه الزيارة خوفاً من أن تحاول الشركة الاتصال به في مصر والتأثير عليه ، واهتمت إنجلترا بمراقبة المشرفين على أمور الشركة في مصر ، ومعرفة مدى اتصالهم بحاشية السلطان ، ولهذا الغرض أرسل السفير البريطاني في استامبول سكرتيره إلى مصر .

وكان المشرفون على الشركة في مصر من جانبهم يتوقعون لزيارة السلطان العثماني منطقة القناة ، فلقد كانت خطة الشركة في مثل هذه الظروف دعوة العظماء وأولى الأمر لرؤية المشروع وهو في دور التنفيذ وزيارة مناطق الحفر . وكانت ترى في ذلك دعابة لها وتقوية لمركزها في مصر والخارج .

ولقد حاول دى لسبس بطرقه الخاصة الاتصال فعلا بجاشية السلطان ولكن انجلترا ارتاحت تماماً لعدم زيارة السلطان مناطق الحفر . (وكانت قد طلبت منه بالفعل عدم زيارة هذه المناطق) . ولقد انقاد السلطان لمشورة انجلترا في هذا الأمر . ولم يكتف بذلك ، بل بحث بمذكرة سياسية إلى كل من الحكومتين الإنجليزية والفرنسية بين فيها وجهة نظره فيما يختص بضرورة تعديل شروط امتياز القناة فيما يتعلق بالسخرة واسترداد الأراضي حول القناة من الشركة . وكما كانت الحكومة الإنجليزية تراقب الحالة بدقة عن كسب ، كانت الحكومة الفرنسية من ناحيتها متنبهة للموقف ، فهي تحذر إسماعيل باشا عواقب القيام بعمل يمس مشروع القناة قبل أن يحيطها علماً بذلك ، وكان القنصل الفرنسي العام في مصر من ناحيته متيقظاً كل التيقظ بخابر حكومته في كل الأمور المتصلة بمشروع القناة ، وما تقوم به الحكومة المصرية أو قنصل انجلترا في مصر من خطوات قد تؤثر في مستقبل ذلك المشروع ومصيره .

ولقد استمر النزاع قائماً بين إسماعيل باشا وشركة قناة السويس إلى أن قبل إسماعيل باشا بتحكيم الإمبراطور نابليون الثالث ، ففض ذلك النزاع ، وذلك بأن أجيب والى مصر تعديل الشرطين الخاصين بتسخير الفلاحين المصريين وبامتلاك شركة القناة للأراضى سالفة الذكر ، نظير دفع إسماعيل باشا تعويضاً للشركة يبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات تدفع على خمسة عشر عاماً . وبذا رجع إلى حوزة مصر ١٨٠ ألف فدان وبقي للشركة ٣٠ ألفاً .

ولم تستطع الحكومة الانجليزية أن تعارض في تحكيم إمبراطور الفرنسيين ولا في الحكم الذى أصدره وإن جاء ذلك الحكم في غير صالح مصر ، وبذا زاد مركز شركة القناة قوة ، وزادت الثقة بها وتمكنت من أن تسير في تنفيذ مشروعها حتى استطاعت أخيراً إتمامه . وبعد أن تم الاتفاق بين إسماعيل باشا والشركة ، لم يجد الباب العالى ، وخاصة بعد أن أصلح إسماعيل باشا علاقته به ، بدا من الموافقة على الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس ، فأصبح مركزها بذلك قانونياً ، ولم تعد إنجلترا بمستطاعة مهاجمة المشروع من هذه الناحية وقوى مركز الشركة نتيجة لذلك ، ووضع حد نهائى لمحاولة إنجلترا عرقلة المشروع .

ولولا تأييد كل من فرنسا والنمسا للمشروع ، ولولا صبر فردنند دى لسبس ومثابرته ، ولولا عطف إسماعيل باشا على المشروع

لنجحت محاولات إنجلترا في القضاء نهائياً على المشروع .
وافتح القناة في سنة ١٨٦٩ . وهنا وزير الخارجية الإنجليزية
لورد كلارندن دى لسبس ، كما هنا الشعب الفرنسى والحكومة الفرنسية
ومنحت الحكومة الانجليزية دى لسبس النياشين ، واستقبل في لندن
استقبالا مشهوداً .



٣ - ديزريلي وقناة السويس

شراء إنجلترا لأسهم الخديو

(في القناة سنة ١٨٧٥)

ولما تم وصل البحرين الأبيض المتوسط والبحر الأحمر أصبحت قناة السويس التي توصل بينهما من أهم المجرى المائية البحرية في العالم . ولو أنها فصلت بين قارتين ، آسيا وإفريقية ، إلا أنها ربطت بين الشرق والغرب ، وأحكمت الصلة بينهما ، وأصبحت أقصر وأقرب طريق بين الدول الأوروبية الامبراطورية ومستعمراتها الشرقية .

وقد ردت إنجلترا منذ اللحظة الأولى حق القدر قيمة القناة بالنسبة لها ولامبراطوريتها وتجارها وحياتها كأكبر دولة بحرية استعمارية ظهرت في العالم ، فلقد قيض لها رجلا من أنبغ أبناء فرنسا المغامرين ، جاهد طوال حياته لينخدم بطريقة غير مباشرة مصالحها المادية والتجارية والإمبراطورية .

وتمتاز هذه الطريق الجديدة بأن بريطانيا تستطيع بحريتها المتفوقة حماية تجارتها وسفنها . ومن الوقت الذي افتتحت فيه هذه الطريق أصبحت إلى حد كبير تحت رحمة القوة البحرية المتفوقة ،

تحت رحمة قوة بريطانيا البحرية ، وخاصة بعد الكارثة السياسية والحربية الكبرى التي حلت بفرنسا كدولة حربية كبرى في الحرب الفرنسية الألمانية سنة ١٨٧٠ .

وستصبح انجلترا أولى الدول في المرور في القناة الجديدة ، ولم تعد أهمية القناة في نظرها قاصرة على وقت السلم ، بل كذلك في وقت الحرب ، إذ أصبحت القناة الطريق الرئيسية لمرور السفن والقوات والمعدات الحربية البريطانية إلى شرق أفريقيا والشرقين الأوسط والأقصى وأستراليا ونيوزيلانده . أصبحت القناة الطريق الرئيسية لمد نفوذ بريطانيا وسلطانها في شرق العالم وفي آسيا . وخاصة في وقت بدأ يطغى فيه الامبريالزم والاستعمار على عقول الناس في انجلترا وفي غرب أوروبا .

ولذا طوال بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ستهتم كل الحكومات البريطانية مهما تعددت ألوانها الحزبية أو اختلفت برامجها السياسية لاجياد القناة ، وإنما بحرية المرور فيها لكل السفن التجارية والحربية في وقت السلم والحرب .

وتبعاً لاهتمام انجلترا بحرية المرور في القناة وسلامة القناة في كل الأوقات ، ستزداد في نظرها أهمية مصر التي تخترق القناة أجزاءها الشرقية . لقد ربطت السياسة الإنجليزية

لمدة طويلة مصير مصر ومستقبلها بمصير القناة ، وأصبحت مشكلة القناة إلى حد كبير ووقت طويل مشكلة مصر .

ونشأت تبعاً لذلك الفكرة التي تقول إن من الواجب على الحكومة الإنجليزية بعد أن تبينت أهمية القناة الحيوية لها ، شراء الشركة جميع والإشراف إشرافاً تاماً على إدارة القناة ، وربما ظن بعض الناس أن الخديو إسماعيل كان يفضل في وقت ما أن تستولى شركة إنجليزية على إدارة القناة . ولقد ثارت فعلاً في (سنة ١٨٧٤) الاشاعة التي تقول إن الخديو والباب العالي كانا يفكران جدياً في بيع القناة لبريطانيا ، على أساس أن بريطانيا أكثر الدول اهتماماً بالقناة بعد فتحها ، ويقال إن هذا كان من رأى الجنرال ستانتون قنصل إنجلترا العام في مصر أيضاً ، فهو الذي خاطب حكومته في هذا الشأن ، وأيده بعض أعضاء وزارة الأحرار الإنجليزية ، ولكن جلاستون رئيس الوزارة ومعه لورد جرانفل وزير الخارجية وجها لهذه الفكرة أذناً صماء ، إذ رفضا أن تقوم إنجلترا بتعويض حملة أسهم القناة عما لحق بهم من خسارة مادية ، ويقال أيضاً إن فردنند دي لسبس ذهب إلى لندن لهذا الغرض ، ولكن وزير الخارجية جرانفل رفض المناقشة مع أي فرد أو هيئة في شروط بيع القناة . ولو تحققت هذه الفكرة لتناقضت مع المبدأ الأساسي الذي قامت عليه شركة قناة السويس ، فإن وضع

هذه القناة تحت إشراف دولة واحدة يتناقض تماماً مع فكرة العالمية التي قام عليها الامتياز الذي منح للشركة .

وربما كان فردنند دي لسبس نفسه يفكر ، أمام الصعوبات المادية والخسارة التي لاقتها شركة القناة في سنها الأولى ، في أن تباع الشركة للدول البحرية الأوروبية ، وذلك حتى يضمن تماماً عالميتها في نظره وحيادها . ولكن الحكومة البريطانية لم توافق على هذه الفكرة ، وكذلك الحكومة العثمانية ما كانت لتتصت أبداً لمثل هذه المشاريع التي تتعارض بطبيعة الحال مع حقوق سيادتها ، فشركة القناة شركة مصرية خاضعة للقوانين والتقاليد العثمانية .

وربما كانت انجلترا تظن في بعض الأوقات أن مصلحتها تقضى بأن تدير القناة شركة دولية لفرنسية الصبغة ، ولقد أعلن لورد داربي وزير الخارجية البريطانية في وزارة المحافظين في سنة ١٨٧٤ أنه لايمانع في ذلك ، وكرر هذا الرأي في سنة ١٨٧٥ ، على أساس أن وجود هذه الطريق المهمة من الناحية العالمية في يد شركة خاصة قد يثير كثيراً من الصعوبات والتعقيدات . ولكن مثل هذه الأفكار لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، وظلت شركة القناة كما هي .

وبينما كان ديزريلي زعيم المحافظين في انجلترا ، ورئيس

الحكومة الإنجليزية ، موجهاً نظره إلى تطور المسألة الشرقية في سنة ١٨٧٥ إذ وصل إلى علوه وجود مفاوضات في العاصمة الفرنسية بين الحكومة المصرية وشركة فرنسية لرهن أسهم الخديو اسماعيل في قناة السويس . ولقد انصل فردريك جرينوود أحد البارزين من رجال الصحافة الإنجليزية والمحرر في مجلة آل دال مال ، بلورد داربي وزير الخارجية البريطانية ، وأكد نبأ هذه المفاوضات ، وبين أن مصلحة إنجلترا تقتضى أن تسرع الحكومة البريطانية فتشترى هذه الأسهم . والسبب في تقديم الخديو اسماعيل هذه الأسهم للرهن أو البيع في باريس هو ما أصاب ميزانية مصر من عجز عن سداد أقساط الديون المتراكمة أو فوائدها الفادحة . وكان عليه أن يجد في شهر نوفمبر في خلال أسبوعين مبلغ أربعة ملايين من الجنيهات .

وكان أمام الخديو اسماعيل إما رهن هذه الأسهم أو تقديمها للبيع ، ووضعت الشركة الفرنسية التي كانت تجرى معها هذه المفاوضات شروطاً قاسية لإقراض الخديو المبلغ المطلوب جعلته يتردد كثيراً في التصديق النهائي على شروطها .

وحين عرضت الفكرة على الحكومة الإنجليزية لم يرحب بها داربي كثيراً ، ولم يكن ذلك عن قناعة أو تفكير صحيح

ولكن أفق خياله كان ضيقاً ، وتنقصه الجرأة في كثير من الأمور .

ولكن رئيس الوزارة بنجامن ديزريلي لحظ بسرعة أهمية الصفقة لانجلترا من الناحية السياسية والامبراطورية . وخاصة من الناحية السياسية . وكتب للملكة فكتوريا في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يقول :

«إن خديو مصر على وشك الإفلاس المالي ، وأنه يرغب في بيع أهمه في قناة السويس ، واتصل لذلك الغرض بالجنرال ستاتون . . . إنها مسألة ملايين ، أربعة على الأقل ، ولكنها تعطى لمالكها نفوداً عظيماً إن لم يكن متفوقاً في إدارة القناة ، وإنه حيوى لسلطة جلالتك ومركزك في هذا الوقت العصيب أن تصبح القناة ملكاً لانجلترا . . . ولقد حاولت أن أقنع داربي ، ونجحت في إقناعه بأهمية تحول مصالح الخديو إلينا .

ولقد حاول ديزريلي رئيس الوزارة الانجليزية بالفعل أن يقنع زملاءه في الوزارة بأهمية الصفقة لانجلترا ، ونال في آخر الأمر وبعد مشقة موافقتهم جميعاً على مبدأ شراء الحكومة الانجليزية لأسهم الخديو اسماعيل في قناة السويس ، بعد أن تمسك عدد منهم بمعارضة

الفكرة إلى آخر لحظة ، ولقد استصوبوا جميعاً في آخر الأمر رأى رئيسهم لأن الحوادث - كما اعترفوا هم بذلك - قد أيدت وجهته ، وأثبتت بعد نظره .

رأى ديزريلي أنه يجب على الحكومة الانجليزية ألا تتأخر في الشراء يوماً واحداً ، حيث أن حالة مصر المالية سائرة في طريق الانهيار السريع ، والخديو اسماعيل في أشد الحاجة إلى المال ، والمنافسون للحكومة الانجليزية متيقظون . ولقد ظل الخديو اسماعيل فترة كارهاً لأن يضع نفسه بين يدي الحكومة الانجليزية وتحت تصرفها ، إذ كان يفهم تماماً معنى شراء انجلترا لهذه الأسهم من الناحية السياسية . ولكن كان من الصعب إن لم يكن من المستحيل إيجاد المبلغ اللازم له في فرنسا أمام المعارضة الشديدة التي قامت بها الحكومة الانجليزية .

ولقد خشي الدوق ديكاز وزير الخارجية الفرنسية في ذلك الوقت ، وكان شديد الحرص على صداقة انجلترا ، فهي التي وقفت إلى جانب فرنسا في أزمة ربيع سنة ١٨٧٥ الشديدة ، وأنقذتها من أظفار ألمانيا ، خشي ديكاز أن يتدخل لتأييد الشركة الفرنسية إذ كان يعرف ما سيكون لذلك التدخل من أثر على موقف الحكومة الانجليزية بالنسبة لفرنسا . إذن لتزعزع

مركز فرنسا في أوروبا ، ولتخاذه قوتها وتضعفت أمام الخطر الألماني الذي كان يهدد دائماً حكومة المحافظين في فرنسا . ولذا فلا عجب إذا وجد ألا يقدم للشركة الفرنسية أية معونة ملحوظة ، وعلى ذلك انتهى الأمر بفشل مسألة الرهن ومعها مشروع الشركة الفرنسية .

كانت هذه الشركة قد طلبت في الواقع ربحاً فاحشاً على رأس المال ، ١٨ ٪ فائدة للبلغ الذي تقدمه للخديو اسماعيل ، فإذا عجز حاكم مصر عن أن يدفع لها ذلك المال في وقت معلوم يضيع حقه في ١٥ ٪ من الأرباح السنوية لشركة قناة السويس ، وتصبح الأسهم ملكاً للشركة ، واتفق بين الفريقين على جعل يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ الموعد النهائي للوافقة على هذه الشروط القاسية المهينة .

وكان فردنند دي لسبس مدير شركة قناة السويس بطبيعة الحال يؤيد هذه الشركة الفرنسية التي ستقرض الخديو اسماعيل ، وكان يحاول إقناع الرأسماليين الفرنسيين بجمع المال اللازم لها ، ولقد طلب بالفعل من الحكومة الفرنسية ، وكانت حكومة المحافظين ، التدخل لصالح الشركة وتأييدها سياسياً ، وإزالة العقبات المالية الموجودة أمامها .

ولكن الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت كانت ضعيفة مترددة تهم أولاً وقبل كل شيء ، بمرکزها في أوروبا ومراقبة الخطر الألماني وكسب الأصدقاء . هذا من الناحية الخارجية وأما من الناحية الداخلية ، فكان مركزها مزعجاً لانقسام الملكيين على أنفسهم ، يهددها الحزب الجمهوري باستمرار . ولذا كانت في حاجة شديدة إلى تأييد إنجلترا السياسي لها وإلى عدم إثارة مشاكل خارجية قد تؤدي بحكم المحافظين في فرنسا وبمركز فرنسا في أوروبا .

وكانت الحكومة الانجليزية قد بينت موقفها بالضبط في ذلك الموضوع ، فلقد أعلن داربي وزير الخارجية الانجليزية لجافارد ممثل فرنسا في لندن ، بأن الحكومة البريطانية كانت ترى في ملكية الحديد لجانب كبير من أسهم شركة قناة السويس وسيلة للاطمئنان بأن القناة ليست ملكاً للفرنسيين وحدهم ، ولذا فليس أمام إنجلترا إلا أن تعارض معارضة شديدة في وقوع هذه الأسهم في يد شركة فرنسية . (فالخديو إذا تم الرهن لن تسمح حالته المالية بسداد المبلغ ولا فوائده ، فسيتم الأمر إذن بوقوع هذه الأسهم في يد الشركة الفرنسية نهائياً) .

وإن إنجلترا ، كما أضاف داربي ، تعتبر موقفها هذا ضرورياً لتعليه

أبسط وسائل الدفاع عن مصالحها ، فقناة السويس — كما ترى وزارة الخارجية البريطانية في ذلك الوقت — هي سبيل المواصلات البريطانية إلى الهند ، ولبريطانيا أربعة أخماس التجارة التي تمر بها ، وأنه يرى لذلك أن مصلحة بريطانيا في حماية قناة السويس وإدارتها أكبر بكثير من مصلحة أية دولة أخرى .

وأرسلت حكومة لندن تعليمات بذلك إلى ستاتون معتمدها في مصر ، فبدت أن عليه أن يبين للخديو اسماعيل في جلاء وقوة بأن الحكومة البريطانية لن تسمح برهن هذه الأسهم لدى شركة فرنسية ، ولابد من وقف المفاوضات بين عامل مصر والشركة الفرنسية مدة ، حتى تعطى الحكومة البريطانية فرصة لإبداء رأيها في ذلك الموضوع الخطير .

وعرض ديزريلي لشراء نصيب الخديو في أسهم القناة أربعة ملايين من الجنيهات ، وقدم الأمر إلى مجلس الوزراء البريطانى الذى نظر فى الموضوع ، ووافق على الثمن فى ٢٤ نوفمبر ، وفى ٢٥ نوفمبر أمضى العقد فى القاهرة ، وأودعت الأسهم دار قنصلية بريطانيا ، لقد تم للانجليز الاستيلاء على أسهم الخديو اسماعيل فى خلال عشرة أيام .

ولما تمت موافقة الحكومة البريطانية على شراء الأسهم كان

لا بد من النظر بسرعة في كيفية تدبير المبلغ اللازم للشراء .
فالبرلمان الانجليزي لم يكن منعقداً ، ولا يمكن تدبير المبلغ
بغير موافقته ، ولا يمكن عقده بسرعة للنظر في هذه المسألة .
ولكن الموضوع لم يكن يقبل الانتظار ، وإلا ضاعت الصفقة
من يد انجلترا ، ولذا تحول ذهن ديزريلي إلى أصدقائه من آل
روثشيلد ، المالين المعروفين في انجلترا . وكان ديزريلي
متأكداً من تعاون هذا المصرف معه في سياسته المصرية .
ولكنه لم تكن هناك سابقة لمثل هذا العمل الخطير ، فاذا يحدث
لورفض البرلمان الانجليزي حين يجتمع اعتماد ذلك المبلغ ، ولكن
ديزريلي أخذ المسؤولية على نفسه ، ومن ناحية ثابتة كان ليت
روثشيلد ثقة لانتهى بديزريلي والحكومة البريطانية التي ضمنت هذا
القرض .

وافق إذن بيت روثشيلد على إقراض الحكومة الانجليزية مبلغ
أربعة ملايين من الجنيهات بفائدة مخفضة ، وتم لديزريلي نهائياً إجراء
صفقته ، وبذلك أصبحت الحكومة البريطانية تملك خمسي الأهم وأكبر
مساهم في قناة السويس .

ولقد أحس زعيم المحافظين بانجلترا بعظم الصفقة التي قام
بها ، فلقد كانت نجاحاً لانظير له ، وكتب في ٢٤ نوفمبر للملكة

فكتوريا يقول : « بأنها قد نالت الصفقة ، وأن الفرنسيين قد غلبوا على أمرهم بعد أن بذلوا جهودهم ولقد سلك بيت روثشيلد مسلكاً بديعاً ، فقدم المال اللازم بفائدة قليلة .. ولقد قدم دى لسبس في آخر لحظة عرضاً مغرياً للخديو ، ولو نجح لأصبحت القناة ملكاً لفرنسا ولأغلقتها أمام انجلترا ، ١ .

وفرحت الملكة فكتوريا فرحاً عظيماً بإنجاز هذا العمل ، وجاءتها التهاني من دول أوروبا باستثناء روسيا التي أرادت أن تجامل فرنسا ، واعتبر ليوبولد ملك البلجيك هذا العمل كأعظم حادث في السياسة الحديثة . ولقد قابل الرأي العام الانجليزي هذه الصفقة بحماس كبير ، وطرب المعارضون للحكومة من الأحرار لهذه الصفقة . إذ سرهم أن تنال بريطانيا هذا النصيب المهم من أسهم شركة قناة السويس . ولم يهتم الرأي العام البريطاني كثيراً بانتقاد جلاستون زعيم المعارضين للحكومة لهذه الصفقة ، فراه في هذه المسألة كان شخصياً لا يمثل حزب الأحرار ودافعه الأول كان الغيرة من ديزريلي والحسد له ، ولذا فانتقاده لم ينظر إليه .

لقد خطب نورثوكوت في البرلمان الانجليزي قائلاً :

(ما ملخصه) : « إن شراء هذه الأسهم كما نعتقد في مصلحة إنجلترا ومصلحة مصر ، ومصلحة الشركة التي أصبحنا شركاءها . وإنا لنشعر بالود نحو هذه الشركة العظيمة ونحو مؤسسها ومتبنيها ، ولدينا الرغبة في المساهمة في هذا المشروع الخطير ، وإنى أعتقد أن إنجلترا ارتكبت خطأ كبيراً في عدم الاعتقاد بقيمة المشروع في أول الأمر ، وأؤمل أننا لسنا متأخرين كثيراً في المساهمة في هذا المشروع الآن بعد أن فضج وأثر ... وسيقدر لهذا المشروع أن يكون ملك البشرية جميعاً على مدى الدهر ، وأنه من دواعي الاغتراب الكبير أن نرى أن إنجلترا قامت بمهمتها في تأمين مستقبل ذلك المشروع العظيم ، . وأبدى لورد هارتجنن وهو من زعماء الأحرار رأيه بأن على إنجلترا أن تغتبط اليوم إذ انتقلت إليها حقوق سيادة الحديد على القناة ، هكذا فهم بعض الساسة الانجليز صفقة شراء أسهم الحديد في القناة . وكان نتيجة لهذه الصفقة أن اضطرت شركة القناة إلى قبول ثلاثة أعضاء انجليز في مجلس إدارتها .

وكان لهذه الصفقة دوى كبير في كل أرجاء أوروبا ، وكانت دليلاً ساطعاً على أن إنجلترا غادرت نهائياً السياسة السلبية التي استنها مستر جلادستون في وزارته الأولى ، وأنها أصبحت

الآن « تتبع سياسة خارجية نشيطة ، وبدأ ديزريلي سياسة الامبريالزم (النسلط الاستعماري) التي ستبلغ أوجها في نهاية ذلك القرن (التاسع عشر) باحتلال مصر والتصميم على البقاء فيها وتقسيم إفريقيا والإشراف على مناطق كبيرة في آسيا .

وجدت الملكة فكتوريا في هذه الصفقة « ضربة موجبة ضد بسمرك » ، المستشار الألماني الذي سبق أن أعلن أن إنجلترا لم تعد قوة سياسية كبيرة يخشى خطرها . والواقع أن المستشار الألماني بسمرك سر كثيراً لهذه الصفقة ، ففيها من ناحية إذلال جديد لعدوته فرنسا ، وهزيمة لسياستها ، وفيها من ناحية ثانية تهديد لتدخل الإنجليز في مصر . ومن ذلك الحين أخذ ينصح الحكومة الانجليزية بضرورة أخذ مصر ، فهو يعتقد أنه إذا فعل الانجليز ذلك ، فلن يغفر لهم الفرنسيون أبداً .

ولقد نظرت الحكومة الفرنسية إلى هذه الحركة من جانب الحكومة الانجليزية كخطوة أولى تمهيدية لاحتلال الانجليز لمصر أو على الأقل للتدخل في أمورها المالية ، ورأت أن هذا العمل ليس إلا استغلالاً لسوء حالة مصر المالية ، فالمبلغ الذي دفعته إنجلترا كان أقل من ثمن السوق وليس فيه إنصاف لمصر .

قوت هذه الصفقة من مركز ديزريلي في الحكومة الانجليزية

ومن مركز المحافظين في إنجلترا ، ومن مركز إنجلترا في أوروبا والعالم . كما زادت من نفوذ إنجلترا في مصر وحرمت هذه الصفقة مصر من كل فائدة من قناة السويس . فأصبح المصريون يرون أن هذه القناة التي تسير في أرض مصر وقسمت بين أجزاء مصر وقامت على تسخير العمال والفلاحين المصريين وإمداد حقوقهم ودمائهم وحرمان الزراعة منهم مدة طويلة ، لم تكن مصر منها فائدة تذكر ، بل أصبحت كارثة على حياتها ومستقبلها طيلة خمسة وسبعين عاماً . لقد جعلت القناة لمصر مركزاً استراتيجياً خاصاً في الشرق الأدنى زاد اهتمام الأمم الإمبريالية الاستعمارية به مدة طويلة إلى حد أن ضحت هذه الدول بمصالح مصر ونموها واستقلالها ومستقبلها في سبيل الإشراف عليه والتحكم فيه .

على أنه يظهر أن ديزريلي لم يفهم تماماً (إلى سنة ١٨٨٠) عظم أهمية القناة في المواصلات الإمبراطورية إلى الشرق ، فكان يرى أن الأستانة هي التي تشرف على الطريق إلى الهند لا مصر ولا قناة السويس .

ولذا كان يفضل دائماً الاستيلاء على آسيا الصغرى ذاتها ، ويرى أن احتلال إنجلترا لمصر وقناة السويس في الوقت الحاضر لن يفيدھا كثيراً ، بل سيفسد إلى حد كبير علاقاتها مع فرنسا .

ولذا لم تعد الحكومة الإنجليزية في عهده توجه انتباهها كبيراً لعروض بسمرك. كان المستشار الألماني في ذلك الوقت يرى أن تستولى إنجلترا على مصر وتشرف على قناة السويس كنهيبها من ممتلكات الدولة العثمانية التي أخذت في الضعف والتدهور. ففي مصر والقناة، كما يرى، تعويض كبير لإنجلترا إذا سيطرت الدولة الروسية، وهي صديقتها الشرقية، على شرقي البلقان وعلى مداخل البحر الأسود. ولقد حرص بسمرك حرصاً شديداً على توجيه نظر الحكومة البريطانية لانتهاز فرصة المسألة الشرقية واقتناص مصر.

ففي مذكرات مطولة له بين «أنه إذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة إنجلترا الخارجية، فإنه يقترح أن تنتهج بريطانيا العظمى نفس السنن الذي تفتحه روسيا، فإذا كانت روسيا تريد أن تستحوذ على النقاط الاستراتيجية اللازمة لها بالسيطرة على المضائق: البوسفور والدردنيل، والإشراف على الآستانة، فعلى الحكومة الإنجليزية أن تقابل ذلك بالسيطرة على مصر وقناة السويس، وكما يقول «إنه من الخير لبريطانيا أن تأخذ قناة السويس والإسكندرية بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا وبذلك وحده تتوثق عرى السلم في أوروبا».

وهو يرى أنه إذا خشيت الحكومة البريطانية من اتباع مثل هذه السياسة عداء فرنسا ومناوأتها ، فاعليها إلا أن تبحث مع الفرنسيين أمر تقسيم الشرق الأدنى إلى مناطق نفوذ فتوافق فرنسا على تفوق النفوذ الإنجليزي في مصر وقناة السويس ، نظير موافقة الإنجليز على تفوق النفوذ الفرنسي في سوريا .

ولكن الحكومة الانجليزية ، حكومة المحافظين ، ما كانت تقبل بسهولة مثل هذه الاقتراحات ، فريثها ديزريلي (لورد بيكونزفيلد) بالرغم من أنه هو الذى عقد صفقة قناة السويس ، فاشترى أسهم الحديدو إسماعيل فيها ، وبالرغم من تعلقه الكبير بمصر وحضارتها وآثارها ، إلا أنه كان في ذلك الوقت لا يرى في احتلال الانجليز لمصر وسيلة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى ، « فالآستانة لا مصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق إلى الهند ، .

ولقد أبدى بيكونزفيلد عجبه والشك الذى خالج نفسه من كثرة عروض بسمرك ، فانجلترا كانت تظن أن غرضه هو الإضرار بالعلاقات الانجليزية الفرنسية الطيبة ، وضرب عصفورين بحجر واحد ، لإرضاء انجلترا وإذلال فرنسا ، وتعكير الجو بينهما نهائياً .

كذلك لم يصغ الوزراء الانجليز لسو بار باشا حين ذهب إلى

لندن في سنة ١٨٧٧ ليعرض عليهم قبول فكرة بسط الحماية البريطانية على مصر ، وأهملوه إهمالاً شديداً إلى حد أن نعى عليهم جهاهم بأمور السياسة ، وصرح لمنستر سفير ألمانيا في لندن كما تروى الوثائق الألمانية « بأن الأسد البريطاني مستغرق في نومه ، وأن أظفاره ستسرق منه دون أن يستيقظ » .

على أنه حين تعقدت المسألة الشرقية في سنة ١٨٧٧ ، وقامت الحرب بين روسيا وتركيا ، رأت الحكومة البريطانية أن توضح موقفها للدولة الروسية فيما يخص بمصر وقناة السويس . فهي لن تقبل أبداً امتداد الحرب إلى مصر والقناة ، وتعتبر الاعتداء عليها عملاً عدوانياً موجهاً إلى إنجلترا ذاتها . صرح بذلك وزير الخارجية الانجليزية للسفير الروسي في لندن .

لقد كانت إنجلترا تخشى أن تمتد أعمال الروس العسكرية إلى قناة السويس ومصر بصفتهما جزءاً من الدولة العثمانية التي أصبحت في حالة حرب مع رومانيا ، ولكن رد روسيا جاء مطمئناً للحكومة البريطانية : — « بالنسبة لقناة السويس ومصر ، فنحن لن نمسها ، فليست لدينا المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل ذلك العمل ... ونحن على استعداد للاتفاق مع حكومة لندن على كل المسائل وليست لنا مصلحة في معاكسة

انجلترا فى ممتلكاتها فى الهند أو فى مواصلاتها ، فالجرب الحالية لا تتطلب ذلك ، . لم تكن روسيا تريد إفساد علاقاتها مع انجلترا فى الوقت الذى تصطلى فيه الجيوش الروسية بنار الحرب مع تركيا .

ولم تكن سياسة لورد سولسبرى وزير الأمور الهندية الذى خلف داربى فى وزارة الخارجية البريطانية ، حين زاد تعقد المسألة الشرقية ، التمسك بأهداف السياسة البريطانية القديمة ، وهى تأييد الدولة العثمانية والمحافظة عليها ، وإنما كما يقول « إن سياستنا الخارجية تنقصها الحطة الموضوعية ، ولذا فالسياسة العملية فى نظره هى الإشراف الفعلى على طرق المواصلات المائية إلى الهند ، باحتلال مصر وقناة السويس وكريت والعمل على القضاء على الدولة العثمانية .

ولذا فى خلال هذه السنة (١٨٧٧) نشطت فى انجلترا الفكرة التى تقول بضرورة احتلال انجلترا لمصر والقناة . فى ١١ يوليو من هذه السنة تكتب إحدى بنات ملكة انجلترا لأمها « بأن كل من يجب انجلترا يتوق إلى هذه الفرصة التى تسمح بوضع الانجليز لأقدامهم فى مصر ، ... وفى نفس الوقت يكتب رئيس الحكومة ديزرلى إلى الملكة فكثوريا يقول بأن الباب العالى مبال لبيع سيادته على مصر . ولكن

ديزيريل ظل متمسكا بفكرته القديمة بأنه يفضل الاستيلاء على آسيا الصغرى لا مصر .

على أن ذلك لم يمنع ديزيريل من الاعتقاد بأنه سيأتي اليوم الذي تحتل فيه إنجلترا مصر وقناة السويس . وأن ذلك حتم مقضى على إنجلترا .

فكان إذن الاتجاه في إنجلترا بعد مجيء سولسبرى إلى وزارة الخارجية هو السير في الطريق التي رسمها بسمرك . ولقد وجد بسمرك من رجال الساسة الانجليز من يؤيد وجهة نظره مثل السفير الانجليزى في برلين لورد أودو رسل . ولكن أعضاء الوزارة الانجليزية جميعهم لم يكونوا يرون أن الوقت مناسب لذلك ، وذلك خشية عداوة فرنسا . فلقد كان الركن الأول في سياسة فرنسا الخارجية في سنة ١٨٧٧ هو منع إنجلترا من الاستئثار بنفوذ متفوق في وادى النيل أو القناة . ولقد وافقت إنجلترا على اقتراح فرنسا ألا تدخل مسألة مصر في مناقشات مؤتمر براين (١٨٧٨) ، ورأت استبقاء لصداقة فرنسا عدم احتلال مصر ، واستعاض سولسبرى عن ذلك (أى عن احتلال مصر وقناة السويس) باحتلال جزيرة قبرص التي تشرف على آسيا الصغرى ومدخل القناة معاً .

ثم ازداد تعقد المسألة المصرية في أواخر عهد الخديو اسماعيل لتخرج المسألة المالية من ناحية ، ومحاولة الدول الأوروبية الكبرى

التدخل في أمور مصر من ناحية أخرى ، ثم لنمو الشعور القومي المصري إلى حد أثار مخاوف إنجلترا وفرنسا ، فطلبنا من الباب العالي عزل الخديو إسماعيل ، وتم لهما ما أرادتا في سنة ١٨٧٩ ، وجاء الخديو توفيق إلى ولاية مصر .

ولم تكن مهمة الخديو الجديد بالهينة أمام سيطرة الدولتين الأوروبيةتين ، ولا أمام الرأي العام المصري الذي ساءه تدخل الأجانب في كل مرافق الحياة المصرية ، بما هدد مستقبل البلاد ونموها ، ثم جاءت الثورة العرابية ، فزادت الأمور تعقيداً على تعقيد ، وخشيت الدولتان الانجليزية والفرنسية على مصالحهما في مصر ، وأرسلت سفنهما الحربية إلى مياه الاسكندرية واقترحت فرنسا عقد مؤتمر من الدول الكبرى في الآستانة (سنة ١٨٨٢) لإيجاد حل حاسم للمسألة المصرية والقضاء على الثورة العرابية .

٤ — احتلال الانجليز لقناة السويس

في سنة ١٨٨٢

في أول الأسبوع الأخير من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ . اجتمع مؤتمر الدول الكبرى في مدينة الآستانة للنظر في المسألة المصرية التي تفاقمت في نظرم بسيطرة عرابي باشا التامة على الجيش وعلى الحكومة المصرية .

وبدأ أعضاء المؤتمر أعمالهم باعلان سخطهم واستيائهم من التطور الذي أخذته الأمور في مصر وأخذ الثورة ومن أيقظها بالشدّة . وانتقلوا بعد ذلك إلى إعلان أنه لا يجوز لأية دولة اشتركت في المؤتمر أن تستأثر لنفسها بحقوق في وادي النيل لا تكون للدول الأخرى . وسجل أعضاء المؤتمر في نفس الوقت أن مسألة مصر مسألة دولية عالمية ، وأنه غير خليق بأية دولة واحدة أن تنفرد بتقرير مصير هذه البلاد دون سواها من الدول الكبرى .

اشتركت انجلترا في ذلك المؤتمر ، كما اشتركت فيه فرنسا وألمانيا وروسيا والنمسا والمجر وإيطاليا ، وكانت الدولتان

الثان تهمان حقيقة بالمسألة المصرية هما إنجلترا وفرنسا . وأما مندوبو الدول الأخرى فلم يكونوا على علم كبير بتطور الحوادث في مصر . على أن إنجلترا كانت الدولة الوحيدة التي قررت ألا تنقيد بمناقشات المؤتمر ، أو بمايسفر عنه جدله النظرى ، أو تفكيره السطحي في نظرها ، أو بما ينفذ عنه من قرارات قد تختلف مع المصالح الانجليزية ، وأن تعمل بنشاط وهدوء على تنفيذ خطتها ورعاية مصالحها في الوقت المناسب إذا ما واثت الفرصة .

كان على رأس الحكومة الانجليزية ، وهى حكومة الأحرار جلادستون الذى سبق أن أعلن نفسه مرارا وتكرارا أعدوا الامبريالزم والاستعمار ومن دعاة إنجلترا الصغيرة ، ونصير الشعوب المغلوبة على أمرها . أعلن جلادستون هذه الآراء وهو خارج الحكم . ولكنه لما تولى الحكم آمن بما يدعيه رجال الامبراطورية ، بمهمة إنجلترا الحضارية ورسالتها الثقافية . آمن جلادستون بكل ما يؤمن به رجال الاستعمار ، ونفذ السياسة الخارجية الانجليزية بحذافيرها .

ولذا فبالرغم من انتقاده لسياسة ديزريلي التوسعية الامبراطورية ، فوزارته كانت جادة فى استعداداتها الحربية ، سائرة فى تقوية أسطولها فى البحر الأبيض المتوسط . هذا فى

الوقت الذى انهمك فيه أعضاء المؤتمر فى مناقشتهم النظرية واجتماعاتهم الشكلىة واستفساراتهم العقيمة ، فضلاً عما كان المؤتمر يعانيه من عثرات فى طريقه بعد أن رفضت الدولة صاحبة السيادة على مصر الاشتراك فيه أو التعاون معه .

كانت انجلترا تراقب تطور الأمور فى مصر بكل عناية واهتمام . وأرسلت إلى قائدها البحرى الذى كان يرباط بقطع من الأسطول فى مياه الاسكندرية ، وهو بوشومب سيمور بالأبدع فرصة تفلت من يديه ، وأن يراقب ما تقوم به السلطات الحربية المصرية فى هذه المدينة ، فإذا لاحظ أن هناك تحصينات تقام أو محاولات تبذل لسد مدخل الميناء أو حركات عسكرية خطيرة ، فعليه أن ينذر هذه السلطات ويطلب منها تسليم قلاع المدينة فى مدى أربعة وعشرين ساعة ، بعد انقضائها لا يتردد فى ضرب الاسكندرية وهدم حصونها وإسكات دفاعها واحتلالها .

اعتبرت انجلترا عمل المصريين لتحسين بلادهم عملاً عدائياً موجهاً ضدها ١١١١ ولم تكن الحكومة الانجليزية لتتخذ هذه الخطوة فى الخفاء ، بل صارحت بها الدول ، وأرسلت بمقررته إلى مندوبى الدول المجتمعين فى الآستانة .

لقد كانت الحكومة البريطانية ترى ضرورة القضاء على

ما اعتبرته سيطرة الجيش في مصر قبل شهر أغسطس سنة ١٨٨٢ ،
ونفذت خططها بالفعل ، وضربت مدينة الإسكندرية واحتلتها
بعد أن دافع أهلها دفاعاً مشهوداً ، واضطر العراييون إلى
اتخاذ قاعدة جديدة في كفر الدوار والدفاع عن البلاد إلى
النهاية .

على أن احتلال الانجليز لمدينة الاسكندرية لم يكن معناه احتلال
مصر جميعها أو حل المسألة المصرية بأكملها ، وإن كان سفير إنجلترا
في رومه قد أعلن ، حين وجد شيئاً من الضيق والقلق يسود إيطاليا ،
« بأنه يجب على دول أوربا أن تشكر هذه الظروف ، وأن تحمد
الحكومة الانجليزية على اتخاذ خطوات من شأنها رفعه مركز أوربا
في الشرق الأدنى » ،

وجدت إنجلترا أن حل مسألة مصر هو في قناة السويس فهي النقطة
الضعيفة التي تستطيع أن تنفذ منها إلى مصر مباشرة ، حقيقة لقد
عارضت إنجلترا ، كما رأينا ، في حفر هذه القناة وعرقلت محاولة
تنفيذ مشروعها ، ولكنها الآن أصبحت أكثر الدول استفادة
من فتحها ، لتجارها ولمرور أساطيلها الحربية . وأصبحت القناة —
كما ادعت إنجلترا — مصلحة حيوية مهمة من مصالح إنجلترا . ولذا
شغلت مسألة حماية القناة أذهان الساسة الانجليز بعد ضرب

الاسكندرية ، فبعثت حكومة لندن إلى الدول الكبرى تبدي قلقها على مصير القناة .

ومنذ الوقت الذي استفحلت فيه الحركة العرابية ، تساءلت إدارة شركة قناة السويس في شيء من الخوف عن الموقف الذي ستخذه إنجلترا إزاء القناة ، وهل تنوى احتلالها ؟ ولقد بين مدير الشركة أنه لا يمكن لأية دولة احتلال القناة أو جزء من القناة ، أو إنزال جنود على سواحلها .

ولتفادي الأخطار التي قد تلحق بقناة السويس أرسل فردنند دي لسبس برقية إلى ممثلي الدول الكبرى في باريس ينصح فيها كل دولة تتم بحرية المرور في القناة أن ترسل سفينة حربية للمراقبة عند بورسعيد . وبين أنه محرم القيام بأى عمل حربي أو بأية مظاهرة حربية عند مدخل القناة أو على شواطئها ، وأن حميدة هذه القناة قررت في الامتياز الممنوح للشركة وأن هذه الحميدة قد لوحظت من الناحية العملية في الحرب الفرنسية الألمانية سنة ١٨٧٠ والحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ .

اتخذ فردنند دي لسبس هذا الموقف حين طلب القائد البحري الإنجليزي الم رابط في مياه بورسعيد إرسال سفينة حربية للمراقبة في قناة السويس ، ولم يجد مدير الشركة أن يجيب ذلك الطلب خوفاً

من العواقب التي قد تترتب عليه من انفراد انجلترا بحقوق في القناة لانكون للدول الأخرى . ولقد وافق مجلس إدارة الشركة على ما قام به مديرها على أساس أن الشركة مشروع مصري تجارى قبل كل شيء ، ولذا لا يجب أن تربك نفسها في عمليات سياسية أو حرية .

ولقد استشار الأعضاء الانجليز في مجلس إدارة الشركة حكومتهم في لندن فيما يجب أن يكون عليه موقفهم ، ويظهر أنهم كانوا يفهمون أو يريدون استغلال شركة القناة لخدمة مصالح انجلترا السياسية ، ولذا فهم خلال هذه الأزمة لا يهتمون بمصلحة القناة بقدر ما يستلمون مصالح انجلترا السياسية والحرية التي وضعوها فوق كل اعتبار . والواقع أنهم كانوا أكثر حماسة لاحتلال انجلترا للقناة من رجال البحرية ورجال الحرب الانجليز ، ويرون في ذلك خير وسيلة لتفوق نفوذ الأعضاء الانجليز في مجلس إدارة الشركة . ولذا فهم في هذه الأزمة قد أخذوا على عاتقهم محاربة كل اقتراح أو مشروع أو احتجاج مهما كان قانوناً أو مشروعاً من شأنه عرقلة سياسة انجلترا أو وضع العقبات أمام حركات جنودها أو سفنها في القناة . وفسروا الامتياز الممنوح لشركة القناة وكل السوابق

العملية التي مرت بتاريخ القناة في الظروف الحربية المختلفة تفسيراً يتلأم ومصالح إنجلترا ، كما اهتموا بتنفيذ التعليمات التي ترد إليهم من حكومتهم بشأن القناة خلال هذه الأزمة التي انتهت باحتلال الانجليز للقناة ولمصر .

وكانت الحكومة الانجليزية تنحس من جانبها ، كما تدعى ، أن يقوم العرابيون بردم القناة أو احتلالها أو انلافها . وكانت تقارير ممثلي إنجلترا ممتلئة بالنشائم ، وتندر كما يقول الانجليز بالخطر الشديد على هذه الطريق البحرية المهمة . وتواترت الاشاعات التي تقول بأن البدو المجاورين للقناة يعملون على مهاجمة السفن المارة بالقناة ، أى أن سلامة المرور في القناة لم تعد مكفولة ولا مضمونة .

وفي ١٦ يوليو سنة ١٨٨٢ أرسلت الحكومة الانجليزية تعليمات لقائدها البحرى في بور سعيد الزير أدميرال هوسكنز بأن يتعاون مع قائد الأسطول الفرنسى في أمر حماية القناة ، وأن يعمل بغير تردد في حالة حدوث خطر مباغت .

ولما عين عرابى باشا ، على باشا فهمى على منطقة القناة ، أعلن الانجليز أن الدولة البريطانية في حالة حرب مع عرابى باشا وأتباعه وأنها لا تحترم في مصر غير حقوق الخديو .

لقد كانت الحكومة الانجليزية ، حكومة جلادستون ، مستعدة من الوجهة الفنية لتقبل كل التقارير الممتلئة بالنشأوم وتصديق الشائعات التي تبالغ في وصف الخطر المحدق بالقناة ، والعمل على مقتضاها . وخاصة وأن العراقيين لم يهتزوا كثيراً لفقدان الاسكندرية ، ولم يرجعوا عن عزمهم في الدفاع عن البلاد مهما كلفهم الأمر ، وأخذوا بالفعل في تحصين مصر وإعداد وسائل الدفاع والحرب .

وأخذت الحكومة الانجليزية إذن في الاتصال بالدول الكبرى التي يهمها أمر القناة ، تشير إلى الخطر الذي يهدد القناة ، وضرورة حمايتها ، اتصلت الحكومة الانجليزية بحكومة رومة ، ولكن حكومة رومة لم تعط الانجليز ما كانوا يبتغون ، إذ أجاب وزير الخارجية الايطالية مانشيني بأن مصير القناة وحرية الملاحة فيها وفتحها في كل وقت للمرور أمر يهم الايطاليين جميعاً ، لا ريب في ذلك ، ولكن إيطاليا تريد أن تتبين أولاً وبالتفصيل نوع الإجراءات التي تريد انجلترا اتخاذها في هذه المسألة بالذات .

وأما الحكومة الفرنسية ، فلقد كانت دائماً في خشية من البرلمان ، تلاحقها الأزمات الوزارية والسياسية لكثير المسائل

وصغيرها ، ولذا اقترحت الحكومة الإنجليزية أن تسمى الدولتان الكبيرتان لدى المؤتمر الذى ما زال منعقداً فى الآستانة لإقناعه بأمر انتدابهما لحماية قناة السويس من الأخطار التى تهددها (فى نظر الانجليز) والمحافظة عليها ، فالدولتان كما كانتا تعتقدان هما وحدهما صاحبتا المصالح الكبرى فى مصر وفى القناة ، وكانت الحكومة الفرنسية ، حكومة دى فريسييه ، تعتقد أنه إذا وافق المؤتمر على انتدابها هى وانجلترا لحماية القناة ، والمحافظة على حرية المرور فيها ، فإنها تستطيع أن تبرر عملها أمام البرلمان الفرنسى ، وتستطيع أن تحصل على موافقته وبغير ذلك لانجرؤ على التدخل مع انجلترا .

فالحكومة الفرنسية لإذن لم تكن تقبل رغبة عن حكومة جلادستون فى التدخل لما تدعيه من حماية القناة . وكان دى فريسييه نفسه يود لو استطاع التدخل والتعاون مع الانجليز ، وخاصة بعد ضرب الانجليز لمدينة الاسكندرية واحتلالهم لها ، وكان جبتازعيم الجمهوريين فى فرنسا نفسه ينادى دائماً بضرورة التعاون مع انجلترا ، فى كل مسائل البحر الأبيض المتوسط . ففى البرلمان الفرنسى فى جلسة ١٩ يوليو سنة ١٨٨٢ حاول رئيس الحكومة أن يقنع البرلمان بضرورة التعاون مع انجلترا للمحافظة على مصالح فرنسا ، ولكن أعضاء البرلمان الفرنسى ما كانوا يوافقون أبداً على أى تدخل حربى فرنسى فى وادى النيل ، ولقد شكر كلينصو ، أحد الأعضاء البارزين فى مجلس النواب

الفرنسي ، الحكومة الفرنسية في نفس هذه الجلسة على عدم الاشتراك مع الانجليز في ضرب مدينة الاسكندرية ، وعلى الامتناع عن كل المغامرات الحربية ، وندد بسياسة السير في أذيال انجلترا أو التوسع الخارجي .

وحاول جرانفل وزير الخارجية البريطانية أن يتعرف على رأى الدولة الألمانية ، في ذلك الموضوع ، موضوع حماية قناة السويس ، فبين المستشار الألماني بسمرك أنه لا زال يعتقد أن السلطان العثماني هو صاحب الحق الأول في حماية القناة والإشراف عليها ، إذ هي جزء من ممتلكاته ، فإذا لم يكن السلطان راغباً في القيام بهذه المهمة ، كان على الدول الأخرى أن تعمل ، فإذا قامت هذه الدول بحماية مصالحها ، فإن الدولة الألمانية لن تتحمل أية مسئولية عن هذا العمل أو عن الاجراءات التي قد تتخذ . كذلك لن توافق ألمانيا على تعديل المعاهدات الموجودة . ولن توافق أبداً على فكرة انتداب دولة أو دولتين للقيام بحماية قناة السويس ، فالمستشار الألماني يرى أن تشترك في ذلك الدول جميعاً ، على أن تكون حقوقهم جميعاً متساوية في اتخاذ تدابير بوليسية بحرية إذا استلزم الأمر ذلك . وقال بسمرك إن هذا هو اتجاه الرأى العام الألماني ، ووافقته على هذه الخطة روسيا والنمسا والمجر وإيطاليا .

ولقد حاول وزير الخارجية البريطانية جرانفل إقناع ممثلي الماء :

بأن الموقف في القناة غريب ، فالحكومة الشرعية ، وهي حكومة الحديبو ليست في مركز تستطيع معه حماية قناة السويس أو الدفاع عنها . والحكومة الفعلية التي تمتع بالسلطة هي القائمة بالثورة ، وهي التي يخشى خطرهما على كيان القناة وسلامتها . والسلطان العثماني صاحب حقوق السيادة في مصر لم يتخذ إلى الآن أية إجراءات تكفل سلامة القناة ، وضرب مثلاً لذلك بأنه إذا اشتعلت النيران في منزل ، فيجب ألا يتردد سكان ذلك المنزل في العمل على إخماد النيران انتظاراً لمجيء صاحب المنزل والحصول على إذن منه . فهذا ، كما يرى جرانفل ، هو موقف إنجلترا بالنسبة لقناة السويس . وأضافت الحكومة الانجليزية إلى ذلك بأن الحماية البحرية للقناة بغير إزال جنود على ضفتيها لا تغني كثيراً .

لم يقتنع المستشار الألماني بسمرك برأي الحكومة الانجليزية ولم يتحول عن رأيه . ولكن الحكومة الانجليزية لم تقف عند هذا الحد ، فهي قد وطنت العزم على حماية مصالحها ، ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة وتجاهل حقوق المصريين والأتراك على السواء . ولذا قررت أن ترسل للباب العالي إنذاراً بأنه إذا لم يجب دعوة الدول الكبرى في مدى أربعة وعشرين ساعة لوقف عرابي عند حده ، والقضاء على الثورة المصرية ، ستعتبر الحكومة البريطانية إجابته سلباً ، وتتخذ حينئذ ما تراه ضرورياً لحماية مصالحها في القناة ، واتصلت بالدول الكبرى تنبهم بعزمها على اتخاذ تدابير فعلية في حماية القناة . مما جعل الحكومة

الإيطالية تعتقد أن الحكومة البريطانية لا تبغى جادة تدخل الحكومة العثمانية ، لأن مثل هذا الإنذار إذا قدم للسلطان سيحدث بلاريب أثراً سيئاً ورد فعل شديد لديه ، إذ معناه أن السلطان أصبح في مركز ذليل يتلقى فيه الأوامر من إنجلترا في مسألة تختص بحقوق سيادته ، في أمر بلاد اعترفت كل الدول بأنها تابعة له . ولما وجدت الحكومة الإنجليزية أن الدول الأخرى لا تقر مثل هذه الخطوة العنيفة لم تبعث بذلك الإنذار .

ولكنها استمرت بنشاط في تجهزها للطوارئ ، وأرسلت بقوات جديدة إلى قبرص ومالطة لتكون على تمام الأهبة والاستعداد وأرسلت وزارة البحرية إلى قائد البحر بوشومب سيمور بأن يطلب من الحكومة المصرية في الاسكندرية تصريحاً مكتوباً لأمير البحر هوسكنز قائد القطع البحرية البريطانية في مياه بورسعيد ليعمل باسم حكومة الخديو في منطقة قناة السويس ، وأن يستولى على الاسماعيلية وأن يحرم عرابي باشا وأتباعه من استخدام السكة الحديدية بين الاسماعيلية والسويس .

ولقد احتج فردنند دى لسبس ، على انتهاك الحكومة الانجليزية لحياذ القناة بإزالة قوات عسكرية في الاسماعيلية ، وأعلن أن للسفن جميعا حرية وغير حرية المرور في القناة ، دون القيام بأعمال عدوانية في مياهها أو أراضيها . وكرر فكرته بأن هذا الحياذ قد احترم

بالفعل إبان الحرب الفرنسية الألمانية والحرب الروسية التركية ، فلم تعد روسيا على القناة ولو أنها جزء من ممتلكات الدولة التركية التي هي في حالة حرب معها . وذكر دى لسبس أن السفن المتعادية قد تقابلت في القناة دون أن تتبادل إطلاق النار .

فأعمال الانجليز الآن ، كما وضح ، تكون سابقة خطيرة للمستقبل قد تأسف لها بريطانيا نفسها ، إذ أنه في أية أزمة سياسية في المستقبل تستطيع أية دولة معادية لبريطانيا ، على أساس هذه السابقة ، احتلال إحدى ضفتي القناة وإطلاق النيران على السفن الانجليزية أثناء مرورها .

ولكن إذا احترمت حياد القناة الآن فلن يقوم مثل ذلك العمل . ولذا كرر ، دى لسبس ، أنه لا يجب استخدام قناة السويس كقاعدة للعمليات الحربية أو تحويلها إلى ميدان حرب ، وبين دى لسبس في احتجاجه هذا ، أن عرابي باشا نفسه (الذي أعلن عليه الإنجليز الحرب) قد احترمت بالفعل حياد القناة ، فلم يحشد قوات في منطقتها ، ولم يمس حرية المرور في القناة نفسها ، وأنه سائر في هذه الحطة طالما لم تستخدم القناة قوة معادية للقيام بأعمالها الحربية .

ولم يرق احتجاج دى لسبس هذا الأعضاء الإنجليز في مجلس إدارة الشركة ، فهؤلاء الأعضاء لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام حجج دى لسبس التي برر بها موقفه من ضرورة احترام انجلترا لحياد القناة . فأعلنوا أنهم لا يستطيعون الثقة في نيات عرابي باشا ، ولا في احترامه لحياد القناة

وأنه قد اتصل بهم أن عرابي باشا ينوى الاضرار بالتجارة الانجليزية بوقف حركة المرور في القناة ومهاجمة السفن البريطانية فيها . وكذلك لا يمكن الاعتماد على وعوده فيما يختص بالمستقبل .

وبينوا كذلك أن دخول قوات بريطانيا البحرية في القناة ليس إلا لدرء ذلك الخطر . وأن من الخير القيام بذلك الاجراء الآن ، لا الانتظار حتى يتفاقم الخطر وتعطل القناة ، وأضاف الأعضاء الانجليز إلى ذلك أن حكومتهم قد اضطرت اضطراراً للقيام بهذه التدابير ، وأنها قد قامت بها باسم الخديو وباسم حكومته الشرعية ضد الجيش الثائر ، وأن غرض انجلترا هو حماية الأمن والنظام في مصر وحماية السلطة الشرعية في البلاد وأن خطة الحكومة الانجليزية التي اتخذتها هي في صالح القناة لا اعتداء على حيادها .

ولكن مثل ذلك القول لم يقنع مدير شركة القناة ولا الأعضاء الآخرين ، وأشار دى لسبس بأن المحافظة في حياد القناة هو في صالح انجلترا أكثر من أية دولة غيرها .

ولقد عمل موقف دى لسبس وشركة القناة على أن ترسل الحكومة البريطانية إلى حكومة فرنسا تحذرها من كل عمل يقوم به دى لسبس ضد إنزال القوات الانجليزية ، وإلا اضطرت الحكومة الانجليزية إلى اتخاذ تدابير ضد شركة القناة نفسها .

وفي نفس الوقت كانت إدارة الشركة لاتزال تكافح في سبيل إقناع الإنجليز باحترام هذه القناة . وخاصة بعد أن احتلت قوات هيويت البحرية السويس ، فاجتمع مجلس إدارة الشركة ، وقرر بأغلبية الآراء القرار الآتي : — أنه باتفاق أصحاب مشروع القناة أعلن حياد القناة . وأن هذا الحياد أساس الامتياز الذي منح للشركة ، وهذا الامتياز نفسه يحرم القيام بأى عمل حربي في القناة . ولذا فالشركة في موقف لايسمح لها أبداً بالموافقة على أى اعتداء على حياد القناة ، الذى يتضمن ، بلاريب حرية المرور لكل الشعوب ، وعلى هذا لن تستطيع أية حكومة إقناع إدارة الشركة بقبول مسئولية الاعتداء على حقوق كل الشعوب التى تهتم بحرية الملاحة فى القناة . ولما كانت صبغة الشركة قبل كل شئ تجارية ، فليس لها أن تدخل فى اعتبارها المسائل السياسية .

ولكن هذا لم يؤثر فى موقف الحكومة الإنجليزية ولم يزعجها عن رأيها قيد أنملة .

وفي الوقت الذى كانت فيه حكومة لندن تأخذ أهبثها للطوارئ ، كانت حكومة إيطاليا تنصح بالتريث والصبر ، وحكومة فرنسا تزدداد كل يوم وهناً على وهن ، ولا تجد من نفسها القوة لتمشى مع رغباتها ورغبات الحكومة الإنجليزية . ولذا عادت تستفسر من الحكومة الإنجليزية : هل تفهم فرنسا من دعوة الإنجليز لها للاشتراك فى حماية قناة السويس الاقتصار على القيام

ببعض مناورات حرية بحرية واحتلال بعض النقط على ضفتي القناة ،
أو القيام بحملة عسكرية داخل البلاد ترمي إلى احتلال مصر جميعها
احتلالاً عسكرياً ؟

على أن هذا التردد من جانب الحكومة الفرنسية لم يمنع
وزير الخارجية الانجليزية جرانفل من مواصلة جهوده مع فرنسا بالرغم
من رفض المستشار الألماني لفكرة انتداب الحكومتين ؛ ولذا رأت
الحكومة الفرنسية أن تتحدد نوع تدخلها ، إذا حدث وتدخلت ،
فهي تفكر في التدخل فيما يختص بحماية قناة السويس والمحافظة على حرية
المرور فيها فقط — أما إذا أرادت الحكومة الانجليزية إرسال حملة
بعد ذلك للقضاء على الثورة العرابية واحتلال العاصمة المصرية ،
فالحكومة الفرنسية غير مستعدة للاشتراك فيها أو التعاون معها ،
ولكنها لن تقوم من جانبها بإثارة أى معارضة لانجلترا إذا حاولت
تنفيذ برنامجها .

ولهذا أراد وزير الخارجية البريطانية أن يوضح فكرته لفرنسا
فيما يختص بالتعاون بين الدولتين ، ووضع التفصيلات الخاصة بتوزيع
الإشراف على القناة بين الانجليز والفرنسيين ، فيشرف الفرنسيون على
الجزء الشمالى للقناة ، على المنطقة ما بين الاسماعيليه وبورسعيد ،
ويشرف الانجليز على بقية أجزاء القناة ويحتل الفرنسيون بورسعيد
والقنطرة ، ويحتل الانجليز الاسماعيليه والسويس . وهذا يرضى

الطرفان ويتعاونان ، ويطمشان تماماً فيما يخص سلامة القناة . وفي هذا الحل تناسى جرانفل تماماً حقوق المصريين ، أصحاب القناة الأصليين وحقوق السلطان صاحب السيادة ، ونصوص الامتياز الممنوح لشركة القناة ولم يبين جرانفل في برنامجه هذا هل هذا التعاون وذلك الاحتلال مؤقت أم نهائي .

وكانت حكومة فريسييه راغبة في التعاون مع الحكومة الانجليزية في حماية القناة ، ففريسييه لا يريد ترك إنجلترا تتدخل وحدها وتنفرد بالتفوذ في القناة ، ففي جلسة ٢٤ يوليو في البرلمان الفرنسي طلب رئيس الحكومة اعتماداً لحماية القناة وعلى الأكثر لاحتلال الزقازيق لضمان المياه العذبة . وناقش مجلس النواب الفرنسي ذلك الطلب في جلسة ٢٩ يوليو ، فبين فريسييه للمجلس أن ليس لفرنسا نية في التدخل الفعلي ، وإنما غايةا حماية القناة ؛ وأن لا تدخل للسياسة في ذلك ، فكل الدول لها نفس المصالح في حماية القناة ، ووضح أن حماية القناة لا تؤدي إلى التدخل الحربي. وأن غاية فرنسا من ذلك هو مشاركة إنجلترا وعدم ظهور فرنسا بمظهر الضعف أمام الشعوب الإسلامية . وأجاب كلينصو على ذلك بأنه لا يمكن فصل مسألة مصر عن مسألة القناة ، وأن حماية القناة لا تكون باحتلال القناة ، وإنما باحتلال القاهرة ، وهذا هو سر تدخل إنجلترا ، ولا يمكن لفرنسا أن تتعقب آثار إنجلترا ، وليس من داع لأن

تقوم فرنسا بحماية القناة لتحمي ظهر الإنجليز .

ورفض البرلمان الفرنسي طلب الحكومة الفرنسية بأغلبية واضحة ، بعد أن ندد المعارضون برأى الحكومة ، ورفضوا الموافقة على القيام بأى عمل حربي أو مغامرة خارجية ، وانتصرت الفكرة التى تقول أن على فرنسا أن تحتفظ بكل قواتها فى أوروبا لحماية مصالحها المهمة والحوية وأن ترفض كل رأى يرمى إلى التوسع الخارجى أو الاستعمار .

وأما من حيث أمر تعاون إيطاليا مع الانجليز فى حماية قناة السويس وفى إرسال حملة مشتركة إلى داخل البلاد المصرية ، فلقد حاول السفير الانجليزى فى رومه إقناع مانشيني وزير الخارجية الإيطالية بوجهة النظر البريطانية ، ووضح له فائدة التعاون مع بريطانيا فى مسائل البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة فى هذه المسألة بالذات ، وبين له فى جلاء لأمزيد عليه أن موافقة الباب العالى التى جاءت متأخرة فى الاشتراك فى مؤتمر الأستانة وعلى إرسال جنوده إلى مصر لن تجعل الحكومة البريطانية تعمدل عن خطتها التى استنتها لنفسه ، ولن تمنع الحكومة البريطانية من الاستمرار فى استعداداتها الحربية ، ومن المضى قدماً فى احتلال المراكز التى تراها فى منطقة القناة وفى قمع الثورة العرابية وفى المحافظة على سلطة الخديو .

ولكن محاولات السفير البريطانى فى رومه ، وجرانفل فى لندن مع السفير الايطالى لم تجد نفعا كبيرا ، فلقد كانت إجابة وزير الخارجية

الايطالية مانشيني تنطوى على عدم اقتناعه بوجهة النظر الانجليزية ،
فلقد بين في أدب أنه لا يفهم معنى مناقشة مسألة مصر وقناة السويس في
مكانين مختلفين في وقت واحد ، فمسألة مصر والقناة معروضة الآن ،
باتفاق كل الدول الكبرى ، أمام المؤتمر المنعقد في الآستانة ، يتبادل
أعضاؤه الآراء في شأنها ، ويحاولون أن يجدوا لها علاجاً حاسماً .

ولذا فانشيني يفضل العمل الجمعي الذي تشترك فيه كل الدول الكبرى
لا تعاون انجلترا وإيطاليا وحدهما . وفي الواقع أن مانشيني كان يرى
أن الظروف الحاضرة لا تبرر تدخل إيطاليا الحربى في بلاد ناشئة تسعى
إلى تحقيق آمالها القومية . وأيده في موقفه بعض أعضاء البرلمان الإيطالى
الذين ما فتئوا يؤيدون حق الشعوب فى الوحدة والحرية .

وعند ذلك لاحظ السفير الإنجليزى لدى البلاط الإيطالى ، وكان
مغرمًا بإلقاء المحاضرات السياسية على الدولة الايطالية الناشئة : « بأنه
ينبغى ألا تنسى الحكومة الايطالية ذلك العرض حتى لا تهتم الحكومة
البريطانية فى المستقبل بأنها اتبعت سياسة خاصة أنانية ، كما ذكر ، أن
بريطانيا غير محتاجة إلى معاونة أية دولة فى حماية القناة أو القضاء على
ثورة الجيش فى مصر ، .

ولم تتجرب بريطانيا على موقف إيطاليا هذا ، بل اغتبطت له ، فالمهم
فى نظر وزير خارجية انجلترا أن دولته قد أظهرت رغبته فى مجاملة
إيطاليا ، ورفض بقوة اقتراح الحكومة الايطالية بإنشاء قوة بوليسية

بحرية دولية للإشراف على حرية المرور في قناة السويس دون احتلال
لأى جزء من أجزائها .

وواصلت إنجلترا السير في خطتها ، فصرحت لقائدها البحري في
بورسعيد بأن يحتل من أجزاء القناة ما يراه ضرورياً لاتخاذ القناة قاعدة
حرية ، وقررت إرسال حملة إلى مصر تسير بطريق القناة ثم تستند إلى
القناة . وتتكون هذه الحملة من ١٤,٧٩٤ جندي بقيادة السير جارنت
ولسلي ، تنضم إليها قوة آتية من الهند قوامها ٤,٥٨٦ جندياً ، كما تنضم
إليها الحامية البريطانية في الاسكندرية المكونة من ٦,١٨٦ رجلاً ،
ويقوم بوشب سيمور قائد القوات البحرية بمعاونة هذه الحملة . وأرسلت
تعليمات إلى الأسطول بأن يقوم بحماية القناة ، وأن تتخذ الحملة
الانجليزية القناة قاعدة لها .

وفي نهاية الأسبوع الأول من شهر أغسطس كانت إنجلترا قد أعلنت
للدول أن القناة لا يمكن حمايتها تماماً إلا باحتلال بعض النقاط على
ضفافها ، ولا سيما وأنه قد وصل إلى علم الحكومة الانجليزية أن عرابي
باشا يجمع الجنود قريباً من منطقة القناة .

وفي هذه الأثناء كان مستر إدوارد ستاندين في مجلس شركة قناة
السويس يجيب على احتجاجات فردنند دي لسبس بضرورة احترام حياد
القناة ، فيبين أن آراء الدول الكبرى مختلفة بالنسبة لهذا الموضوع وأن فرنسا
نفسها إلى وقت قريب كانت قد أعلنت للحكومة الانجليزية أنها لا تمنع في

إنزال جنود إلى بور سعيد ، وأن تحتل الجزء الشمالى من القناة . وأن ألمانيا نفسها قد وافقت على فكرة إنزال جنود فى منطقة القناة ، فقائد السفينة الحربية الألمانية الراسية فى مياه بور سعيد قد أنزل بالفعل عدداً من بحارته لحماية الرعايا الألمان فى هذه المدينة ، فهاتان الدولتان اللتان يقول عنهما دى لسبس بأنهما احترمتا حياد القناة . لم تريا فى مثل هذا العمل اعتداء على حياد القناة .

على أن هذا رأى لم يجد قبولا عند مدير الشركة الذى أرسل إلى ممثلى الدول فى باريس منشوراً يكرر فيه بأن القناة محايدة على أساس امتياز ٥ يناير سنة ١٨٥٦ . فالمادة ١٤ منه تقول « نعلن نحن وحلفاؤنا — بعد تصديق صاحب الجلالة الامبراطورية (العثمانية) ، بأن القناة البحرية الكبرى من السويس إلى بلوز والموانى القائمة عليها مفتوحة دائماً كمر محايد لكل السفن التجارية دون تمييز أو تفضيل لشخص أو لجنسية إذا دفعت الرسوم التى تقررها شركة القناة العالمية ، .

ومادة ١٥ تقول : « ونتيجة لذلك لا يجوز لشركة القناة العالمية الممنوحة الامتياز تفضيل سفينة أو شركة أو شخص بإعطائهم امتيازات لا تكون لكل السفن أو الأشخاص أو الشركات

في نفس الظروف .

ومن امتياز ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ تنص المادة العاشرة على
« أن من حق الحكومة المصرية أن تحتل الأراضي الواقعة على
القناة التي ترى أنها لازمة للدفاع عن البلاد . »

شمل المنشور الذي أرسله دى لسبس إلى ممثلي الدول في باريس
هذه النقطة ، وأكد أهمية المحافظة على حياد القناة لكل الدول التي
لها تجارة تمر بالقناة ، وبين المنشور كذلك أن قائد البحر الانجليزي
لم يابه لهذا ، بل وأعلن أنه سيتخذ كل الوسائل لاحتلال القناة ؛
ووضح المنشور أن المظاهرات الحربية التي يقوم بها قواد البحر الانجليز
من شأنها إثارة الأهلين ، وبهذا تدخل القناة في منطقة الحرب .

ويرى دى لسبس في ذلك المنشور أن الحل الوحيد لمسألة القناة
يتركز في حماية بحرية تشترك فيها كل الدول دون إنزال جنود على
ضفتي القناة أو احتلال لأجزاء منها ، وفي مثل هذا الاجراء ، إذا
اتخذ محافظة على حياد القناة الذي أقره السلطان صاحب السيادة .

على أن هذا المنشور الجديد لم يشط من عزيمة انجلترا ،
فلقد طالبت الحكومة الانجليزية من شركة القناة أن تفضل
مرور السفن الحربية البريطانية على السفن الأخرى ، وبينت أن
انجلترا ستلجأ حتما إلى القوة لتنفيذ ذلك ، إذا رفضت شركة

القناة الموافقة على ذلك الطلب ، وأعادت تحذيرها للحكومة الفرنسية بشأن العراقيل التي يثبها دى لسبس أمام انجلترا .

وأرسل جرانفل في ١٤ أغسطس إلى الأعضاء الانجليز في مجلس إدارة شركة القناة يطلب منهم أن يقوموا بتفسير أعمال بريطانيا الحربية في القناة لمجلس إدارة الشركة على النحو الآتي :

لقد أصبح من الضروري أن تعمل انجلترا متعاونة مع الحديو والسلطان ، وذلك بإزالة قوات على ضفاف القناة ، وفقاً لمواد ٩ ، ١٠ ، ١١ من امتياز ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ (الخاص بالقناة) والذي صدق عليه السلطان في ١٩ مارس من هذه السنة (١٨٦٦) احتفظ والى مصر لنفسه بحقوق تنفيذية في القناة وكل متعلقاتها ، ووفقاً لهذا الحق سمح والى مصر الحالى لقائد القوات البحرية البريطانية في بورسعيد باحتلال الأماكن الواقعة على القناة التي يراها ضرورية لحماية المرور في القناة وحماية المدن والسكان في منطقتها والقضاء على كل قوة لاتعترف بسلطته ، واستتبع هذا احتلال قوات انجلترا البحرية لمدينة السويس التي كانت مهددة بالتدمير (وكانت انجلترا في ذلك الوقت ترى أن هذه المدينة تقع خارج منطقة القناة) . ثم احتلال مدينة الاسماعيلية لحماية القناة وماحولها ، ولإرجاع النظام إلى مصر ، ونظراً لوجود القوات المعادية لانجلترا قرب القناة ، فالحكومة البريطانية إذن مضطرة إلى تركيز عدد كبير من القوات في هذه المنطقة .

وطلبت الحكومة البريطانية أيضاً أن تقوم الشركة بتقديم كل التسهيلات الممكنة لمرور ناقلات الجنود ، وأن تقدمها على كل السفن الأخرى ، وكذلك طلبت الحكومة البريطانية من الأعضاء الانجليز في مجلس إدارة الشركة أن يحذروا الشركة عواقب الوقوف أمام طلبات انجلترا وتجاهل أوامر الحديو صاحب الحق الشرعى في البلاد .
هكذا بررت الحكومة الانجليزية مسلكها بأزاء القناة ، ولجأت إلى التهديد باستخدام القوة إذا وقفت أمامها شركة القناة .

ولم يكن أمام شركة القناة إلا أن تلتجئ إلى الحكومة الفرنسية ولكن الحكومة الفرنسية كانت نفسها - كما رأينا - ميالة إلى التدخل مع انجلترا لحماية القناة ، لولا معارضة البرلمان الفرنسى لها . فهى من ناحية المبدأ لا تستطيع أن تنقذ مسلك انجلترا فى هذه المسألة بالذات ولا أن تؤيد شركة القناة ، وبعد ذلك فالحكومة الفرنسية فى مركز ضعيف لاتحسد عليه ، ليست لها حرية التصرف فى الامور الخارجية والامور التى تستلزم استخدام القوة . أما الدول الأخرى ، فما كانت شركة القناة تستطيع أن تتقدم إليها طالبة المعونة أو التأييد ، فهذه الدول ليست لها مصالح مهمة فى القناة أو مصر تدعوها للتدخل لنجدة الشركة فهى إذن ليست حريصة على عرقلة انجلترا ، وأما الدولة العثمانية صاحبة السيادة فهى أضعف من أن تتحدى الحكومة البريطانية ، وأما حكومة الثورة وعلى رأسها عرابى باشا فلم تتخذ أية اجراءات لحماية القناة

أو لمنع العدوان الانجليزى على شرقى مصر ، بل تركت منطقة القناة
بغير دفاع .

وانتهز الانجليز هذه الفرصة فاحتلت قواتهم البحرية منطقة القناة
جميعها ، وأوقفوا حركة المرور فى القناة ، واستطاعت الحملة الانجليزية
بقيادة سير جارت ولسلى أن تعبر القناة آمنة مطمئنة وأن تستند إلى
القناة كقاعدتها الأساسية فى غزو مصر .

وفى هذه الأثناء كان مؤتمر الأستانة مستمر فى جلساته ، ثم أنهى
هذه الجلسات بعد أن وافق على تعاون الانجليز والأتراك فى حل
مسألة مصر ، واستمرت المناقشات بين الانجليز والأتراك على نوع
وحدود التعاون بينهما ، واشترط الباب العالى ألا يتعدى الجنود
الانجليز حدود مدينة الإسكندرية ١١١ وألا يلبثوا فى الإسكندرية
أكثر من ثلاثة شهور ، وتقدمت الحكومة الانجليزية من جانبها
باقتراحات هى فى الواقع أوامر بآلاتزيد القوة العثمانية على خمسة
آلاف رجل ، وألا تتحرك فى مصر إلا بموافقة قائد القوات
الانجليزية .

واستمرت المفاوضات تتعثر حيناً وتتقدم حيناً آخر ، ثم انقطعت
بجأة بمهاجمة الانجليز للقناة وزحفهم على شرقى مصر ووقوع موقعة
التل الكبير ودخول الانجليز القاهرة واحتلالهم لمصر .

٥ - انجلترا وتحديد مركز القناة

سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٨٨٨

احتلت انجلترا مصر والقناة في خريف سنة ١٨٨٢ ، ولكن مركزها ظل مزعزعا ، فلم تكن الدول تعترف لها بمركز شرعى فى هذه البلاد . ففرنسا غير راضية ، إذ أصبح مركز الانجليز متفوقا فى مصر ، لم يعد يخالفها أى شك فى ذلك ؛ وحكومة فرنسا حزينة إذ لم تستطع أن تشترك مع الانجليز فى التدخل الحربى وحماية القناة على الأقل . وإيطاليا غير راضية عن عمل الانجليز المنفرد ، فلقد كانت تود لو اشتركت كل الدول الكبرى فى مسألة تأمين الملاحة فى القناة . وكل من ألمانيا والنمسا والمجر وروسيا لم يوافق على انتداب انجلترا لهذه المهمة ، مهمة حماية قناة السويس وإقرار الأمور فى مصر . ويفضل العمل الجمعى الدولى ، أو على الأقل كانت هذه الدول ترى تدخل الباب العالى إلى جانب انجلترا ، فالباب العالى هو صاحب السيادة على مصر من الناحية القانونية لا تتناطح دولتان فى ذلك . والشعب المصرى صاحب مصر والقناة لم يؤخذ رأيه ، ولم تكن انجلترا لتأبه لرأيه ، بل دخلت البلاد قسرا ووضعت جيش الاحتلال رقيقا على

تصرفاته وحياته ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يقبل الاحتلال في يوم من الأيام ، وأصبح يتحين الفرص للتخلص من ربقته .

حقيقة أن الشعب المصرى قمع بالقوة ، وحقيقة أن الدول الأوربية الكبرى لم تثر اعتراضاً قوياً على تدخل الانجليز المنفرد ، وحقيقة أن الباب العالى اقتصر على الاحتجاج اللفظى ، ولم يكن فى موقف يسمح له بتحدى انجلترا تحدياً جدياً ، ولكن مركز انجلترا كان بالرغم من ذلك ضعيفاً ، وأحست انجلترا نفسها بذلك الضعف ، واختلفت فيها الآراء على مصير مصر ، ففريق من رأى العام البريطانى كان يرى ضم مصر إلى الممتلكات البريطانية ، وفريق يرى بسط الحماية عليها ، وفريق ثالث يرى فرض حماية مستورة أو مقنعة ، ورابع يرى اعلان حيدتها ، وخامس يرى الجلاء عنها بعد استقرار سلطنة الخديو .

ولكن الحكومة الانجليزية رأت أن تتبع نصيحة المستشار الألمانى بسمرك ، وكانت له فى ذلك الوقت زعامة سياسية فى أوروبا ، فألمانيا أقوى دول العالم من الناحية الحربية ، وهذه النصيحة هى أن تستمر انجلترا فى الاحتلال حيناً من الزمن مع ترك السيادة للتركية كما هى .

ولم تقتصر الحكومة البريطانية على ذلك ، بل أعلنت من حين لآخر حسب الظروف إرضاء للرأى العام الأوروبى أنها لا تنوى البقاء مدى الدهر فى مصر ، وأنها ستغادر هذه البلاد حين ترى أن النظام والأمن قد استقرا فيها نهائياً .

هذا ما أعلنته الحكومة البريطانية للرأى العام العالمى ، ولكنها
فى قرارة نفسها لم تكن تفكر فى الجلاء عن مصر إلا حين لا يتعارض
هذا الجلاء مع مصالحها الخاصة ، ومتى سيكون ذلك ؟ لم تكن الحكومة
الانجليزية تريد أن تفكر جدياً فى هذه المسألة .

ولو أن الحكومة الانجليزية قررت ضم مصر نهائياً إلى ممتلكاتها
وأرغمت الباب العالمى على قبول ذلك ، زالت السيادة العثمانية عن مصر ،
ولأصبحت القناة بالرغم من أنها تجرى فى أرض مصر ، تابعة
لإنجلترا ، ولكانت إنجلترا قد بنت فى مصرها ، وكذلك لو فرضت
إنجلترا الحماية على مصر لأصبحت قناة السويس تحت إشراف
إنجلترا العام .

ولكن إنجلترا رأت أن تترك مركز مصر السياسى والدولى كما هو ،
فظلت القناة مجرى مائياً فى أراضى مصرية ، ينطبق عليها ما ينطبق على
بقية أراضى مصر من حيث السيادة العثمانية . ووجدت الحكومة
الانجليزية من أول الأمر أن تسترضى الدول حتى تعترف بالامر الواقع
فى مصر . والامر الواقع فى مصر هو سيطرة إنجلترا العسكرية على
كل أراضى مصر بما فيها القناة . وجدت الحكومة الانجليزية أن مصلحة
إنجلترا تقتضى المحافظة على المصالح الأوربية فى مصر ، وأرادت
أن تطمئن الدول وخاصة البحرية منها على حرية المرور فى قناة السويس
لكل السفن التجارية والحرية فى وقتى السلم والحرب .

فلقد كانت انجلترا تخشى أن تعتقد الدول الأوروبية الأخرى أن
انجلترا بسيطرتها العسكرية في مصر تريد أن تسيطر وحدها على قناة
السويس وتستغلها لصالحها الخاص .

فانجلترا إذن ترى في ذلك الوقت أن مسألة القناة وحرية المرور
فيها لكل السفن في كل وقت مسألة دولية تهم الدول جميعاً ، فالقناة
قد أصبحت بعد افتتاحها مجرى مائياً عالمياً ، يربط بين جزئى العالم
شرقيه وغربيه .

وكانت الحكومة الانجليزية ترى أنها إذا ضمنت للدول حرية
المرور في القناة ، ربما لم تتسائل الدول عن موعد جلاء الانجليز عن
مصر . ولذا فهى من اللحظة الأولى بعد استقرار سيطرتها بدخول
جيوشها القاهرة تعلن عن رغبتها في الدخول في مفاوضات مع الدول
الأوروبية لوضع نظام توافق عليه جميع الدول لضمان حرية المرور
في القناة .

ولم تكن الحكومة الانجليزية لترضى أبداً بحياد القناة ، فهى تريد
أن تفتح القناة دائماً لحركة مرور كل السفن الحربية وغيرها في كل
أوقات السلم والحرب . ولقد وجدت هذه الفكرة تأييداً من الباب
العالى الذى لم يعترف خلال المدة الباقية من القرن التاسع عشر
بالاحتلال البريطانى . كان الباب العالى يعارض فكرة الحيادة أو الحياة
بالنسبة للقناة وبالنسبة لمصر أيضاً في كل مفاوضاته مع انجلترا أو مع

الدول الأخرى ، لأن الفكرة تتعارض مع مبدأ سيادته على الأراضي المصرية . ولقد ظهر ذلك بشكل واضح أثناء مفاوضاته مع سير هنرى درموندولف الذي أوفدته حكومة سولسبرى إلى استامبول للنظر في أمر جلاء القوات الانجليزية عن مصر (١٨٨٥ - ١٨٨٧) وكذلك في مناقشاته مع الدول لوضع نظام دولي لتأكيد حرية المرور في القناة .

واهتمام إنجلترا بالقناة وحرية المرور لم يكن ناشئاً عن رغبتها في إرضاء الدول الأوروبية الأخرى فحسب وإنما وجدت إنجلترا أن أهم واجب تقوم به في مصر بعد احتلالها هو حماية مصالحها الخاصة الاستراتيجية والحرية ، هذه المصالح الناشئة من وقوع مصر في ملتقى الطرق العالمية البرية والبحرية .

ولقد ظهرت رغبة إنجلترا في وضع نظام لتأمين حرية المرور في القناة مع الدول الأخرى في منشور وزير الخارجية الانجليزية جرانفل إلى الدول الأوروبية ، والمؤرخ في ٣ يناير سنة ١٨٨٣ . وفي تقرير لورد دفرن المؤرخ في فبراير سنة ١٨٨٣ .

ولقد قسم منشور جرانفل مسائل مصر إلى قسمين : مسائل تتعلق بالدول الأخرى ، وضرورى فيها موافقة الدول الأوروبية الكبرى ، ومسائل تختص بأمور مصر الداخلية . فمن المسائل الأولى مسألة قناة السويس ، فيقول المنشور : « كان من نتائج الحوادث القريية

توجيه انتباه خاص إلى قناة السويس أولاً للخطر الذي كان مهدداً لها في الفترة الأولى لنجاح الثورة - وثانياً نتيجة لاحتلال القوات البريطانية لها باسم الحديو واتخاذها قاعدة للعمليات الحربية لمصاحبة سموه وتأيداً لسلطته - وثالثاً للوقف الذي اتخذته شركة قناة السويس في وقت خطير أثناء العمليات الحربية .

« وبالنسبة للتقطين الأولين ، تعتقد حكومة جلالة الملكة أن حرية الملاحة في كل الأوقات وعدم عرقلتها أو إلتافها بأعمال الحرب مسألة مهمة لكل الشعوب .

« وإن من المعترف به أن الاجراءات التي اتخذتها (حكومة جلالة الملكة) لحماية الملاحة واستعمال القناة باسم الحاكم المحلي لفرض استرجاع سلطته ليس بأي حال اعتداء على ذلك المبدأ العام .
« ولتوضيح مركز القناة في المستقبل ، ولاتخاذ التدابير ضد الأخطار الممكنة ؛ فترى حكومة جلالة الملكة أنه لا بد من الوصول إلى اتفاقية بين الدول الكبرى ، تدعى الدول الأخرى للوفاق عليها (على أساس أن) :

- ١ - تكون القناة حرة لمرور كل السفن في كل الظروف .
- ٢ - وفي وقت الحرب يحدد الوقت الذي تبقى فيه السفن الحربية في القناة ، ويجب ألا ينزل فيها جنود أو عتاد حربي .
- ٣ - لا تقوم أعمال عدوانية في القناة أو في مداخلها أو أى مكان

في المياه المصرية ، ولا يستثنى من ذلك تركيا إذا كانت أحد المتحاربين .
٤ - ولا يطبق هذان الشرطان على الاجراءات التي تتخذها مصر للدفاع عن القناة .

٥ - وإذا حدث أى تلف بالقناة من سفن إحدى الدول فتكلف هذه الدول بدفع نفقات الإصلاح .

٦ - تأخذ مصر كل التدابير في حدود قواها لتأييد الشروط التي وضعت لانتقال سفن المتحاربين في وقت الحرب .

٧ - لا تقام تحصينات على القناة أو في منطقتها .

٨ - لا يوضع في الاتفاق أى شرط يؤثر على حقوق حكومة مصر أكثر مما ذكر .

وقامت المفاوضات بين إنجلترا وفرنسا بشأن القناة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤ . وفي أوائل سنة ١٨٨٥ (٢١ يناير) فيها وافقت الحكومة الانجليزية على اقتراح الوزير الفرنسي جيل فرى بشأن تنظيم مركز القناة في معاهدة ، وتكوين لجنة تمثل فيها الدول الكبرى ، وكان الوزير الانجليزي جرانفل يفضل قيام المفاوضات بين العواصم الأوروبية المختلفة ولكنه وافق أخيراً على رأى الفرنسي .

واقترح الوزير الفرنسي أن تكون باريس مكان الاجتماع اعترافاً بفضل فردنت دى لسبس على الأقل . واعترض الجانب الانجليزي بأن

المفاوضات بدأت في لندن ، ولاداعي لتغيير العاصمة الانجليزية ،
وأخيراً وافق على الرأي الفرنسي .

ووافقت الدولتان على الإعلان الآتي وهو : من حيث أن الدول
الكبرى متفقة على الاعتراف بضرورة المفاوضة لوضع نظام
نهائي لضمان حرية استخدام كل الدول لقناة السويس في كل الأوقات ،
فقد اتفقت الحكومات السبع على تكوين لجنة مكونة من مندوبين
تعيينهم الحكومات ويجتمعون في باريس في ١٠ مارس على أن يتخذوا
أساساً لمفاوضاتهم منشور لورد جرانفل المؤرخ ٣ يناير سنة ١٨٨٣ .

ولقد اتخذت الدول السبع الكبرى إنجلترا وفرنسا وألمانيا
وإيطاليا وروسيا والنمسا والمجر تصريح لورد جرانفل أساساً لاتفاقية
وقعها مندوبو هذه الدول ومعهم مندوب تركيا في مارس سنة ١٨٨٥
لعقد مؤتمر مبدئي في باريس يتكون من ممثلي هذه الدول ومعهم
مندوب من لدن خديو مصر ، (وانضم إليهم بعد ذلك مندوبو
بعض الدول الأخرى مثل أسبانيا وهولندا) لوضع أساس اتفاقية
دولية بشأن قناة السويس . هذه الاتفاقية تدرسها الحكومات
فيما بعد ، وتعديل فيها إذا أرادت ، أو وجدت ذلك التعديل ضرورياً
باتفاقها جميعاً فيما بينها .

ولقد جعلت إنجلترا هذه الاتفاقية المبدئية الخاصة بالقناة أساساً
للنص الخاص بالقناة في اتفاقية سير هيزي درمندولف مع الباب

العالى فى سنة ١٨٨٧ الخاصة بجملاء الإنجلزى عن مصر بشروط معينة ورجوعهم إليها إذا قام خطر داخلى أو خارجى يهدد سلام مصر وأمنها. وعلى أى حال لم تصل هذه الاتفاقية الأخيرة إلى نتيجة نهائية لأن السلطان رفض التصديق عليها .

ولقد اجتمعت اللجنة فى ٣٠ مارس سنة ١٨٨٥ ومثل انجلترا سير جوليان بونسفوت وسير ريفرز ولسن . وافتتح اجتماع اللجنة الوزير الفرنسى جيل فرى الذى أعلن أن قناة السويس فكرة عبقرية ، وأنها قبل كل شئ عالمية وأوربية وإنسانية ، وأنه لتأكيد هذه الفكرة العالمية للقناة ستفتتح هذه اللجنة أعمالها . وظهر فى مناقشات هذه اللجنة النزاع الشديد بين فرنسا وانجلترا . واستغرقت أعمال اللجنة ست عشرة جلسة ، وبعد أن انتهت اللجنة من مناقشاتها - تقاعدت انجلترا عن السير فى إنهاء الموضوع . فاضطرت فرنسا إلى تهديد انجلترا بأنها لن تسمح أبداً بسيطرة الإنجلزى على مصر والقناة .

واضطرت وزارة سولسبرى إلى متابعة السير فى المشروع وأبدت كثيراً من الاعتراضات ، ولكن الدولتين وصلتا فى آخر الأمر إلى توحيد وجهات النظر ، وأرسلتا فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٥ بمشروعهما للدول الأخرى ولتركييا التصديق عليه .

ويلاحظ فى الاتفاقية النهائية الخاصة بالقناة أن انجلترا فقدت

فسكرتها فيما يختص بحرية المرور ، فكان أول شيء اتفق عليه مندوبو الدول جميعاً ، هو حرية المرور في القناة لسفن جميع الدول التجارية والحرية وقي السلم والحرب . كذلك أكدت انجلترا حقوق الحكومة المصرية في الدفاع عن القناة ، فهي جزء من الاراضى المصرية .

أكدت انجلترا حقوق الحكومة المصرية لما وجدت من محاولات مندوب الدولة العثمانية تسجيل حقوق العثمانيين ونفوذ السلطان العثمانى .

وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد قررت مبدأ المساواة بين الدول وأكدته ، كما أقرت عدم انفراد أية دولة بنفوذ متفوق في منطقة القناة إلا أن انجلترا بحكم احتلالها العسكرى للبلاد ومركزها الممتاز فيها ، قد أصبح لها بالفعل من الناحية العملية نفوذ متفوق في القناة .

فإصرار انجلترا على أن يوكل أمر تنفيذ الاتفاقية إلى الحكومة المصرية قد جعل بطريقة غير مباشرة أمر تنفيذها إلى الحكومة الإنجليزية ، فالباب العالى لم تكن له سلطة فعلية ، فلن تلجئ إليه الحكومة المصرية ، وإذا لم تلجئ إليه الحكومة المصرية فلن يلجئ هو بدوره إلى الدول . لأن انجلترا لن تلجئ الحكومة المصرية إلى مثل هذا الموقف أبداً .

وكذلك في حالة الدفاع عن مصر — كما سنرى من نصوص هذه الاتفاقية ، استندت الحكومة المصرية من بعض شروط هذه الاتفاقية

فلما وحدها الحق في وضع الجيوش والسفن الحربية في منطقة القناة . ولما وحدها حق تفتيش السفن المشتبه فيها ، ولما كانت الحكومة الإنجليزية تشرف بالفعل على الحكومة المصرية وعلى الجيش المصري معاً ، فهي التي قامت بتحديد عدد الجيش وعينت ضباطه وقواده من الإنجليز ، كانت هي التي تتمتع بهذا الحق من الناحية العملية — طالما ظل نظام الاحتلال موجوداً .

ومع ذلك فقد احتفظت إنجلترا لنفسها بحق انفردت به ، وهو أن تنظيم موقف القناة بصفة مستديمة لا يمكن أن ينفذ بشكل يعرقل حركات الجيوش البريطانية في مصر . فأنجلترا ادعت لنفسها بحق الإشراف على أمور مصر ، وهي لا تستطيع القيام بهذا الواجب إذا لم تكن لجنودها حرية التصرف .

وهذا التحفظ بقي مابقي الاحتلال إلى سنة ١٩٠٤ ، إلى أن عقدت إنجلترا اتفاقيتها مع فرنسا ، اتفاقية لانزدون كامبون المشهورة ، التي وضعت حداً للتنازع الاستعماري الإنجليزي الفرنسي .

أصبح لإنجلترا إذن من الناحية الفعلية نفوذ كبير في القناة ، وكانت الدول المحاربة تتصل بها حين تريد إرسال سفنها الحربية للبرور من القناة . ولذا فلا عجب أن طلبت فرنسا في أثناء مفاوضاتها مع إنجلترا في سنة ١٩٠٤ رفع هذا التحفظ وأجيبته إلى ذلك .

ولم أرأت الدول أن إنجلترا تؤكد دائماً بأن ليس من السهل

فصل مسألة مصر عن مسألة القناة ، وأنه نتيجة للاحتلال سيكون لها بالفعل مركز خاص ، هذا جعل مندوبي الدول لا يوافقون على أن تنص الاتفاقية على امتيازات خاصة لانجلترا على أساس أنها محتلة لمصر أو لها مصالح حقيقية في القناة ، كما تدعى ، أكثر من الدول الأخرى . كما نصوا على عدم جواز إقامة تحصينات على القناة أو بجوارها أو احتلال نقط حربية في منطقتها أو الأماكن المشرفة عليها . وكذلك سجلوا عدم جواز القيام بأية أعمال حربية أو استعدادات للحرب في منطقتها أو في المياه الإقليمية لمداخلها ، وشمل هذا التحريم الباب العالي ولو أنه صاحب السيادة .

وتتكون هذه الاتفاقية التي وصلت إليها الدول من سبع عشرة مادة ، وأمنيت في استامبول في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ . وقعتها بريطانيا وألمانيا والنمسا والمجر وأسبانيا وفرنسا وهولنده وروسيا وإيطاليا وتركيا .

وهذا هو نص هذه الاتفاقية :

المادة الأولى - تكون قناة السويس حرة دائماً ومفتوحة في وقتي السلم والحرب لكل سفينة تجارية أو حربية دون تمييز لجنسيتها . وعلى هذا تتفق الدول السامية المتعاقدة على ألا تعوق حرية استخدام القناة في وقت السلم والحرب . ولا تخضع القناة أبداً لمزاولة حق الحصار .

المادة الثانية - ولما كانت الدول المتعاقدة تعترف بأن القناة البحرية لا تستغنى أبداً عن القناة العذبة ، فهل تسجل كل التزامات سمو الحديو أمام شركة قناة السويس العالمية فيما يخص بالقناة العذبة . وقد نص على هذه الالتزامات في الاتفاقية المؤرخة ١٨ مارس سنة ١٨٦٣ ... وتمهد الدول المتعاقدة بعدم المساس بوجود التربة وفروعها ، ولا تعطيل قيامها بوظيفتها .

المادة الثالثة - وتمهد الدول المتعاقدة باحترام جميع منشآت ومباني وأشغال القناة البحرية والقناة العذبة .

المادة الرابعة - ولما كانت القناة البحرية ستظل مفتوحة وقت الحرب كمرحى لسنن المنحاربين الحربية ، وفقاً لنصوص مادة ١ من هذه المعاهدة ، فإن الدول المتعاقدة متفقة على أنه لا يحق القيام بعمل حربي أو عمل عدائي أو أى عمل من شأنه عرقله حرية الملاحة فى القناة أو فى الموانى التى تشرف على مداخلها أو فى مدى ثلاثة أميال بحرية من مداخلها ، حتى ولو كانت الامبراطورية العثمانية إحدى الدول المنحاربة ...

ولا يجوز لسنن المنحاربين التزود فى القناة ولا فى موانئها إلا فى حالة الضرورة القصوى ، وللمحد الضرورى جداً ويكون مرور هذه السفن فى أقصر وقت ممكن وفقاً للوائح المعمول بها . ولا يجوز لهذه السفن أن تبقى فى بور سعيد أو السويس أكثر من

أربع وعشرين ساعة إلا في حالة الضرورة القصوى ، وعليها أن ترحل في أول فرصة مستطاعة .

ويجب أن تمر فترة أربع وعشرين ساعة بين إبحار سفينتين متعاديتين . . .

المادة الخامسة - وفي وقت الحرب ، على سفن المتحاربين ألا تنزل أو تأخذ جنوداً أو مواد حربية في القناة وفي موانئها .

ولكن في حالة حدوث عطل في القناة يجوز لها أن تأخذ أو تنزل فصائل جنود في موانئها لا يتجاوز كل منها ألف رجل ، ومعهم ما يلزمهم من عتاد حربي .

المادة السادسة - تخضع الغنائم لنفس القواعد التي تخضع لها سفن المتحاربين الحربية .

المادة السابعة - لا تحتفظ الدول لنفسها بسفن حربية في مياه القناة . ومع ذلك ، فيجوز أن تضع سفناً في مدخل القناة لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة . . ولا يكون هذا الحق لسفن المتحاربين . .

المادة الثامنة - ويقوم معتمدو الدول الموقعة على هذه المعاهدة بمراقبة التنفيذ . ففي حالة حدوث خطر يهدد سلامة حرية المرور في القناة يجتمع هؤلاء المعتمدون بناء على طلب ثلاثة منهم ، ويرأس الاجتماع عيب الهيئة السياسية . . . وهم الذين يفتنون الحكومة الحديوية بالخطر الذي رأوه حتى تستطيع اتخاذ التدابير لحماية القناة

وحماية حرية استخدامهما . وعليهم أن يجتمعوا مرة واحدة في السنة لمراقبة تنفيذ المعاهدة .

وهذه الاجتماعات الأخيرة تكون تحت رئاسة مندوب خاص لهذا الغرض تعينه حكومة الامبراطورية العثمانية . ويجوز لمندوب الخديو أن يحضر هذا الاجتماع ، ورأسه إذا تغيب المندوب العثماني .

* * *

المادة التاسعة - وعلى الحكومة المصرية في حدود السلطات التي تخولها إياها الفرمانات ، وفي الظروف التي تعينها هذه المعاهدة ، أن تتخذ التدابير لتنفيذ هذه المعاهدة المذكورة .

وفي حالة ما إذا لم يكن لدى الحكومة المصرية الوسائل اللازمة ، عليها أن تطلب من الحكومة العثمانية التي تتخذ الاجراءات اللازمة لإجابة ذلك الطلب ، وعليها أن تحيط الدول الموقعة لإعلان لندن المؤرخ ١٧ مارس سنة ١٨٨٥ علماً وأن تعمل معهم ، إذا ما استدعت الضرورة ذلك .

ولا تقف مواد ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ في سبيل الاجراءات التي تتخذ في هذا الشأن بحكم هذه المعاهدة .

المادة العاشرة - وكذلك لا تقف مواد ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ في سبيل الاجراءات التي يتخذها صاحب الجلالة السلطان وسمو الخديو باسم صاحب الجلالة الامبراطورية في حدود الفرمانات الممنوحة

بواسطة قواته للدفاع عن مصر وصيانة النظام العام . وفي حالة ما إذا وجد صاحب الامبراطورية السلطان أو صاحب العظمة الخديو ضرورة الانتفاع بالاستثناءات التي تقررها هذه المادة ، على أن تنبئ الحكومة العثمانية الدول الموقعة لإعلان لندن .

وكذلك لاتقف المواد الأربع المذكورة في سبيل الاجراءات التي تتخذها الحكومة العثمانية الامبراطورية لتدافع بواسطة قواتها عن ممتلكاتها الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر .

المادة الحادية عشرة : — وإن الإجراءات التي تتخذ وفقاً للحالات الميئة في مواد ٩ ، ١٠ لهذه المعاهدة لا يجب أن تقف في سبيل حرية استخدام القناة .

ولا يجوز كذلك إنشاء تحصينات دائمة بحيث يتناقض ذلك مع نصوص مادة ٨ .

المادة الثانية عشرة — وإن الدول المتعاقدة في تطبيقها لمبدأ المساواة بالنسبة لحرية استخدام القناة ، ذلك المبدأ الذي هو أساس من أساس هذه المعاهدة — توافق على ألا تحاول واحدة منها أن تأخذ لنفسها بالنسبة للقناة أية امتيازات . . . كذلك تحتفظ لتركيا كالدولة المالكة بكل الحقوق .

المادة الثالثة عشرة — وباستثناء الالتزامات التي تقررها مواد هذه المعاهدة لاتمس حقوق السيادة التي يملكها صاحب الجلالة

الأمبراطورية السلطان ولا حقوق وامتيازات سمو الخديو التي تمنح
إياها الفرمانات .

المادة الرابعة عشرة - وإن الدول المتعاقدة توافق على أن
الالتزامات الناتجة من هذه المعاهدة لاتحد بمدة بقاء امتياز الشرأ
العالمية لقناة السويس .

المادة الخامسة عشرة - لاتعارض شروط هذه المعاهدة م
الاجراءات الصحية المطبقة في مصر .

المادة السادسة عشرة - تتعهد الدول الموقعة بدعوة الدو
الأخرى للوفاقة على هذه المعاهدة .

المادة السابعة عشرة - (تختص بالتصديق على هذه المعاهدة)



٦ - إنجلترا والقناة

من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٩٣٥

لقد أمضت إنجلترا اتفاقية سنة ١٨٨٨ الخاصة بالقناة كما أمضتها بقية الدول ، ولكننا وجدنا أن إنجلترا تمتعت من الناحية الفعلية بحكم احتلالها العسكرى وإشرافها على الحكومة المصرية بمركز ممتاز فيما يختص بقناة السويس . ثم ذلك التحفظ الذى وضعته كان معناه انفرادها من الناحية العملية بحقوق ليست للدول الأخرى .

واستمر الموقف على ذلك إلى أن وجد كل من إنجلترا وفرنسا تسوية المسائل المتعلقة بينهما . فلقد كان النزاع الذى اشتد أواره بينهما فى غير صالحهما . فلقد حى النزاع بين الدولتين بخصوص مسألة مصر إلى درجة كادت الحرب أن تقع بينهما فى أزمة فاشوده سنة ١٨٩٨ .

وجدت فرنسا أثناء هذه الأزمة العنيفة أنه لا يمكنها الاعتماد على التحالف الروسى ، ولا يمكنها مناضلة إنجلترا ، فلقد ثبت لدى الحكومة الفرنسية أن البحرية الإنجليزية فى البحر المتوسط متفوقة تفوقاً تاماً على البحرية الفرنسية .

ووجدت إنجلترا أن من مصلحتها إصلاح علاقاتها بفرنسا لتأمين

مركزها في مصر وقناة السويس نهائياً ، فلقد كانت فرنسا وحليفتها
الروسيا وهما الدولتان الوحيدتان اللتان ناوأنا بكل شدة استمرار
الاحتلال البريطاني في مصر وسيطرة البريطانيين على قناة السويس .
والأعضاء الفرنسيون في مجلس إدارة شركة القناة هم الذين أثاروا ما
استطاعوا من عقبات في وجه العمليات الحربية البريطانية في سنة ١٨٨٢
وأما بقية الدول فلم تثر معارضة حقيقية . ولذا حاول الإنجليز تسوية
علاقاتهم مع فرنسا نهائياً ، إذ ما قيمة مصر وقناة السويس من الناحية
الاستراتيجية ، إذ استطاع الفرنسيون بمعاونة حلف خارجي قطع الطريق
البحرية في الجزء الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، فهم مسيطرون على
تونس والجزائر ونفوذهم كبير في مراکش .

ولو حدث ذلك واستمر مدة لتزعزع مركز إنجلترا في البحر
المتوسط ، ولساعات حالتها التجارية ، ولذلك أصبحت إنجلترا تعتقد
أن مستقبل المواصلات الإمبراطورية كلها متعلق إلى حد كبير بالشاطئ
الافريقي الشمالي ، ورأت أن نطمئن إلى أن الدولة التي سيهيئ لها النفوذ
في مراکش دولة صديقة لها . وخاصة وأن قوة ألمانيا البحرية قد أخذت
تنمو بسرعة كبيرة . وهذا من شأنه حجب جانب كبير من الأسطول
البريطاني في المحيط الأطلنطي وبحر الشمال .

فلو حدث واتفقت ألمانيا وحليفتها إيطاليا مع فرنسا ، لكانت

الكارثة على إنجلترا وعلى مركزها في البحر الأبيض المتوسط والعالم ،
ولقد حدث أن اتفقت فرنسا وألمانيا في سنة ١٨٨٥ فتزعزع مركز
إنجلترا في مصر ، وأخذت تفكر في الجلاء ، واضطرت إلى أن تسلم
بمطالب الألمان والفرنسيين فيما يختص بالمستعمرات وراء البحار .
واضطرت إلى أن تسوى المسألة المالية في مصر تسوية ترضى فرنسا .
فإذا تكررت نفس الاتفاق في سنة ١٨٩٨ أو سنة ١٩٠٠ ، وكانت فرنسا
تفكر جدياً في الانضمام إلى المعسكر الألماني ، فإذا يكون مركز إنجلترا
في مصر وقناة السويس وبقية أجزاء العالم .

فلكى تطمئن إنجلترا تماماً إلى مركزها في مصر وإشرافها على قناة
السويس وقواعدها في جبل طارق ومالطة لا بد من الوصول إلى
اتفاق تام مع فرنسا وتسوية كل المسائل المتنازع عليها بينهما وخاصة
مسألة مصر والقناة . وتم ذلك في الاتفاقية (لاندون كامبون) في
ربيع سنة ١٩٠٤ .

وبهذه الاتفاقية زالت المعارضة الحقيقية للاحتلال الإنجليزي لمصر
وضمنت إنجلترا نهائياً وإلى حين تفوق مركزها على ضفاف النيل
والقناة . وبذلك لم تعد في حاجة إلى التحفظ الذي ألحقته باتفاقية
سنة ١٨٨٨ .

فنصت الاتفاقية الجديدة في المادة السادسة على زوال ذلك

التحفظ ، وأعلنت الدولتان تمسكهما بحرية المرور في القناة وبشروط
معاهدة سنة ١٨٨٨ .

وبهذه الاتفاقية بين انجلترا وفرنسا زالت كذلك معارضة روسيا
للاحتلال الانجليزي لمصر ، وستنضم روسيا إلى الوفاق الفرنسي
الانجليزي بعد ثلاث سنوات من هذه الاتفاقية . بقيت الدول الكبرى
مثل ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا ، فإلى قيام الحرب الكبرى الأولى
لم تكن لهذه الدول مصالح مباشرة ومهمة تدعوها إلى معارضة
الاحتلال معارضة جديدة أو مناقشة مركز انجلترا الممتاز في القناة .

ولكن هناك مسألة تستوقف النظر بالنسبة للقناة ، وهي محاولة
ألمانيا إنشاء طريق آخر للواصلات بين الشرق والغرب وهو طريق ب.
ب . ب . برلين . بيرفله . بغداد . أخذت ألمانيا تستغل مركزها
الممتاز في الدولة العثمانية من بعد سنة ١٩٠٠ لإنشاء سكة حديدية
تخترق الأناضول والجزيرة والعراق إلى بغداد . ومنها تكمل السكة
الحديدية إلى البصرة على مدخل الخليج الفارسي . وبذلك هيء لألمانيا
إمكان تحويل جانب كبير من تجارة الشرق عن طريق قناة السويس إلى
الطريق الجديدة .

وأخذ الألمان في تنفيذ مشروعهم . ففي سنة ١٩٠٣ استطاعت
ألمانيا أن تأخذ امتياز سكة حديد بغداد ، وكان الألمان يرون في ذلك

الوقت أنه "يمكن إلحاق الضرر بالجسيم بانجلترا في نقطة واحدة هي مصر ، وإن فقدان إنجلترا لمصر ليس معناه انتهاء إشرافها على قناة السويس والطريق إلى الهند ، ولكن معناه أيضاً ضياع ممتلكاتها في أواسط وشرق أفريقية " . أعتبر الألمان قناة السويس شرياناً حيويّاً من شرايين الإمبراطورية ، فأى عطب يلحق به يصيب إنجلترا بخسارة جسيمة .

وعلى أى حال لم تلاحظ الحكومة البريطانية ذلك الخطر الجديد من أول الأمر بل وساهمت في تمويل المشروع الألماني ، ولكنها حين تنبّهت لخطر المشروع أسرعّت بالسيطرة على الخليج الفارسي ، وعقدت حلفاً مع روسيا لنشل حركة الألمان والأتراك معاً . ثم قامت الحرب العالمية الكبرى الأولى ، فلم يكمل تنفيذ المشروع كما كان يرغب الألمان ، وظلت طريق قناة السويس بغير منافس ، إذ أنه بعد انتهاء هذه الحرب سيطرت إنجلترا على العراق سيطرة كاملة من الناحية السياسية لمدة ثم عقدت معه معاهدة تحالف تضمن عدم انضمامه إلى جانب أعدائها . ومع ذلك فلم تعمل إنجلترا على إحياء طريق الخليج الفارسي - العراق - البحر الأبيض ، بحيث ينافس طريق قناة السويس :

وقبل قيام الحرب الكبرى الأولى ، قامت حربان : الحرب الأولى بين روسيا واليابان ، وكانت إنجلترا صديقة لليابان وحليفة لها ، وبهما بطبيعة الحال ألا تخرج روسيا من هذه الحرب منتصرة . وكان على إنجلترا كما تنص اتفاقية سنة ١٨٨٨ أن توافق على مرور

الأسطول الروسى فى القناة إلى الشرق الأقصى ، وترددت الحكومة الانجليزية فى أول الأمر ، ولكنها لم تحاول منعه من المرور ، فمر ليلقى حتفه فى المياه اليابانية .

وفى المرة الثانية كانت الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا فى سنة ١٩١١ ، بسبب مسألة طرابلس التى كانت إيطاليا ترمى إلى الاستيلاء عليها ، والتى كانت جزءاً من ممتلكات الدولة العثمانية .

وطرابلس مجاورة لمصر من الناحية الغربية ، ومصر من ناحية القانون الدولى لازالت تحت السيادة العثمانية ، ويحق لإيطاليا أن تهاجمها وتعتدى على قناة السويس ما دامت فى حالة حرب مع الدولة العثمانية ، كما هاجمت جزر الدوديكانيز التابعة للدولة العثمانية أيضاً .

كان من الممكن حدوث هذا ، لو لم تقف إنجلترا فى مصر موقف الحياد التام بين المتحاربين . والواقع أن إنجلترا كانت قد وافقت منذ صيف سنة ١٨٧٨ على ألا تثير معارضة إذا ذهب الإيطاليون إلى طرابلس . قبلت إنجلترا هذه الفكرة حين قررت احتلال قبرص . ولذلك طلبت إنجلترا من الحكومة المصرية ألا تساعد فريقاً من المتحاربين على الفريق الآخر ، بالرغم من أن رأى العام المصرى كان يود لوامتناع مساعدة الطرابلسيين فى محنتهم الشديدة . وفعلاً لم لانجلترا ما أرادت ، ولذا حين طلبت الحكومة العثمانية ، بعد أن فرض الإيطاليون بالقوة الحصار البحرى عليها ، مرور الجنود العثمانية

في مصر لم توافق إنجلترا . وكذلك لما طلبت الحكومة العثمانية من حكومة مصر إرسال فرقة من جيشها لمساعدة الأتراك في طرابلس ، احتج المعتمد البريطاني هربرت كتنشر على ذلك ، وبين أنه إذا أرسلت مصر جزءاً من جيشها إلى طرابلس ، فستجد إنجلترا نفسها حينئذ مضطرة إلى زيادة عدد جنودها في مصر الأمر الذي لا تقبله تركيا راضية . وذكر كتنشر الدولة العثمانية أنها كانت لا توافق أبداً على تعزيز إنجلترا لجيوشها في مصر .

وعلى ذلك مرت الحرب الطرابلسية دون أن تقوم إيطاليا باعتداء على مصر أو القناة .

وقبل قيام الحرب الطرابلسية أثارت شركة قناة السويس في سنة ١٩٠٩ موضوع مد الامتياز الممنوح لشركة القناة . ورأت الحكومة البريطانية من جانبها ألا تتدخل في هذا الموضوع ، ولذا حين أثرت هذه المسألة في البرلمان الانجليزي في نوفمبر سنة ١٩٠٩ لم يرد جرای وزير الخارجية البريطانية أن يدلي برأى في الموضوع ، واقتصر على أن قال إن الأمر معروض على مصر لإبداء رأيها فيه . ولكن يظهر أن المعتمد البريطاني في مصر سير إلدن جورست كان أكثر حماسة من حكومته لمد الامتياز فلقد اعتقد أن مد الامتياز يهم حاضر المصريين ومستقبلهم ، ولكن حكومته لم تشجعه على تأييد ذلك المشروع تأييداً عملياً ، وعرض المشروع على مصر في ٩ فبراير سنة ١٩١٠ فرفضته .

فلم تتخذ الحكومة البريطانية موقفاً معيناً ، بل بالعكس فإنها لم تحرز
لرفض مصر له . إذ لما أثير ذلك الموضوع في مجلس العموم البريطاني :
ذكر بعض النواب الانجليز أن مستقبل القناة يهم انجلترا كما يهم مصر
وسأل بعض النواب الآخرين عن التدابير التي اتخذتها الحكومة
البريطانية لحماية مصالح البريطانيين المالية والتجارية في قناة السويس
بعد أن رفضت مصر مشروع المد ، أجاب لورد جراى بأن هذا أمر
يتعلق بالحكومة المصرية وبشركة القناة . وأن بريطانيا لا يجب أن تؤيد
المد قبل أن تستشير مصالحها الخاصة ، فيجب أن تعرف أولاً رأى
الأعضاء الانجليز في مجلس إدارة الشركة ، وتعرف رأى الخزانة
البريطانية ورأى وزارة التجارة .

ويظهر أن أصحاب السفن في بريطانيا لم يكونوا يهتمون كثير
بمسألة مد الامتياز الممنوح لشركة القناة . وكذلك الحكومة البريطانية

وحين قامت الحرب الكبرى الأولى ، وانضمت الدولة العثمانية
إلى جانب ألمانيا والدول الوسطى الأوربية ، أعلنت الحكومة البريطانية
في أواخر سنة ١٩١٤ زوال السيادة التركية وقيام الحماية البريطانية
وأصبح بذلك لإشرافها تاماً على القناة بالرغم من أن هذا الإعلان
جاء من جانب واحد ولم توافق عليه بطبيعة الحال تركيا ولا أصدقاؤها
ولا مصر .

وراعت انجلترا مصالح البريطانيين هم وحلفاؤهم قبل كل شيء ، ولم يعد لمعاهدة سنة ١٨٨٨ خلال أزمة الحرب الكبرى الأولى وجود حقيقي ، فلم ينفذ من قراراتها إلا ما كان في صالح الحلفاء ، فلم تراخ انجلترا فيها حرية المرور ، وقبضت على السفن المعادية في مياهها بحجة أن هذه السفن تنوى القيام بأعمال عدوانية في القناة أو تعمل على عرقلة حرية الملاحة فيها .

وقررت الحكومة البريطانية كذلك اتخاذ القناة خط دفاع من الناحية الشرقية ، فتحولت بذلك القناة إلى منطقة عسكرية وموضع عمليات حربية ، ومنع مرور السفن المعادية فيها ، ووضع نظام خاص للقناة يكفل مصالح الحلفاء . قسمت القناة إلى ثلاثة أجزاء لتنظيم الدفاع عنها ، وجعل مركز القوات المدافعة في الإسماعيلية ، ووضعت في القناة سفن حربية بريطانية وفرنسية لتساهم في الدفاع ، ووضعت شركة القناة مالدتها من سفن ومعدات وأدوات ومهندسين وعمال في خدمة الدفاع . وطاوت الحكومة المصرية بكل ما تستطيع من قوة وموارد ، وقامت باتخاذ الاجتياطات لمنع أى تلف يلحق بالقناة وقامت قوات المهجاة بحراسة شواطئ القناة .

ولقد قام الأتراك والألمان بقيادة جمال باشا بمهاجمة القناة ، ونشبت بالفعل معارك بينهم وبين الإنجليز والفرنسيين انتهت بانهمزام الأتراك وانسحابهم من منطقة القناة . وكان يظن أن الأتراك سيعودون

إلى الهجوم على القناة ، إذا خف الضغط عليهم ، وبعد أن فشل الحلفاء فشلاً تاماً في الاستيلاء على الدردنيل ، على أن الأتراك لم يقوموا بذلك الهجوم ، ومع ذلك ظلت القناة مركز العمليات الحربية في شرق مصر ، وظلت كذلك إلى أن عين الجنرال اللنبي في يونيو سنة ١٩١٧ وتقدم الإنجليز إلى العريش وقاموا هم بالهجوم ، وطهروا شبه جزيرة سيناء ، حينئذ انتهى الخطر التركي على القناة .

وحين انتهت الحرب نصت مادة ١٥٢ في معاهدة فرساي على تحويل سلطة الأتراك في حماية القناة إلى إنجلترا ، وأكدت نصوص معاهد سنة ١٨٨٨ ، وعادت إلى السريان من جديد .

خرجت بريطانيا من هذه الحرب قوية المركز مهية الجانب في الشرق الأدنى جميعه ، فلقد سيطرت على كل المناطق المشرفة على القناة والمحيط بها ، واعترفت بحمايتها على مصر الدول المنتصرة والدول المنهزم على السواء ، وانتدبت لفلسطين ، وشرق الأردن .

وفي تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ أعلنت إنجلترا من جانبها أنها الحماية البريطانية على مصر ، واعترفت باستقلال مصر مقيداً بالتحفظات الأربعة . وبهنا في هذا المكان التحفظ الخاص بالمواصلات البريطانية وكانت الحكومة الإنجليزية على اختلاف ألوانها ترى أن القناة هي الحلقة المهمة في هذه المواصلات الإمبراطورية ، فكانت إنجلترا في هذا التحفظ قد احتفظت لنفسها بحق حماية قناة السويس وحرية المرور فيها ، والدفاع

عنها ، إذا قام عليها اعتداء من أية ناحية ، على أنه يجب ألا ننسى هنا أن إنجلترا كانت تربط مسألة القناة دائماً بمسألة مصر ، ففي ذلك الوقت كانت إنجلترا تعتقد أن مصر كلها بما فيها قناة السويس حلقة في خطوط المواصلات الإمبراطورية يجب على إنجلترا حمايتها والدفاع عنها ضد كل اعتداء . ولذلك احتفظت لنفسها بحق الدفاع عن مصر .

وعلى هذا الأساس بررت إنجلترا بقاء الاحتلال في كل جهات مصر التي تراها لازمة للدفاع ولحماية المواصلات البريطانية بين الشرق والغرب . ولذا كان تاريخ مصر السياسي من بعد سنة ١٩٢٢ هو تاريخ جهاد مصر للتخلص من القيود التي فرضها تصريح ٢٨ فبراير ، الواحد قلو الآخر .

فصر ظلت متمسكة بفكرتها ومطلبها العادل ، وهو وجوب جلاء الإنجليز عن كل أراضى مصر . وإنجلترا من ناحيتها متمسكة بما تراه حقوقاً لها ، ومنها الحق الذى تدعيه لنفسها من ضمان حرية مرور سفنها التجارية والحربية في كل أوقات السلم والحرب لحماية مصالحها في الشرقين الأوسط والأقصى . ولم تكن على استعداد لتترك حماية وحراسة هذه الطريق التي تعتبرها حيوية لها لغيرها .

وظل تصريح ٢٨ فبراير مدة هو الذى يحدد علاقات بريطانيا بمصر بالرغم من أن الجانب المصرى لم يعترف به . وجرت مفاوضات في العهود المختلفة للوصول إلى حل للمسألة المصرية يرضى الطرفين .

وكانت أم هذه المحادثات أو المفاوضات ما قامت بين سعد زغلول باشا ومستر رمزي مكدونالد ، فاقترح الجانب المصرى فيما يختص بالموضوع الذى نبهته أن تتنازل إنجلترا عن حماية قناة السويس لعصبة الأمم وأعلن رئيس الوزارة البريطانية أنه لا يستطيع قبول هذه الفكرة ، وأكد أهمية قناة السويس للمواصلات البريطانية الإمبراطورية ، وذكر أنه لا تستطيع حكومة بريطانية إعطاء هذا الحق لغيرها حتى ولو كان حليفاً لها . ويظهر أن إنجلترا وإن كانت قد اشتركت فى بناء نظام عصبة الأمم إلا أنها لم تكن تؤمن تماماً بقدرتها على حماية مصالحها .

وفى المفاوضات التى جرت بين سير أوستن تشمبرلن وزير الخارجية البريطانية وثروت باشا رئيس مجلس الوزراء فى سنة ١٩٢٧ ، وانتهت إلى وضع مشروع معاهدة ، لم تذكر مسألة القناة كمسألة منفصلة عن المسألة المصرية . وإنما ذكرت خطوط المواصلات البريطانية كأنها تشمل الأراضى المصرية جميعاً . فيذكر ذلك المشروع أنه : « يسمح لجلالة ملك مصر لجلالة ملك بريطانيا ضمناً لحماية خطوط المواصلات الإمبراطورية البريطانية ، وانتظاراً لعقد اتفاقية فى تاريخ قريب ، بأن تكون له القوات اللازمة لذلك الغرض ، ووجود هذه القوات ليس معناه احتلالاً ، ولا يمس حقوق سيادة مصر — وبعد مرور عشر سنوات ينظر الطرفان المتعاقدان فى ضوء تجاربهما مسألة الأماكن التى

توضع فيها هذه القوات ، فإذا لم يصلها فيها إلى اتفاق يعرض الأمر على عصبة الأمم ، فإن حكم مجلس عصبة الأمم في غير صالح مصر ، يعاد النظر فيه بناء على طلب الحكومة المصرية بعد انقضاء خمس سنوات من قرار العصبة .

وفي الملحقات المتصلة بذلك المشروع تحرم الحكومة المصرية الطيران الأجنبي على منطقة القناة ، ولا ينطبق هذا التحريم بطبيعة الحال على بريطانيا .

ورجع ثروت باشا إلى مصر ومعه الحد الأقصى لما تستطيع الحكومة البريطانية أن توافق عليه ، ، فرفضت مصر ذلك المشروع .

وحين ذهب محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء إلى لندن في سنة ١٩٢٩ لغرض تعديل نظام الامتيازات ولقبول مصر في عصبة الأمم ، قامت محادثات بينه وبين الإنجليز تطورت إلى مفاوضات . ولم يتردد رئيس الوزارة المصرية في انتهاز هذه الفرصة لوضع أساس لتسوية بين إنجلترا ومصر . وبدأت المناقشة بينه وبين وزير الخارجية البريطانية في حكومة العمال في ذلك الوقت مستر آرثر هندرسون في المسائل الحرة التي فشل من أجلها مشروع سنة ١٩٢٧ .

ووضع لذلك نص يختص بمنطقة القناة هو ديسمب صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة ملك بريطانيا تسهيلا وضماناً لحماية خطوط مواصلات الإمبراطورية البريطانية بأرب يضع في المنطقة شرقي التل

الكبير القوات اللازمة لهذا الغرض ، وفي هذا النص تقدم على مادة ٧ من مشروع ثروت باشا أوستن تشمبرلن (نوفمبر ١٩٢٧). فلقد ترك ذلك المشروع لبريطانيا حق وضع قواتها في القاهرة أو الإسكندرية أو أى مكان تختاره ، وذلك فى السنوات العشر الأولى التالية لتنفيذ المعاهدة وبعد مرور العشر سنوات يثار موضوع تحديد إمكانية القوات البريطانية ويعرض الأمر على عصبة الأمم إذا لم يستطع الطرفان الوصول إلى اتفاق .

ولذا ففكرة هندرسون (فى معاهدة هندرسون - محمد محمود باشا) هى تحديد إمكانية القوات البريطانية بمنطقة قريبة من القناة ، وبعيدة فى نفس الوقت عن القاهرة والإسكندرية أى بعيدة عن أنظار الشعب المصرى ، وبذلك انتهت الفكرة القديمة التى تمسكت بها بريطانيا مدة بأن أراضى مصر كلها حلقة فى سلسلة المواصلات البريطانية إلى الهند والشرق الأقصى .

وأكدت الفكرة الجديدة التى تقول بأن الغرض من بقاء القوات البريطانية فى مصر إنما هو حماية قناة السويس ، كما حددت أماكن هذه القوات لا كما تختار الحكومة البريطانية ، ولكن فى أماكن خاصة تتفق عليها الدولتان .

ولذلك نص فى مشروع هذه المعاهدة على ما يأتى : « لضمان حماية قناة السويس كوسيلة أساسية للمواصلات بين أجزاء

الإمبراطورية البريطانية ، يسمح جلالة ملك مصر لجلالة ملك إنجلترا بأن يضع في الأراضي المصرية في جهات اتفق عليها إلى شرقى خط ٣٢ شرقاً القوات التي يراها جلالة ملك بريطانيا لازمة لهذا الغرض ، ووجود هذه القوات لا يعنى احتلالاً ولا يمس حقوق مصر في السيادة ، .

ففي هذا المشروع (مشروع ١٣ أغسطس سنة ١٩٢٩) أكدت إنجلترا رسمياً أهمية قناة السويس لمواصلاتها الإمبراطورية ، وأعطت لنفسها حق الدفاع عنها ، ولذا قررت أن تعسكر جنودها في منطقة القناة .

ولقد أعلن مستر هندرسون في خطاب له في البرلمان الإنجليزى في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٩ أن هذه المفاوضات هي امتداد لمفاوضات سنة ١٩٢٧ ، واشترط مستر هندرسون أن يعرض ذلك المشروع على الشعب المصرى ووافق محمد محمود باشا على ذلك .

ثم جاءت وزارة الوفد إلى الحكم في أول يناير سنة ١٩٣٠ ، لتستمر في المفاوضات مع وزارة العمال ، وواصل النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء ، ومعه وزير خارجيته واصف غالى باشا إلى لندن في ٢٦ مارس سنة ١٩٣٠ في جو صفاء وود بين الحكومتين المصرية والبريطانية وبدأت المفاوضات في ٣١ مارس .

وتناقش الطرفان طويلاً في مسألة الدفاع عن قناة السويس واقترح الجانب المصرى وضع كل القوات البريطانية على الحافة الشرقية للقناة

في بور فؤاد أو القنطرة . ولم يقبل المفاوضون الإنجليز وعلى رأسهم هندرسون ذلك الاقتراح .

عندئذ وافق الجانب المصرى على تركيز القوات الإنجليزية بقرب الإسماعيلية ، وتقصير أجل بقائها هناك من خمسة وعشرين عاماً إلى عشرين عاماً ، ولقد استمرت المفاوضات إلى ٥ مايو ، وكاد يصل الطرفان إلى مشروع إتفاق ومعه ملحقات ، ولكن هذا المشروع فشل نهائياً بسبب الاختلاف على مسألة السودان .

اشترط مشروع هذه الإتفاقية إنشاء تحالف بين الطرفين ، تأكيداً لصداقتهما وتقاهمهما الودى وعلاقتهم الطيبة . وفيما يختص بموضوع القناة نصت المادة التاسعة من هذا المشروع على ما يلى : « نظراً لأن قناة السويس التى هى جزء لا يتجزأ من مصر ، هى طريق عالمية ، ووسيلة مهمة للواصلات بين الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية فإلى الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى مركز يستطيع فيه بموارده حماية وسلامة الملاحة فى القناة ، فإن جلالة ملك مصر يسمح لجلالة ملك بريطانيا بأن يضع قريباً من الإسماعيلية فى المنطقة المحددة بالمذكرة الملحقة قوات لا يزيد عددها عن العدد المتفق عليه ، وهدفها هو التعاون مع القوات المصرية فى حماية القناة . ولنفس الغرض ينقل مركز القوات الجوية الملكية البريطانية من أبو قير إلى بور فؤاد . ووجود هذه القوات لا يعنى احتلالاً

ولا يمس حقوق مصر في السيادة .

ومن المفهوم أنه في نهاية مدة العشرين سنة المبينة في مادة ١٤ ، إذا حدث خلاف بين الطرفين المتعاقدين على مسألة عدم لزوم بقاء القوات البريطانية ، لأن الجيش المصرى أصبح في حالة تمكنه بموارده من حماية حرية الملاحة في القناة ، فيعرض هذا الخلاف على عصبة الأمم ، ومع ذلك فبعد انتهاء عشر سنوات من تنفيذ المعاهدة يصبح أن تبدأ بموافقتهما المفاوضات لإجراء أى تعديل (في المعاهدة) .

يلاحظ في هذا المشروع أن إنجلترا اعترفت لأول مرة رسمياً بأن القناة جزء لا يتجزأ من مصر وقررت أنها طريق عالمية ، وأنها وسيلة مهمة للدواصل البريطانية بين أجزاء الإمبراطورية ، كما اعترفت بأن الجيش المصرى له الحق الأول في الدفاع عن القناة ، ولكن نظراً لحالته الراهنة فتتعاون معه القوات البريطانية ، وحددت أماكنها في الاسماعيلية ، وهذا بلا شك تقدم على مشروع سنة ١٩٢٨ من هذه الناحية .

ولقد انقطعت المفاوضات بين وزارة العمال ووزارة الوفد في ٥ مايو . وظلت العلاقة بين الدولتين علاقة الضعيف بالقوى . وكانت الحكومة البريطانية مستعدة لأن تعيد الكرة في استعمال القوة أو التظاهرة بالرغبة في استعمالها كلها لتحدى المصريون السياسة البريطانية ، وكان وجود جيش الاحتلال رمزاً لاستئلال المصريين وقمعهم لا ريب في ذلك ، فكانت العلاقات بين الفريقين بصفة عامة علاقة عدا ، والجو بينهما مسموماً .

لقد استخدمت بريطانيا القوة في مارس سنة ١٩١٩ لقمع الثورة ،
ولجأت إلى استخدام القوة والتهديد عقب مقتل السري ستاك في ١٩٢٤ ،
فأرسلت إلى مصر بقوات برية وبحرية جديدة وفرضت شروطاً عنيفة ،
وفي ٣٠ مايو سنة ١٩٢٧ أرسلت من مالطة إلى مصر ثلاث بواخر
حرية لتأييد رأى إنجلترا في مسائل خاصة بتنظيم الجيش المصري وبعد
ذلك بسنة تقريباً ضغطت إنجلترا على حكومة القاهرة . وجاءت خمس
سفن حرية بريطانية في ٣٠ إبريل سنة ١٩٢٨ لتأييد الانذار النهائي
للحكومة البريطانية ، ولما قامت بعض الاضطرابات في يوليو سنة ١٩٣٠
أرسلت إنجلترا سفناً حرية إلى الاسكندرية وبور سعيد والسويس .
ثم جاءت سنة ١٩٣٥ وأذن الله لذلك الجو أن يتغير .

٧ - موقف انجلترا ازاء القناة

من بعد ١٩٣٥

تغير الجو السياسى الذى اعتادته انجلترا طوال الخمسة عشر عاماً التى تلت الحرب الكبرى الاولى .

فالظروف الدولية لم تعد مواتية لإنجلترا كما كانت فى القديم ، وهددت انجلترا فى قوتها البحرية وفى مركزها فى البحر الابيض المتوسط . فظهرت قوة إيطاليا الموسولينية حين من الدهر جارفة ، وأيدتها ألمانيا المتطرية ، وقبعت روسيا فى دورها تنظم شئونها الداخلية وتتنظر الفرصة لتتال من الرأسمالية الأوربية .

وأخذت النظم الدولية التى كانت انجلترا قد ركنت إليها بعض الشيء فى الانهيار ، فعصبة الأمم لم يعد لها احترام كبير بعد أن نفضت الولايات المتحدة الأمريكية يديها منها ومن الأمور الأوربية ، ونمت قوة اليابان فى شرق آسيا ، وهددت تفوق انجلترا ونفوذها فى الصين وفى جنوب شرقى آسيا ، وأصبحت الهند فى ثورة دائمة على الحكم البريطانى مطالبة بالاستقلال . ونادت الشعوب المهضومة بحقها فى تقرير مصيرها وثابرت فى كفاحها ، فانهى إلى حد كبير عهد التهديد باستخدام القوة

بالنسبة لانجلترا ووجدت أن مصلحتها تقتضى النظر إلى مصالح الشعوب بجانب الإهتمام بالمصالح الانجليزية . وكانت إنجلترا قبل ذلك تنظر إلى مصالحها وحدها وتضعها فوق كل اعتبار .

وأهم العوامل التى كان لها الأثر الأكبر فى توجيه سياسة إنجلترا نحو مصر — موقف إيطاليا الفاشستية من أثيوبيا . فتبينت كل من إنجلترا ومصر ضرورة الوصول إلى تسوية الأمور المتنازع عليها بينهما ووضع علاقاتهما على أساس جديد .

أما من حيث مصر فلقد تركت الأزيمة الحبشية فيها أثراً بليغاً ، فلقد كانت ميول مصر وعواطفها إلى جانب الأحباش الذين كانوا يناضلون عن حريتهم . وكان على مصر أن تقرر موقفها فى هذا النزاع المحتوم بين جارتها ، فإيطاليا جارة لمصر من الناحية الغربية ، والحبشة جارتها من ناحية السودان ، والطريق التى تصل بين الجارتين تمر فى أراضى مصر ، وهى قناة السويس .

وجدت مصر نفسها فى مركز محفوف بالخطر ، من ناحية حدودها الغربية ومن ناحية الحدود الجنوبية الشرقية . وزاد الموقف ارتباكاً أن موقف مصر بالنسبة لبريطانيا كان غير واضح وغير محدود .

فالموقف الدولى الجديد ، والخطر المحدق بمحدود مصر ، بعث موضوع العلاقات المصرية البريطانية من جديد . وازداد الخطر على

مصر وعلى مركز بريطانيا في الشرق الأدنى ، بعد تفكير عصبة الأمم في فرض عقوبات على إيطاليا .

ولم تقف إيطاليا جامدة ، ولم تقتصر مساعيها على تنمية نفوذها وقوتها في أثيوبيا ، بل طلبت أن يعمل لمركزها في البحر الأبيض ومصر وقناة السويس حساب آخر . فلقد عززت حامياتها في ليبيا ، ووصل الأسطول الإيطالي في القوة إلى مركز مساو للأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط ، إذ وصلت حمولته إلى ٢٥ ٪ من مجموع حمولة الأسطول البريطاني كله . وكان الأسطول الإيطالي أحدث في نشأته ، تعززه قوة جوية تجعل مركز الأسطول البريطاني وقواعده في مالطة والإسكندرية والقناة في خطر شديد ، إذا قامت حرب بين بريطانيا . وكانت هذه الحرب محتملة الوقوع . لا سيما وأن إنجلترا لم تكن واثقة تماماً من تأييد فرنسا البحري لها إذا تخرجت الأمور بينها وبين إيطاليا ، وتخشى في نفس الوقت أن تنتهز اليابان هذه الفرصة لتسطو على ممتلكات إنجلترا في الشرق الأقصى ، وتقضى على ما لانجلترا من نفوذ في هذا الجزء من العالم .

ولقد كان اتجاه الرأي العام المصري مساعداً للحكومة المصرية في مسيرتها لسياسة إنجلترا بأزاء إيطاليا . فلقد كانت مصر الدولة الوحيدة خارج عصبة الأمم التي عملت على تنفيذ العقوبات التي فرضتها عصبة الأمم على إيطاليا ، وكان احتجاج إيطاليا الشديد على تنفيذ

مصر لهذه العقوبات من العوامل التي عادت فأشعرت مصر بالخطأ الإيطالي الدائم ، لاسيما وأنه اقترح في بعض الأوساط السياسية أن يكون ضمن العقوبات إغلاق قناة السويس في وجه السفن والمعدات الإيطالية وكان الإيطاليون مستعدين لاعتداء جديد إذا تحددت دولة مركز الجديد في شرق أفريقية ، ورأى المصريون أنه أفضل لهم أن يصلوا إلى اتفاق مع إنجلترا ، هذا خير لهم من الوقوع فريسة لغزو إيطالي محتمل الوقوع .

وشعرت إنجلترا من ناحيتها ، بالرغم من وجود قوات الاحتلال بضعف مركزها في مصر ، فركزها كان قائم على القوة والتهديد باستخدام القوة ، هذا في الوقت الذي كانت فيه إنجلترا ، برلمانها وصحفي وحكومتها في الظاهر ، تعيب على إيطاليا الالتجاء إلى القوة كوسيلة لفض منازعاتها مع الشعوب الأخرى ولقمع حرياتهما .

وكانت الدعاية الإيطالية ضد إنجلترا قائمة على قدم وساق تحض مصر على التقرب من إيطاليا ، وتندد بسياسة إنجلترا الإمبراطورية مصر وتطالب بنصيب في إدارة شركة قناة السويس ، وظنت إيطاليا ، مطلبها الأخير ليس فيه إساءة للمصريين وإنما فيه كيد لفرنسا التي كان نصيب الأسد في إدارة شركة القناة ، فكانت إيطاليا تخشى دائماً أن تغلب القناة في وجه سفنها وفي طريق مواصلاتها الإمبراطورية ، وكما طالبت إيطاليا بنصيب في إدارة القناة طالبت بتخفيض الرسوم التي تفرضها

الشركة على حركة المرور في القناة .

فالأزمة البريطانية الإيطالية في خريف سنة ١٩٣٥ وجدت إنجلترا لاتزال لها الحرية المطلقة في استخدام الموانئ والأراضي المصرية بما فيها القناة بحرياً وبرياً وجوياً . ولقد أثار تركيز القوات البريطانية في مصر لدى المصريين الفكرة القائلة بأن إنجلترا قد حولت مصر إلى معسكر معاد لإيطاليا . وهذا من شأنه أن يبرر اعتداء الدول المعادية للانجليز على مصر .

ولذا فالأزمة الإيطالية الحبشية أثارت مسألة إعادة النظر في العلاقات المصرية البريطانية التي ظلت متوترة منذ صيف سنة ١٨٨٢ ، ووجدت إنجلترا نفسها مضطرة إلى تعزيز قواتها في مصر لمقاومة الخطر الإيطالي . ولكن الشعب المصري لم يكن يرضى عن ذلك الموقف الجديد ، فالسكوت على ذلك قد يؤدي إلى سابقة خطيرة يستند عليها الانجليز في المستقبل . وقد يؤدي في نفس الوقت إلى اعتداء إيطاليا على مصر ، ثم فيه ما فيه من استهتار الإنجليز بالشعور الوطني في البلاد ، لا سيما بعد أن أعلن مستر رنسيان في خطاب انتخابي له في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥ أن إنجلترا قد جعلت قاعدتها البحرية المهمة في الاسكندرية بدلا من مالطة .

ظهرت الحاجة في مصر لتوضيح علاقة البلاد بإنجلترا ، ظهر في الخطاب التي ألقاها زعماء الأحزاب المختلفة في البلاد أن مركز إنجلترا

فى مصر سيجلب على مصر ضررا وبلا ، دون أن تستفيد منه البلاد أقل فائدة . وطالب الرأى العام بتكوين جبهة متحدة . واضطرت انجلترا فى الواقع أن تبين سياستها نحو مصر . وفى خطابين ألقاهما سير سميول هور فى ٩ نوفمبر ، ٥ ديسمبر سنة ١٩٣٥ أعلن فيها أن انجلترا لم تسع إلى استغلال الموقف الحاضر لخدمة مصالحها على حساب المصالح المصرية ، وأن بريطانيا تعطف على الامانى المصرية . ولكن الخطابين لم يجدا قبولاً فى مصر لموقف الحكومة الانجليزية بأزاء دستور سنة ١٩٢٣ بأنه « غير مناسب » ، ولإعلان سميول هور بأن الوقت لم يحن بعد للمفاوضات الفعلية لتحديد علاقة انجلترا بمصر .

فثارت فى مصر احتجاجات عنيفة ، لأن معنى التصريح البريطانى أولا أن انجلترا لا زالت مصر على التدخل فى الأمور الداخلية للبلاد ؛ وثانياً أن مسألة حيوية لمصر ، هى مسألة حياة أو موت لها تضعها انجلترا فى المرتبة الثانية بعد العلاقات الإيطالية الإنجليزية . وتذكر المصريون رفض انجلترا لمناقشة المسألة المصرية مع وفد مصر فى سنة ١٩١٩ .

ولكن فى سنة ١٩١٩ كان مركز انجلترا أقوى بكثير من مركزها فى سنة ١٩٣٥ . فلقد خرجت انجلترا من الحرب العالمية الأولى منتصرة تعنو لها الوجوه ، بينما فى سنة ١٩٣٥ كانت انجلترا مهددة بحرب لا تعرف

منهاها ولا تدري ماذا يكون مصيرها .

وعلى أى حال ، دعا موقف انجلترا هذا إلى تآلف الجهود في مصر
وتكوين جبهة متحدة . عند ذلك بينت انجلترا أنها لا تمنع في رجوع
دستور سنة ١٩٢٣ ، وعاد الدستور ، وجاءت حكومة الوفد .
وكانت الحكومة المصرية الجديدة تريد أن تقيد بريطانيا بما وصل إليه
اتفاق سنة ١٩٣٠ ، وخاصة الاتفاق على المسائل الحربية ، وأن تتركز
المفاوضات الجديدة في المسائل التي اختلفت عليها ، وهي مسألة
السودان .

ولكن مستر إيدن وزير الخارجية البريطانية الجديد عند ما وافق
على فتح باب المفاوضات ، صمم على أن تنظر المسائل الحربية من
جديد ، هذه المسائل التي كان قد اتفق عليها فيما قبل ، فجاء هذا التصميم
من الجانب الإنجليزي صدمة جديدة لمصر ، ولقد برر الإنجليز ذلك
الموقف على أساس أن مشروع سنة ١٩٣٠ لم تصبح له قوة المعاهدة .
وأن الموقف الاستراتيجي العالمي في سنة ١٩٣٦ قد تغير كثيراً عن
الموقف في سنة ١٩٣٠ ، فالإيطاليون يهددون ليبيا والقناة ، بعد أن
عززت قواتهم في غرب مصر في ليبيا ، وعلى جانب حدود مصر
والسودان من ناحية الحبشة . وهذا الموقف الجديد لم يكن يتكهن به
الساسة الإنجليز أو المصريون سنة ١٩٣٠ ، حين كانوا يتفاوضون .
ولكن الصدمة الكبرى كانت عند ما قدم سير مايلز لامبسون

المعتمد البريطاني في مصر للمصريين موافقة مسترايدن على فتح باب المفاوضات ، إذ بين المعتمد البريطاني بأنه إذا فشلت المفاوضات هذه المرة ، فإن بريطانيا ستعيد النظر في موقفها بأزاء مصر . فكان هذا تهديداً صريحاً لمصر . وكان المصريون يؤملون قبل وصول ذلك التهديد بأنه إذا فرض ولم تصل المفاوضات إلى نتيجة ، فتعود الحالة في مصر إلى ما كانت عليه قبل الدخول في المفاوضات .

وعلى أى حال وافق الطرفان على بدء المفاوضات ، وضمت إنجلترا إلى جانب معتمدها في مصر الثنيين من كبار رجال الحرب والبحرية والطيران وتكون الجانب المصرى من زعماء مصر جميعاً في ذلك الوقت . وبدأت المفاوضات في جو من التشاؤم ، ولكنها نجحت ، والفضل في ذلك يرجع إلى موسولينى بطريقة غير مباشرة ، فلقد زادت مطامع إيطاليا ، وزادت مطالبتها في البحر الأبيض المتوسط ، فأثارت مخاوف المصريين والإنجليز معاً .

وعند ما افتتحت المفاوضات بدىء بالأمور الحربية (وهى التى تهمننا فى هذه الدراسة لاتصالها بمسألة قناة السويس ،) واصطدمت آراء الفريقين ، ولم يستطيعا الإتفاق فى أول الأمر ، ورأى سير مايلز أن يسافر إلى لندن ليتصل بحكومته . وأنقذت هذه الزيارة الموقف حينذاك . ولقد بينت صحيفة « التيمز » فى ١٠ يونيو (بتلخيص) « أن السبب فى تعثر المفاوضات هو غلو الهيئات العسكرية البريطانية فى طلباتها ،

وأوضحت منصف الفكرة التي تقول بضرورة تنفيذ مطالب إنجلترا كاملة ، مائة في المائة ، ضد عواطف وشعور شعب ناهض اعترفت إنجلترا ذاتها باستقلاله منذ أربعة عشر عاماً ، وأن أية معاهدة إذا أريد نجاحها فيجب أن تعمل هذه المعاهدة على احترام شعور المصريين القومي ، ويجب أن تقوم حرية التفاوض ، لا على قوة الإملاء ، وإنما على الثقة المتبادلة بين الجانبين . فلا تكون عن طريق إرغام الجانب الآخر المفاوض على التنازل عن حقوقه ، وأن على الحكومة البريطانية ألا تصفى لآراء العسكريين فحسب ، ولكنها تشاورهم وتراعى في نفس الوقت أهمية المسائل السياسية بجانب الإعتبارات الحرية .

ولقد أيد هذا المقال وجهة النظر التي نادى بها سير مايلز في لندن ، وحين عاد ، بدأت المفاوضات من جديد ، وفي ٢٢ يوليو وصل الفريقان إلى اتفاق على المسائل العسكرية .

ويرى الكتاب الإنجليز أن سبب غلو الهيئات العسكرية البريطانية في مطالبتها هو تغير وسائل الحرب ومداتها ، فقاعدة مالطة أصبحت محاطة بقوات إيطاليا في صقلية وليبيا ، وكذلك ضؤل مركز قاعدة عدن بجانب إفريقيا الشرقية الإيطالية . فكان أن احتج العسكريون الإنجليز على قصر مركز القوات التي كانت مشرقة على كل مصر ، على قناة السويس فقط .

فكان إذن على الجانبين المتفاوضين الإنجليز والمصريين ، كما وجدنا ،

الاحتفاظ بقوات الانجليز في مصر في جهة غير ظاهرة ، حتى لا يقف وجودها في سبيل نمو علاقات طيبة بين مصر وانجلترا . واتفق على أن يزداد عدد هذه القوات قليلاً عن مشروع سنة ١٩٣٠ . (وكان الخبراء العسكريون الانجليز يريدون أن يزيد عددها كثيراً) . كذلك ووفق على أن تقتصر هذه القوات في وقت السلم على قناة السويس فقط ، وجعلت مدة بقائها في القناة عشرين عاماً من وقت تنفيذ المعاهدة . وعند انتهاء هذه المدة تستطيع الحكومة المصرية أن تطلب إعادة النظر في أمر بقاء القوات الإنجليزية في القناة .

ونظير المسائل الثلاث السابقة ، وافق الجانب المصري على ثلاث مسائل ، وهي : أن يكون جو مصر كلها مباحاً للقوات البريطانية الجوية ، ويسمح للبحرية البريطانية باستخدام ميناء الاسكندرية لمدة ثمان سنوات من إتمام المعاهدة . والمسألة الثالثة السماح للجيش البريطاني في وقت الحرب باستخدام كل أراضي مصر ومياهها ومطاراتها ، وسهلت للقوات البريطانية كل وسائل التنقل بين أجزاء مصر . وذلك بأن أخذت الحكومة المصرية على عاتقها إنشاء وإصلاح طرق وسكك حديدية معينة . كذلك أعطيت الحكومة البريطانية الحق في إرسال بعثات من الضباط الانجليز (في ثياب مدنية) إلى الصحراء الغربية لمسائل تكتيكية . ولقد وضع مستر إيدن في حديث له في مجلس العموم البريطاني (٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦) السبب الذي دعا حكومة انجلترا إلى التنازل

عن احتلال القاهرة والاسكندرية والاقتصار على منطقة قناة السويس ،
هو أن قوات انجلترا أصبحت ميكانيكية .

وبعد إنشاء الطرق المعبدة والسكك الحديدية التي تنص عليها
المعاهدة ، تستطيع الفرق الانجليزية الانتقال خلال مصر بسرعة
عظيمة وقت الخطر ، ثم من ناحية ثانية سمح لقوات انجلترا الجوية
بالطيران في جو مصر جميعه ، وقت الحاجة ، وأعطيت لقوات مصر
الجوية نفس الحقوق في بريطانيا .

ولقد ظنت انجلترا أن رحيل الجنود الانجليز من القاهرة
والاسكندرية بعد مرور ثمانى سنوات إلى منطقة القناة فيه إرضاء
لشعور المصريين الذين كان يسوؤهم دائماً أن يروا القوات البريطانية
معسكرة في عاصمتهم ، وفي أكبر ميناء لهم ، وخيل لبعض الكتاب
الإنجليز أن وجود قوات أجنبية في بلاد دولة أخرى لا يحمل معه
فكرة عدم وجود المساواة بين الفريقين ، لا سيما بعد اتفاق الطرفين
على ذلك .

وهذا هو نص الجزء الخاص بقناة السويس من هذه المعاهدة :
مادة ٨ : د بما أن قناة السويس التي هي جزء لا يتجزأ من مصر ،
هي طريق عالمية للمواصلات ، ووسيلة للمواصلات أساسية بين
الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية ، فإنه إلى حين الوقت الذي
يتفق فيه الطرفان المتعاقدان الساميان على أن الجيش المصرى أصبح

في موقف يستطيع فيه بموارده حماية القناة ، وحرية الملاحة فيها ،
يخول صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة ملك إنجلترا وضع
قوانه في الأراضي المصرية في منطقة القناة ، في المنطقة التي يحددها
الملحق لهذه المعاهدة ، وذلك لضمان التعاون مع القوات المصرية في
الدفاع عن القناة . ووجود هذه القوات لا يكون له معنى الاحتلال
ولا المساس بحقوق السيادة في مصر .

« ومن المفهوم أنه في نهاية العشرين سنة المذكورة في مادة ١٦
إذا لم يتفق الطرفان المتعاقدان الساميان على أن وجود القوات
البريطانية أصبح غير ضروري ، نظراً لأن الجيش المصري أصبح قادراً
بموارده على حماية القناة وسلامة الملاحة فيها ، فإن هذا النزاع يعرض
على مجلس عصبة الأمم ليحكم فيه على أساس مواد ميثاق العصبة المعمول
به في ذلك الوقت الذي أمضيت فيه هذه المعاهدة ، أو على شخص أو
هيئة ليحكم فيه بالطريق التي يرضيها الطرفان المتعاقدان الساميان . »

وملحق مادة ٨ حدد عدد القوات البريطانية المسلحة البرية
بعشرة آلاف جندي وجوية بأربعمائة . وهذه الأعداد لا يدخل فيها
المدنيون والكتاب والصناع والعمال .

وحددت الأماكن التي توضع فيها القوات البرية والجوية وما
يلزمها من ثكنات وتسهيلات الإقامة ، وتقوم الحكومة المصرية
بإنشاء الثكنات وتسهيلات الإقامة على حسابها الخاص ، كما تقوم

بانشاء وصيانة الطرق من الاسماعيلية إلى الاسكندرية ، ومن الاسماعيلية إلى القاهرة ، ومن بور سعيد إلى الاسماعيلية إلى السويس ؛ ومن البحيرة المرة إلى طريق السويس - القاهرة . ووضعت مقاييس خاصة لهذه الطرق وشروط معينة لتشييدها . كما وافقت الحكومة على تسهيل النقل بالسكة الحديدية لمقابلة الظروف الجديدة وحاجات جيش حديث . كما وافقت على عمل تسهيلات في بور سعيد والسويس للدواد والعتاد الحربي اللازم للقوات البريطانية .

وأما المادة ١٦ فتتص على ما يأتي « وفي أى وقت بعد انتهاء عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة ، يدخل الطرفان الساميان المتعاقدان ، بناء على طلب أحدهما ، في مفاوضات لإعادة النظر في شروط الاتفاق ، وفي حالة عدم استطاعتهما الوصول إلى اتفاق ، يعرض الخلاف على مجلس عصبة الأمم للقرار فيه ، طبقاً لأحكام الميثاق الموجودة وقت إمضاء هذه المعاهدة أو إلى شخص أو هيئة يرتضيها الطرفان ، ومن المفهوم أن أى تعديل لهذه المعاهدة يجب أن ينص على استمرار التحالف بين الطرفين الساميين المتعاقدين .

« ويجوز للطرفين بالاتفاق بينهما ، الدخول في مفاوضات عقب انتهاء عشر سنوات من هذه المعاهدة للنظر في تعديلها ، ، وأمضيت المعاهدة نهائياً في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ في دار وزارة الخارجية بلندن . أمضى هذه المعاهدة من الجانب المصرى : مصطفى النحاس ، أحمد

ماهر ، محمد محمود ، إسماعيل صدقي ، عبد الفتاح يحيى ، واصف غالى
عثمان محرم ، النقراشى ، حمدى سيف النصر ، حلى عيسى ، حافظ عفيف
ومن الجانب الإنجليزى أنتونى إيدن ، رمزى مكندونالد ، جود
سيمون ، هاليفاكس ، ميلز لامبسون .

وقبل إمضاء هذه المعاهدة ، كانت إيطاليا قد طالبت بمطالب فى القناة
سبق أن ذكرت وهى ، أن تمثل إيطاليا فى شركة القناة ، وأن تخفض
الرسوم ، وأن تؤكد دولية القناة . ولقد دخلت إنجلترا وإيطاليا فى
مفاوضات لتسوية المسائل المعلقة بينهما والخاصة بالقناة ، ووصل
الفريقان إلى اتفاق فى إبريل سنة ١٩٣٨ ؛ سجل فيه احترام الطرفين
لمعاهدة سنة ١٨٨٨ ، واعترفت الحكومة المصرية بهذه الاتفاقية بين
الدولتين ، لأن هذه الاتفاقية تقوى مركز الدولة المصرية فى القناة .

٨ - إنجلترا والقناة

من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥٠

حين قامت الحرب الكبرى العالمية الثانية . اصطلت قناة السويس بنارها . فبالرغم من أن البحر الأبيض المتوسط قد أغلق إلى حد كبير أمام الملاحة بين الشرق والغرب ، وخاصة بعد استيلاء الألمان على بلاد اليونان وكريت وإمطارهم مالطة ناراً حامية . إلا أن القناة رأت جانباً لا يستهان به من نشاط الألمان وحلفائهم . فهاجمها الألمان بطائراتهم ، وحاولوا إلتلافها وتعطيل الملاحة فيها ، ولكنها لم تتعرض لغزو برى أو بحرى كما تعرضت أجزاء مصر الغربية .

وعلى العموم فلقد انتهزت مصر هذه الفرصة لإثبات حقها عملياً فى القناة ، فقامت بحماية القناة ، والدفاع عنها من الناحية الجوية . ولكن إنجلترا استفادت استفادة تامة من حلفائها بطبيعة الحال من معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وخاصة بعد أن اعتدى جويّاً على القناة فأغلقت القناة أمام سفن الأعداء ، وحين سقطت باريس فى يد الألمان أشرف الإنجليز على إدارة القناة .

بعد انتهاء الحرب الكبرى الثانية وجدت الحكومة المصرية أن المعاهدات استنفذت أغراضها ، وأنها أصبحت حجر عثرة فى سبيل

السلام العالمى ، فيثاق الأمم المتحدة كما رأت فيه ضمان لحقوق الشعوب المحبة للسلام ، وإن وجود القوات البريطانية فى منطقة القناة أصبح لا مبرر له ، فصرى التى دافعت عن القناة من الناحية الجوية إبان حرب سنة ١١٣٩ ، وكذلك أخذ الجيش المصرى فى النمو والقوة والتسلح ، وقطع فى سبيل ذلك شوطاً بعيداً ، وإن وجود قوات أجنبية فى بلاد دولة صديقة بغير رضاها أصبح لا يتفق أبداً والمواثيق التى أعلنها الحلفاء فى أكثر من موقف أثناء الحرب وبعدها .

لقد اعترفت الحكومة البريطانية نفسها بضرورة تحديد العلاقات بين الدولتين من جديد وفقاً للظروف العالمية التى جدت بعد الحرب ، وخاصة بعد أن قررت الحكومة البريطانية نفسها بأن مصر أبلت فى هذه الحرب ضد أعداء انجلترا بلاء حسناً ، إذ تعرضت أراضيها للغزو ووضعت جميع مرافقها ومواصلاتها وموانئها لخدمة الحلفاء وقضيتهم . قبلت الحكومة البريطانية بالفعل مبدأ الجلاء عن مصر وقناة السويس ، على أساس وضع العلاقات بين البلدين على أساس مطمئن للجانبين فى وقت السلم وحين نشوب الحرب أو التهديد بها . وظهرت فكرة الدفاع المشترك .

وفى مشروع صدق باشا ومستر أرنست ييفن وزير الخارجية فى وزارة العمال وافقت بريطانيا على أن يتم الجلاء عن القاهرة والإسكندرية فى سنة ١٩٤٧ ، وعن قناة السويس فى سنة ١٩٤٩ . ولقد قسمت الحكومة

البريطانية مشروع الاتفاق إلى أجزاء ، الجزء الأول خاص بمعاهدة جديدة ، والثاني خاص بالجلاء ، والثالث بالسودان ، ونبه مستريغن إلى أنه يصبح التصديق على الجزأين الأوليين في حالة حدوث خلاف على الجزء الثالث وعندئذ يترك هذا الجزء للوصول إلى تسوية له فيما بعد عن طريق المفاوضات أيضاً . ولكن العقبة الكأداء في نجاح المشروع لم تكن مسألة السودان لحسب ، بل أيضاً مسألة الدفاع المشترك أو التعاون المتبادل التي اقترحتها الجانب الانجليزي وأصر عليها .

لقد وجدت الحكومة المصرية في ذلك الدفاع المشترك بالشكل الذي رسمته بريطانيا إرتباطاً لا تجنى منه مصر سوى الغرم ، ويقيد بها بقيود تضيق من حريتها . لقد بنت مصر آمالاً كبيرة على وزارة العمال ، وظنت أن بلاءها في الحرب العالمية الماضية ، وما تفوه به ساسة إنجلترا وزعمائها لإبان الحرب من ضرورة احترام حقوق الشعوب في الحياة والكرامة والاستقلال ، وما نعوه على الألمان من احتلال لبلاد الشعوب التي لا تدانهم في القوة وهضم لحقوقها . كل هذا أوجد عند كثير من المصريين بعض الأمل في انتهاء عهد القوة والارهاب والتهديد ، وبزوغ فجر عهد جديد فيه تحترم حقوق الشعوب الصغيرة ومطالبها العادلة ، وخاصة بعد إنشاء نظام هيئة الأمم المتحدة ووضع ميثاق له يتفق وكرامة الأمم .

ولكن هذه الآمال لم تعمر طويلاً بعد الحرب ، فلقد أظهرت

وزارة العال ، بالرغم من أنها اعترفت بتضحيات مصر الجسيمة وبلانها خلال الحرب الماضية ، وبالرغم من أنها وافقت على فتح باب المفاوضات للنظر في تعديل المعاهدة ، وبالرغم من أنها أعلنت أنها لا تتمسك باستعمارية القرن التاسع عشر ، إلا أنها لم تنحرف كثيراً عن سياسة انجلترا الخارجية التقليدية في القرن العشرين فيما يخص بالشرق الأدنى وقناة السويس والبحر المتوسط . وإن كانت تجارب الحرب الماضية قد أثبتت بشكل لا يقبل الشك أن قيمة قناة السويس كحلقة مهمة في المواصلات بين الشرق والغرب ، وخاصة بريطانيا وإمبراطوريتها الشرقية ، تكاد تنعدم إذا كانت الدولة التي تسيطر على وسط البحر المتوسط ، في إيطاليا أو تونس دولة معادية لانجلترا ، لا سيما بعد التطور الهائل الذي شمل وسائل الحرب وخططها ، وبعد أن أصبحت القوة الجوية أساسية في الحرب لا تقل أهمية عن القوة البرية أو البحرية ، فأهمية قناة السويس قائمة على أن البحر المتوسط مفتوح للمواصلات العالمية . فإذا استطاعت دولة أو دول تطل على البحر المتوسط معادية لانجلترا إغلاقه تضاءلت قيمة قناة السويس ، وتضاءلت الحركة خلالها ، ومع ذلك فأية قوة جوية معادية من قاعدة قريبة تستطيع تعطيل حركة المرور في القناة وعرقلة الملاحة فيها إذا أرادت .

فهت حكومة العال في أول الأمر هذه الحقيقة ، فهي إذن لم تتمسك ببقاء جنود الاحتلال في قناة السويس ، ولم يكن هناك من

داع جوهري بعد أن تضاءلت المصالح والإمبراطورية الإنجليزية الشرقية باستقلال الهند والباكستان ودخولها ضمن نظام الكومنولث . ولكن إرنست بيغن أراد نظير عدم تمسكه ببقاء الاحتلال أن يربط مصر بتحالف أو تعاون مشترك في وقى السلم والحرب بخدم سياسة إنجلترا العامة في الشرق الأدنى أو الأوسط ، (كما أصبح يطلق عليه) ، فينص مشروع صدقي باشا - مستر بيغن في المادة ٢ على : أن الطرفين المتعاقدين الساميين متفقان على أنه في حالة اعتداء مسلح على مصر أو في حالة دخول المملكة المتحدة في حرب نتيجة لاعتداء مسلح على بلاد جارة (ملاسقة) لمصر ، يتخذان متعاونين ومتشاورين ، الإجراءات التي يريانها لازمة ، إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير الضرورية لإعادة السلام . وتنص مادة ٣ على أنه : لضمان التعاون المتبادل والمساعدة بين الطرفين المتعاقدين الساميين ، ولإيجاد التنسيق في الإجراءات التي تتخذ للدفاع المتبادل ، يتفق الطرفان المتعاقدان على إنشاء لجنة للدفاع مشتركة تتكون من الهيئات الحربية للدولتين يساعدها من ترى الدولتان تعيينه ، واللجنة استشارية ، وظيفتها . . دراسة مشاكل الدفاع المتبادل للطرفين . . . في البر والبحر والجو . وخاصة ما يستلزمه ذلك التعاون والخطوات اللازمة لقوى الطرفين . . . المسلحة لمقاومة الاعتداء بنجاح . . .

فكان إنجلترا في هذا المشروع استعاضت عن احتلال قناة السويس

والدفاع عنها برأى جديد هو التعاون المشترك . وهذا بلا ريب تطور في وجهة النظر الإنجليزية ، تطور يخدم انجلترا أولا يقنع مصر . وإن كانت هذه الفكرة الجديدة لم تستمر طويلا ، إذ كما سنجد . عادت بريطانيا في سنة ١٩٥٠ تؤكد مرة أخرى قيمة قناة الاستراتيجية وأهميتها للملاحة الدولية . ولم يكن الرأى العام المصرى بمستعد أن يقبل هذا الرأى أو أن يستبدل بالدفاع المشترك كما أرادته انجلترا الجلاء عن القناة .

فهذا كان من أسباب فشل مشروع صدق - ييغن ، وفشل المفاوضات التى تلتها بل وقطعها . فأعلن رئيس الحكومة النقراشى فى أواخر يناير سنة ١٩٤٧ أن معاهدة سنة ١٩٣٦ « غير قائمة » وأعلن مستر ييغن من جانبه فى مجلس العموم تمسكه بأحكام معاهدة سنة ١٩٣٦ . واشتدت الأزيمة من جديد . وأصبح لا معدى للحكومة المصرية ، كما رأت من التقدم بشكواها إلى مجلس الأمن ، وهو الهيئة الدولية القائمة المعترف بها .

لذلك لم تجد الحكومة المصرية بدأ من أن تتقدم فعلا فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٤٧ بشكوى إلى مجلس الأمن ، معلنة أن وجود قوات أجنبية فى وقت السلم فى الأراضى المصرية التى اشتركت فى هيئة الأمم المتحدة ، وبغير رضا المصريين ، فيه استهتار بوجودها كدولة مستقلة وفيه اعتداء على كرامتها ، وجرح لشعورها ، وتناقض صريح مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة وقرارها الذى صدر فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٦ . بل إن وجود

الجنود الإنجليز في القناة ومنطقتها يحمل في طياته خطراً كبيراً على السلام العالمى ، ويتعارض مع نمو مصر كدولة مستقلة . ووجود هؤلاء المحتلين لم يجعل المفاوضات حرة في الماضى ، ولن يجعلها حرة في المستقبل . وأعلنت الحكومة المصرية أن معاهدة سنة ١٩٣٦ لم تعد تربط مصر ، لتعارضها مع ميثاق أعم وأوسع هو ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، ولذلك تطالب مصر بالجلء التام للقوات البريطانية عن مصر وعن السودان أيضاً .

وذهب التفراشئ رئيس الحكومة المصرية ، إذ ذاك ، إلى ليك سكس ، وفي خطاب طويل وصف العلاقات المصرية الانجليزية من بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وبعد أن أعلن ثقته التامة في عدالة ميثاق هيئة الأمم والمبادئ التى تضمنها ميثاق الأطلنطى ، أبان أن مسألة النزاع بين مصر وبريطانيا لم تعد مسألة محلية تمس دولتين فحسب ، بل هى مسألة ذات خطر كبير تمس السلام في كل الشرق الأوسط . وأن مصر قد تريت وطال تريتها ؛ انتظرت إلى انتهاء الحرب العالمية الأخيرة لتناقش بريطانيا في أمر علاقتهما ، والرأى العام المصرى يجمع على جلء الانجليز عن كل المناطق التى يحتلوها ، ولهذا لم تجد الحكومة المصرية بداً من أن تتقدم بمطالب الشعب المصرى إلى الحكومة الانجليزية مبينة أن معاهدة سنة ١٩٣٦ قد عقدت في ظروف دولية خاصة تختلف تماماً عن الظروف الحاضرة ، وأن موادها

وضعت لمعالجة مسائل خاصة مؤقتة . ولكن انجلترا أصرت في أول الأمر على بقاء قواعد الحرية في مصر ، ولكنها عادت فأعلنت « أن سياستها هي تأكيد روابط التحالف بينها وبين مصر كدولتين متساويتين لهما مصالح مشتركة ... وأن حكومة المملكة المتحدة تقترح على ذلك سحب كل قواتها البحرية والجوية من الأراضي المصرية ، وأن تسوى بالمفاوضات مراحل وتاريخ ذلك الجلاء والتنظيمات التي من شأنها تسهيل التعاون بين الدولتين في حالة الحرب أو التهديد بالحرب . »

فكانت الحكومة البريطانية ، كما قال رئيس الحكومة المصرية في ليك سكس ، قد جعلت الجلاء عن مصر مشروطاً ، وقدمت على هذا الأساس مشروعاً لمعاهدة تحالف ومشروعاً لمعاهدة حرية يشتملان تقريباً على الشروط الحرية البغيضة التي كانت تنطوي عليها معاهدة سنة ١٩٣٦ . وتبع هذا اقتراحات من كل من الجانبين ، إلى أن سافر صدقي باشا إلى لندن ليتصل بمستر بيغن وزير الخارجية البريطانية ، ووصل الطرفان إلى مشروع لاتفاق ، ظهر فيه فيما بعد اختلاف وجهات النظر ، وذلك بعد أن رجع صدقي باشا إلى مصر .

ولم يستطع الطرفان - المصري والانجليزي كما نص خطاب رئيس الحكومة المصرية - الوصول إلى نتيجة حاسمة فيما اختلفا عليه ،

ولذا لم يبق أمام مصر إلا أن تتقدم لمجلس الأمن ،
تطلب إنصافها ، بأن يحكم هذا المجلس بجلاء الإنجليز مباشرة عن مصر ،
عن قناة السويس والسودان بغير شروط . فمعاهدة سنة ١٩٣٦ لم تقم
في جو من الحرية يكفل للجانب المصرى حقوقه ، فلقد عقدت وجنود
الاحتلال قائمون في مصر ، عقدت تحت التهديد ، بأنه إذا لم تسفر
المفاوضات عن نتيجة فستتخذ إنجلترا لنفسها موقفاً جديداً .

وبعد ذلك فهذه المعاهدة متعارضة مع المعاهدة الدولية التي عقدت
في سنة ١٨٨٨ الخاصة بقناة السويس والتي نصت على أن القناة مفتوحة
لكل السفن وقي السلم والحرب ، وأن الدفاع عنها موكول للحكومة
المصرية . فبريطانيا قد نقضت هذه المعاهدة الدولية إذ أعطت لنفسها
في معاهدة ١٩٣٦ من الناحية الفعلية حماية القناة .

وبعد ذلك فمعاهدة ١٩٣٦ متناقضة مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة ،
فهى تنص على تحالف أبدي ، في الوقت الذى ليست فيه لبريطانيا
حدود مع مصر ولا روابط مشتركة ، فكل ما تريده بريطانيا هو أن
تربط مصر بعجلة الاستعمار البريطانى ، وهذا في ذاته يخالف كل المخالفة
مبدأ المساواة الذى ينص عليه ميثاق الأمم المتحدة ، فالميثاق قد نص على
احترام مبدأ المساواة في حقوق السيادة لكل الشعوب المشتركة في هيئة
الأمم ، ولذا فلن تستطيع مصر أبداً قبول وجود قوات أجنبية في
بلادها بغير رضاها ، وخاصة في وقت يسود فيه السلم ، وأن مصر التي

قبلت الدخول في نظام فيه التعاون الجماعي لمستعدة لتحمل نصيبها من المسؤولية .

كانت هذه حجج الجانب المصري . وأما الجانب البريطاني الذي كان يمثله في مجلس الأمن سير الكسندر كادوجان ، فلقد ذكر أن المعاهدة موجودة ولم تفتته بعد ، ولذا فقامت إنجلترا باقية في قناة السويس . وأن الحكومة البريطانية قد وافقت في مشروع صدقي — يفن على أن يتم الجلاء عن مصر وقناة السويس في أول سبتمبر سنة ١٩٤٩ ، وأن الإنجليز قد نفذوا ما وعدوا به إذ انسحبوا من القاهرة والإسكندرية في ٣١ مارس سنة ١٩٤٧ ، ولكن المشروع الذي ووفق عليه في أول أكتوبر سنة ١٩٤٦ رفضته مصر ، ولو أن مصر وافقت على بروتوكول الجلاء ومعاهدة التعاون المتبادل لتم جلاء القوات الإنجليزية في الموعد المضروب ، ولكن المشروع كله رفض لعدم الاتفاق على مسألة السودان . ولذا فالنسبة لمسألة الجلاء عن القناة ليس لمصر قضية تقدمها لمجلس الأمن .

وأضاف سير الكسندر كادوجان بأنه لما رفضت مصر ذلك المشروع ظلت معاهدة سنة ١٩٣٦ باقية ، وتبقى إلى سنة ١٩٥٦ . وشرع مندوب إنجلترا يدلي بوجهة نظر الحكومة الإنجليزية بأن معاهدة سنة ١٩٣٦ معاهدة قانونية .

ثم أخذ بعد ذلك يدلل على أن وجود القوات البريطانية في القناة

لا يتنافى وميثاق هيئة الأمم المتحدة، فطالما وجود هذه القوات قد نصت عليه المعاهدة هذا يجعله غير متناقض مع الميثاق . ثم عرج على مسألة الرضا والإجبار في إمضاء المعاهدة ، وذكر أنه منذ سنة ١٩٢٢ ومصر ترفض بالفعل مشاريع معاهدات مع إنجلترا ، فهل كان يمثل مصر في سنة ١٩٣٦ — كما يقول — أقل حرية من النحاس في ١٩٣٠ أو ثروت في ١٩٢٧ أو محمد محمود في ١٩٢٩؟ ثم ذكر أن هذه المعاهدة عرضت على البرلمان المصرى ووافق عليها بأغلبية ٢٠٣ إلى ١١ صوتاً، واستشهد ببعض تصريحات لرجال السياسة المصريين في ذلك الوقت مؤيدة لهذه المعاهدة واستمر يعدد فيما رآه محاسن لهذه المعاهدة .

وذكر سير الكسندر كادوجان أن وجود القوات الإنجليزية في القناة بمعاهدة لا ينقص من حقوق مصر في السيادة، دلل على ذلك بضرب أمثلة لمعاهدات من هذا النوع ، تنص على وضع قوات أجنبية في بلاد دولة محالفة ، ففي اتفاقية ١٩٤١ ، كما يقول، تتمتع الولايات المتحدة بوضع قوات في جملة قواعد على أرض بريطانيا . والاتحاد السوفيتى بمعاهدة أغسطس ١٩٤٥ مع الصين أصبح له الحق في استخدام ثغر بورت آرثر لقواته الحربية والبحرية والجوية لمدة ثلاثين عاماً . وقال في آخر خطابه أنه لا يهم بعد ما ذكر أن يرضى الشعب المصرى الآن أو لا يرضى عن وجود الإنجليز في القناة .

وصرح الجانب المصرى عن دهشته لهذه النعمة المتكررة التى تبرر

استعمارية القرن التاسع عشر ، والتي ظن أنها انتهت نهائياً بالقضاء على
الفاشية والنازية . أخذ الجانب المصرى يردد مساوىء الاحتلال
البريطانى فى مصر مستعرضاً تاريخ الحكم الإنجليزى فى وادى النيل منذ
سنة ١٨٨٢ ، وذكر مجلس الأمن بأن مسألة معاهدة سنة ١٩٣٦ ليست
مسألة قانونية فحسب ، « فهمتكم ، الوزير المصرى ، يخاطب أعضاء مجلس
الأمن ، ليست الحكم فى حقوق الطرفين المتخاصمين القانونية ، إن مهمتكم
الأولى هى المحافظة على السلام والأمن ، هى إيجاد الظروف التى تنمو
فيها العلاقات الودية والسليمة بين الشعوب .. وكثيراً ما أدت المعاهدات
الفاسدة إلى اضطراب السلام ... » .

ثم استعرض الجانب المصرى معاهدة سنة ١٩٣٦ نصاً نصاً ، وبين أن
قيمة أى تحالف ليس فى الشروط التى تكتب أو النصوص التى تسطر ،
ولأنما فى روح الصداقة الذى يربط بين الشعوب ... ، فهو بلا شك
خير وأبقى .

قارع الجانب المصرى بريطانيا الحجة ، ووضع وجهة نظره فى
مسألة السودان ، وأبان أن نظام عصبة الأمم الذى نصت المعاهدة على
الاحتكام إليه ، فى حالة الاختلاف ، قد زال من الوجود ، وأن مصر
قد لجأت الآن إلى الهيئة الدولية الموجودة وهى هيئة الأمم المتحدة
ترجو الانصاف وتحقيق مطالبها .

ولكن احتكام مصر إلى مجلس الأمن لم يؤد إلى نتيجة فى تحقيق

المطالب المصرية والجللاء عن قناة السويس والسودان . على أن مصر
بالرغم من ذلك أسمعت العالم أجمع شكواها وأفصحت حكومتها رسمياً
على مشهد من جميع الدول عن رأيها في العلاقات المصرية الانجليزية .

٩ - انجلترا والقناة

من سنة ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢

وظلت الأزمة السياسية بين مصر وانجلترا مستحكة ، تتقدم خطوة وتتأخر خطوات . وفي الوقت الذى كانت فيه مصر تزداد إيماناً بقضيتها ، وبعدالة حقوقها . استمر الانجليز مشرفين على القناة محتلين لها لا يترشحون عنها . ثم شغلت مصر فترة من الوقت بالدفاع عن فلسطين وحقوق العرب ، حتى إذا وقعت الهدنة ، عادت مسألة تحديد العلاقات المصرية الانجليزية إلى الظهور مرة ثانية تستلزم حلاً حاسماً .

فعمدت الحكومة المصرية إلى الاتصال من جديد بالحكومة الانجليزية . وأرادت وزارة الوفد منذ توليها في أول سنة ١٩٥٠ العمل على تصفية الجو بينها وبين بريطانيا في الشرق الأوسط . وتقدمت إلى الحكومة البريطانية مينة أن مطالبا هي « جلاء القوات البريطانية جلاء ناجزاً وصيانة وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى ، وعلى أساس تحقيق هذين المطالبين تستطيع مصر تأدية واجبها في سبيل السلام العالمى .

وفي أوائل صيف سنة ١٩٥٠ رحب مستر أرنست يفن بفتح باب المفاوضات ، واقترح « أن يجرى أولاً بين رئيس أركان حرب

الإمبراطورية فيلد مارشال سير وليام سليم وبين الحكومة المصرية بحث صريح رسمي للتواحي العسكرية للمسألة التي تواجهها في الشرق الأوسط ، وأضاف إلى « أن ثمة نواح أخرى لهذه المسألة غير النواحي العسكرية ، ورأى أن تسير هذه المباحثات « بأقل ما يمكن من العلانية ، وأسّرت الحكومة المصرية إلى إجابة الحكومة البريطانية إلى رأيها على أساس « الموافقة على مبدأى جلاء القوات البريطانية ووحدة مصر والسودان ، ، كما بينت رغبتها في الاتصال بالسفير البريطاني الجديد لدى وصوله والمارشال سليم .

وجاء المارشال سليم إلى مصر ، وكان الوقت صيفاً (٥ يونيو ١٩٥٠) ، واتصل بوزارة الأمور في مصر ، وبين لهم في جلاء أولاً أنه لا يمكن فصل المسألة السياسية عن العسكرية . وأكد وجود الخطر الروسي الدائم وأنه لا يمكن لدولة واحدة مقاومتها . وأن الحل الوحيد هو تكتل الدول ذات المصلحة في مقاومتها « من الوجهتين العسكرية والصناعية ، « والتنازل عن بعض سيادتها وتقاليدها الماضية ، ، وقد تنازلات انجلترا نفسها وغيرها عن بعض السيادة وقبلت وجود قوات أجنبية في بلادها . وتركت الولايات المتحدة سياسة العزلة القديمة ، واشتركت اشتراكاً فعلياً في الدفاع عن العالم الغربي .

وأضاف المارشال سليم بأنه « إذا نشبت الحرب فستكون مصر موضعاً من مواضع اهتمام السوفييت . . . هي والشرق الأوسط ...

وقد تقولون أن وجود القوات البريطانية في مصر يجتذب الروس إليها
لطردهم منها، ولكن ما يبتغون هو مصر. فأنتم بلد ذات ثروة وموارد
وكل من يريد أن يملك الشرق الأوسط يجب أن يملك مصر، فمصر مفتاح
الشرق الأوسط، ومضى قائلاً:

«ولا يتسنى لمصر أن تقف بمنجاة يبقائها على الحياد إذ لا تستطيع
الحياد إلا إحدى دولتين، إما قوية وليست مصر هذه الدولة، أو
صغيرة (لا مطمع فيها) ...»

وإذا لم تستطع مصر الحياد، ففي نظره ليس أمامها إلا الدفاع،
والدفاع يستلزم حلفاء، وبريطانيا هي الحليف. والدفاع يستلزم الحرب
والحرب تستلزم الإسراع بالإعداد لها. ثم انتقل المارشال سليم إلى
هدف بريطانيا الحقيقي وهو: «إننا كما يقول نريد الوصول إلى اتفاق
عسكري معكم وسيكون اتفاقاً دفاعياً محضاً». وذكرت أن بريطانيا
لا تريد في هذا التحالف أن تقف موقف المعلم، بل موقف الشريك،
«وأنه يتطلع إلى نظام الدفاع يظهر بجملاء أن وجود الجيوش البريطانية
في قناة السويس ليس له معنى الاحتلال بأية حال، ولكنه يرمى إلى الدفاع
لمواجهة الموقف الدولي»، وأن السلطات العسكرية المصرية تستطيع
أن تجد نظاماً لمصلحة بلدينا المشتركة..»

ووجد رئيس الوزارة المصرية أن يبين عن رأى الحكومة المصرية
الوفدية فيقول بأن الشعب المصرى «لا يمكن أبداً أن يركن لوعود

جديدة أو يقبل نظريات مستحدثة ترمى في النهاية إلى بقاء قوات أجنبية في مصر تحت أى اسم أو بأية صفة .

« . . . ولقد وقفت إلى جانبكم ووجهت الشعب إلى أن يبدل لكم معاونة مادية ومعنوية في الحرب الأخيرة ، ولم أفعل ذلك طبقاً لمعاهدة سنة ١٩٣٦ فحسب وإنما فعلته إيماناً بقضية الحرية ولا أستطيع . . . قطع الصلة بين الماضي والحاضر ، فإن الماضي ماثل أمامنا لا يمكن تجاهله أو نسيانه ، ويتلخص في الاحتلال الطويل والوعود التي لم تتحقق . إن ثقة الشعب المصرى قد ضعفت في وعودكم ونظرياتكم ، وكذلك الدول الكبرى المسيطرة على العالم . لماذا نقف إلى جانبكم ونعرض أنفسنا للقتل ، وأراضينا للخراب ونفقد مواردنا ومرافقنا إذا لم نكن نعرف يقيناً أن مطالبنا ستتحقق في هذه المرة الثالثة . . . »

« يجب أن نبحث عن طريقة أخرى في تعاون من نوع جديد يحقق الجلاء عن قناة السويس ويكفل المصالح المشتركة ، وأجب أن تعرف أنه ليس في العالم قوة تستطيع إقناع الشعب المصرى بأن مصر ستكون مقصودة لذاتها بالهجوم أو بالاعتداء وإنما يسبب ذلك وجود جيش أجنبي في بلادنا هو الذى يوجه إليه العدوان الروسى ، ، وطالب رئيس الحكومة المصرية بمعاونة انجلترا لمخاطبة في تسليح الجيش المصرى ، فالجيش المصرى سيتمتع بروح معنوية عالية كلما شعر باستقلاله . إن جلاءكم عن أرض الوطن سيزيد من قوة هذه الروح ويجعل الجيش

يتفانى في خدمة قضية السلام المشترك . .

وختم كلامه بهذه العبارة « لماذا تبكون قواتكم في القناة وليس في فلسطين أو غزة مع أن هذه القوات الثقيلة منها والخفيفة يمكن أن تعمل إلينا في مدى أسبوع ، وتكون عندنا وقت الحرب . .

وعندئذ دافع المارشال سليم عن الفكرة التي تقول بأن وجود الجيوش لا يحمل معنى الاحتلال ، وإنما هو « نظام دفاع مشترك لحسب قائم على المساواة » ، وأنه لا يستطيع « أن يوصى حكومته بالجللاء التام ، عن القناة . وأن إنجلترا ، تتقدم في أفكارها بشأن الدفاع ، ولذا فهي لا تقبل الآن ما قبلته في مشروع صدق - يفرن من الجللاء التام عن الأراضي المصرية وقناة السويس .

ولذلك اضطر رئيس الحكومة المصرية أن يدلى للجانب الإنجليزي في ٦ يونيو سنة ١٩٥٠ ببيان شامل عن مطالب مصر وعن أهمية الجللاء عن قناة السويس فهو كما قال :

« أ - حق مصر الطبيعي . . .

ب - وعود بريطانيا بالجللاء قد تجاوزت الستين وعداً كان آخرها ما قبلته الحكومة البريطانية في مشروع يفرن - صدق . . ولا يصح الإدعاء بتغير الظروف عما كانت عليه في سنة ١٩٤٦ ، فالظروف الدولية لم تتغير منذ انتهاء الحرب فإن توقع الخطر الروسي قائم منذ ذلك الحين .

ج - أحكام الميثاق وقرارات هيئة الأمم المتحدة .

د - تقدم الفنون العسكرية والأسلحة يجعل الإحتفاظ بهذا العدد المحدود في منطقة القتال عديم الجدوى من الناحية العسكرية .

هـ - من الميسور أن تسبذل مصر قوات مصرية أكثر عدداً (بهذا العدد المحدود) ... مصر تستطيع سد هذا الفراغ بقواتها الوطنية .

و - (ومن مصلحة إنجلترا كسب ثقة الشعب المصري) .

ز - بأن القول بأن حالة التهديد بالحرب في الوقت الحاضر يبرر الإحتفاظ بقوات بريطانية في قناة السويس معناه تأييد الإحتلال لأن هذا الخطر لا يرجى له زوال ... وسيكون من الميسور دائماً التعلل بوجود خطر الحرب .

ح - أن الدول المجاورة لروسيا نفسها مثل تركيا وإيران والمعرضة لخطر الغزو المباشر لا توجد فيها قوات احتلال أجنبية .

وتملك بريطانيا كثيراً من القواعد الجوية والاستراتيجية في البلاد المحيطة بمصر مثل مالطة وقبرص وبرقة والأردن التي يسهل إرسال القوات منها إلى مصر زمن الحرب .

« وأما المقارنة بين مصر والمملكة المتحدة ، كما يقول بيان رئيس الوزراء ، بالنسبة لوجود قوات أجنبية في بريطانيا فالجواب .. (١) ألا نزاع في أن وجود تلك القوات لا ينطوي على أى مساس بالسيادة البريطانية نظراً لأن الدولتين على قدم المساواة (٢) هذا الموقف طارىء ومؤقت . أما في مصر فيعتبر امتداداً لاحتلال ظل ستين عاماً (٣) لو أن

انجلترا طالبت أمريكا بإجلاء قواتها عن أراضيها ففعلت ذلك فوراً .
(٤) تبين نظرة كل من الشعبين المصرى والبريطانى إلى وجود تلك القوات الأجنبية فى أرضيه .

« وترى مصر أن الأمر ينبغى أن يعالج على الوجه الآتى :

١ - إجلاء القوات البريطانية عن مصر (قناة السويس) إجلاء ناجزاً .

ب - لما كانت مصر شديدة العناية بتقوية جيشها وتزويده بأحدث الأسلحة والعتاد . . . وإتمام التجهيزات المدنية والعسكرية اللازمة . . . ووسائل المواصلات كل ذلك يقتضى أن تبادر بريطانيا ببذل معونتها لإجابة مطالب مصر فى هذا السيل .

ج - عند قيام حالة تهدد الأمن فى الشرق الأوسط فإن الحكومتين تتبادلان الرأى فيما يتصل بالموقف .

د - إذا وقع اعتداء مسلح على مصر أو إذا دخلت بريطانيا الحرب كنتيجة لوقوع اعتداء مسلح على إحدى الدول المتاخمة لمصر ، فإن مصر تتعاون عسكرياً فى داخل حدودها وفى نطاق إمكانياتها مع بريطانيا العظمى للدفاع عن مصر . وتفصيلات هذا التعاون يجرى الاتفاق عليها فيما بعد .

« وفى مثل هذه الأحوال إذا تبين أنه من الضرورى استقدام قوات بريطانية إلى الأراضى المصرية ، فإنها سوف تلقى جميع التسهيلات

اللازمة لاستقبالها ، والتي يمكن الاتفاق عليها مقدماً ، ومن المقرر أنه بمجرد انتهاء العمليات الحربية فإن القوات البريطانية تغادر الأراضي المصرية .

وأن الحكومة المصرية مستعدة لبحث أى مقترحات من الجانب البريطاني طالما أن أساسها الجلاء الناجز عن الأراضي المصرية ، .

ولكن ذلك البيان الذى حاول فيه رئيس الوزارة المصرية التوفيق بين وجهتى نظر مصر وانجلترا لم يلقى القبول عند المارشال سليم الذى أصر على ضرورة وجود القوات البريطانية وقت السلم ، لأن دول الدومنيون لا تقبل إرسال قوات لمساعدة مصر إذا لم تكن قوات بريطانية فى مصر فى القناة بالفعل .

وبعد شهر تقريباً ، فى يوليو من نفس هذه السنة حاول السفير البريطانى نفس المحاولة مع وزير الخارجية المصرية فبين أن ليس من مصلحة مصر إزالة المنشآت والقوات البريطانية من قناة السويس ، ثم محاولة إعادتها بعد ذلك على أساس جديد « فهذا ليس عملياً » . وقال « إن من الضروري على أية حال (للدفاع) وجود قاعدة عسكرية لتكون فى حالة تسمح باستخدامها فى وقت قصير وأن يكون بها فيون وموظفون إداريون ، وأغلب القوات فى منطقة قناة السويس الآن من الفنيين » . وردد وزير الخارجية المصرية بيان رئيس الحكومة السابق ذكره . فبين أن مصر مصممة على الدفاع عن نفسها ، وهى توافق على عقد محالفة

دفاعية مع بريطانيا بشرط الجلاء التام الكامل، وأن تكون هذه المعاهدة معاهدة الند للند على قدم المساواة . وأجاب على استشهاده الجانب الإنجليزى فى مقابلات أخرى بمسألة كوريا الجنوبية واكتساح الشيوعيين لها الأمر الذى ما كان يحدث لو أنه كان بكوريا الجنوبية قوات أمريكية من قبل ، فأجاب وزير الخارجية بأن البون شاسع بين المسألتين ، فثلا روميا ليست ملاصقة لمصر ورجا من الفيلد مارشال سليم ، الذى أثار هذه الفكرة ، ألا ينظر إلى الموقف على ضوء الحقائق العسكرية البحتة وحدها ، وأن ينظر إلى الحالة النفسية للشعب المصرى أيضاً ، فمصر المنحررة من قوات الاحتلال تكون حليفاً أقوى وأخلص .

ولكن الجانب البريطانى أصر على ضرورة « توفر قاعدة تكون معدة لاستقبال جميع النجدة فى الحال وإقامتها ، وهذه القاعدة هى قناة السويس . وبين فى أغسطس سنة ١٩٥٠ بأنه لا يمكن إنشاء هذه القاعدة فى غزة إلا إذا « عقد صلح بين مصر وإسرائيل » . ثم إن غزة « بعد ذلك ليست مكاناً صالحاً فليس فيه مواصلات أو موانئ أو قوة عاملة » ، فإذا ن لا بد من بقاء القاعدة الحالية فى القناة لأن « مصر لا تستطيع من وجهة النظر الفنية أن تقوم بصيانة القاعدة دون مساعدتنا ، ولا بد من بقاء الدفاع المشترك .

والسبب الأساسى فى تمسك بريطانيا بوجهة نظرها هذه كما يقول السفير البريطانى فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩٥٠ « هو موقع مصر الجغرافى

وامتلاكها لقناة السويس وهى حلقة مواصلات حيوية تهتم بها جميع الدول البحرية » ونحن لا نطلب منكم أن تسلمونا منطقة القنال ولكننا نطلب أن نشترك معكم فى الدفاع عن منطقة القنال . وأهم جزء فى الدفاع هنا هو الدفاع الجوى . ويجب على مصر أن توافق على أن يكون لها دفاع جوى مشترك إذ أنها لا تستطيع أن تدافع عن منطقة القناة بمفردها . .

وهذا التمسك من الجانب البريطانى دعا وزير الخارجية المصرية صلاح الدين إلى القول (فى مقابلة ١٤ أغسطس مع السفير البريطانى) « إن مصر تعتبر بحق أن وجود قوات لكم فى أرضها مهما كانت صفتها يخل بسيادتها فلها كل الحق فى أن ترفض هذا الاحتلال ... مهما تكن أهمية قناة السويس الاستراتيجية بالنسبة لكم . . . على أن قناة السويس لم تعد لها هذه الأهمية السابقة من الوجهة العسكرية . ودليل ذلك أن أكثر حركة النقل إلى الشرق الأقصى كانت فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة تمر من رأس الرجاء الصالح فضلا عن إمكان تعطيل الملاحة فى القنال وقتلاً طويلاً إذا أُلقيت عليه قنبلة من القنابل الذرية . . . ومن هذا يمكن أن يقال أن مصر نفسها هى مطلبكم الحقيقى لا قنال السويس . » .

وفى مقابلة ٢٤ أغسطس ١٩٥٠ ، ردد السفير البريطانى مرة أخرى

وجهة النظر الإنجليزية فقال : ليست بريطانيا أو مصر حرة التصرف ، فكلانا يواجه مستقبلا نقائل فيه من أجل حياتنا ولا يمكننا أن نؤمل في الحياة منعزلين ... إن مصر تواجه الآن حيرة شديدة ، فهي تريد من جهة أن تدافع عن نفسها ، وأن تحقق من جهة أخرى مطالبها القومية ، وهذا الغرضان لا يمكن بلوغهما في آن واحد ، ويجب على الحكومة المصرية أن تقبل هذه الحقيقة القاسية ، وهي أن الجلاء الكامل الناجز (عن قناة السويس) لا يتفق مع الدفاع عن البلاد ، ويجب أن نجد وسيلة للتوفيق بين مطالب الدفاع العاجلة وبين كرامة مصر القومية ...

ولكن وزير الخارجية المصرية لم يقتنع بهذه الفكرة ولم يزد إلا استمساكا بوجهة النظر التي عبرت عنها الحكومة المصرية في ذلك الوقت .

وحين زار وزير الخارجية المصرية مستر بيغن في لندن ، لم يجد إلا نفس الرأي السابق ، فيقول مستر بيغن في ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٠ : إنه يشعر بأنها تكون مسئولية بالغة الخطر إذا تركت معاهدة سنة ١٩٣٦ دون إعداد تدبير فعال ليحل محلها ... وأن العبارة المصرية المعادة من الجلاء ووحدة مصر والسودان لا تنهض أساساً عملياً يمكن البناء

عليه . . . ، وأشار إلى « الموقف الدولى الذى يهدد بالخطر ، » وأنه لا داعى للإشارة إلى مناقشات ١٩٤٦ بين مصر وإنجلترا .

ولم يقدم السفير البريطانى مقترحات فعلية من حكومته إلا فى يوم ١١ إبريل ١٩٥١ . وذلك لحل مسألة الدفاع ، موضحاً فى نفس الوقت « السخط الحقيقى الذى أثاره فى بريطانيا استمرار القيود على ناقلات البترول التى تمر بقناة السويس . »

ونص هذه المقترحات هو « إن حكومة جلالة الملك فى المملكة المتحدة على استعداد لأن تستأنف المفاوضات لتعديل معاهدة التحالف المعقودة سنة ١٩٣٦ .

« تعلم حكومة جلالة الملك فى المملكة المتحدة بالصعوبات الكبيرة التى تواجه الحكومة المصرية فى هذه المسألة . على أنها لا تستطيع بالنظر إلى التزاماتها نحو حلفائها الآخرين فى شمال الأطلنطى وفى الشرق الأوسط أن تقبل تبعة اتخاذ أية تدابير تضر بمقدرتها على المساهمة فى الدفاع عن هذه المنطقة بنجاح ضد أى معتد . ومثل هذا الدفاع لن يكون ممكناً إلا إذا استمرت القاعدة المصرية فى المستقبل فى أداء وظيفتها بحيث نكون معدة فوراً وقت الحرب ، وإلا إذا كان الدفاع الجوى عن مصر مكفولاً .

« فلهذه الظروف تقترح حكومة . . . المملكة المتحدة أن

تعديل معاهدة التحالف المعقودة في سنة ١٩٣٦ ، بحيث تنص على ما يأتي :

د ا - انسحاب الجنود البريطانيين من مصر (قناة السويس) على مراحل ، ويبدأ هذا الانسحاب بعد انقضاء سنة على اتفاق بتعديل المعاهدة وينتهي في سنة ١٩٥٦ .

د ب - تحويل القاعدة إلى المدنيين تدريجياً ، ويقترح أن يتم ذلك لغاية سنة ١٩٥٦ ، بإحلال الموظفين المدنيين الضروريين محل الموظفين العسكريين المنسحبين ، ويعهد بالقاعدة بعد ذلك إلى القوات المسلحة المصرية للمحافظة عليها . على أن تدار وفقاً للسياسة العسكرية البريطانية تحت الإشراف الإداري العام لمجلس إشراف انجليزي - مصري ...

د ج - إنشاء نظام انجليزي - مصري طويل الأجل للدفاع الجوي ...

د هـ - وفي حالة الحرب أو خطر الحرب الدائم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها ، توافق مصر على عودة القوات البريطانية لمدة الخطر ، وعلى أن تمنحها والقوات الحليفة لبريطانيا جميع التسهيلات والمساعدات بما في ذلك استعمال الموانئ والمطارات ووسائل

المواصلات المصرية .

وأضاف السفير البريطاني أن انجلترا لا تستطيع أن تقبل إقرار الرأى القائل بأن مسألة السودان لا يمكن فصلها عن مسألة الدفاع ،

ولكن الحكومة المصرية لم تقف عند الرضى ، فوضعت اقتراحات من ناحيتها قدمتها للسفير البريطانى فى ٢٤ إبريل ١٩٥١ تحدد نهائياً وجهة نظرها فى حل الموقف . ويبدأ رد الحكومة المصرية بالتعبير عن دأسف مصر البالغ وخيبة الأمل المؤلمة ، وبعد أن يرفض الرد المصرى هذه المقترحات جملة وتفصيلا يتقدم بالمقترحات الآتية :

١ - الشروع فى إجلاء القوات البريطانية عن مصر (قناة السويس) بمجرد عقد الاتفاق مباشرة ، وضرورة إتمام هذا الجلاء برأ وبجراً فى مدة لا تتجاوز سنة .

٢ - تسليم القاعدة إلى القوات المصرية المسلحة بمجرد إتمام الجلاء .

٣ - إعطاء أولوية خاصة لتزويد الجيش المصرى بالأسلحة والمعدات اللازمة فى أقرب وقت باعتبار مصر قائمة فى منطقة استراتيجية .

٤ - وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى . . .

٥ - (خاص بالسودان) .

٦ - عقد اتفاق بين الطرفين يمكن بمقتضاه عودة القوات البريطانية

إلى الجهات التي يتفق بين الحكومتين على ضرورة عودتها إليها للمعاونة في الدفاع عن مصر في حالة ما إذا وقع عليها اعتداء مسلح أو في حالة اشتباك المملكة المتحدة في حرب كنتيجة لاعتداء مسلح على البلاد العربية المتاخمة لمصر .

٧ - إذا عادت القوات البريطانية إلى مصر وفقاً للبند السابق فيتعين الشروع في إجلائها عنها بمجرد انتهاء العمليات الحربية على أن يتم الجلاء برأ وبحراً وجواً في أجل أقصاه ثلاثة أشهر .

٨ - إلغاء معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ وجميع ملحقاتها وكذلك اتفاق سنة ١٨٩٩ بمجرد سريان الاتفاق الجديد .

تمهلت الحكومة البريطانية في الرد على المقترحات المصرية ، وأطالت النمل ، والواقع أنه لم يكن لديها شيء جديد في ذلك الوقت تقدمه . وكثرت الأقاويل والشائعات . فقليل حيناً أن المشكلة الرئيسية في نظرها هي اهتمامها بالمحافظة على التزاماتها قبل دول الكومنولث وحلف الأطلسي ، فهي لا تستطيع البت في مسألة مثل الجلاء عن قناة السويس دون معرفة رأي شركائها هؤلاء ودون استشارتهم وموافقتهم . وهي لذلك تنتظر حتى يضع وزراء الدفاع في الكومنولث تقاريرهم . وكان الغرض من اجتماعهم في لندن في ذلك الوقت هو دراسة إنشاء نظام للأمن في منطقة شرق البحر المتوسط بدلاً من إقامة نظام دفاعي بين دول الشرق الأوسط . ولقد وجد ذلك المؤتمر

أن اشترك الولايات المتحدة مع إنجلترا متعاونة مع الدول العربية ضرورى فى إقامة سد أمام التوسع الشيوعى الذى كان يخشى خطره عقب قيام النزاع الإيرانى الانجليزى على مسألة البترول . لقد اتجهت الآراء أخيراً فى ذلك الاجتماع على اقتراح إنشاء هيئة للدفاع عن الشرق الأوسط من إنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ومن يريد من دول الكومنولث .

ولم تكن إنجلترا تثق قليلاً أو كثيراً فى ميثاق الضمان الجماعى وحده ، ذلك الميثاق الذى عقده الدول العربية باستثناء شرق الأردن ، هذا الميثاق الذى ينص على وجوب التعاون المتبادل بين أعضائه وإنشاء مجلس عسكرى دائم .

وكانت الحكومة الانجليزية العالمية مضطرة أن تحسب حساباً كبيراً لذلك الفريق من الرأى العام الانجليزى الذى كان يطالب بالتمسك بالبقاء فى القناة . ويرى أن تركها يضر المصالح البريطانية ضرراً بليغاً . فبعض الصحف مثل صحيفة الديلى اكسبريس ترى « أن الجلاء عن القناة لا يكون إلا خيانة للمصالح البريطانية الحيوية . . . وما قيمة أى وعد يقدمه المصريون بالسماح للبريطانيين بالعودة » . وحمل المحافظون فى البرلمان البريطانى حملة عنيفة على السياسة المتراخية لوزارة العمال بأزاء مصر . وكان المحافظون قوة لا يستهان بها ويحسب حسابها . وأضيفت إلى آراء المحافظين آراء العسكريين ، وكان هؤلاء أشد الناس

تمسكاً بالبقاء في قاعدة قناة السويس ، ويرون أن انجلترا أقدر من غيرها على حماية هذه القاعدة وصيانتها ، ويجب ألا تترك تلك المهمة لغيرها كلية . وأنه لا مانع عندهم من إشراك مصر إذا أرادت مشاركة بريطانيا في أمر الصيانة والدفاع عن هذه القاعدة - لهذا كله لم تر حكومة العمال لإجابة مصر إلى مطلبها في الجلاء عن قناة السويس . وهي وإن كانت قد اتخذت هذه الخطوة ، إلا أنها آثرت الصمت ، وفضلت الانتظار .

ولكن ذلك الموقف لم يرق الحكومة المصرية التي ملت الانتظار ونفذ صبرها ، ورأت ألا مناص من أن ترسل مذكرة قوية للهجة إلى السفارة البريطانية في ٦ يولية سنة ١٩٥١ تذكرها « بأن الحكومة الملكية المصرية تجد نفسها مضطرة لأن توجه التفتاح حكومة جلالة الملك في المملكة المتحدة إلى تعذر الاستمرار إلى غير حد في المحادثات الجارية بين الطرفين منذ شهر يوليو سنة ١٩٥٠ ، وأن انجلترا لن تخسر شيئاً » من هذه المطاولة ، وأن الحكومة الملكية المصرية قد أصبح من المستحيل عليها وعلى الرأي العام المصرى قبول استمرار هذه الحالة فترة أخرى ، .

وفي نفس اليوم الذى قدمت فيه هذه المذكرة اجتمع السير رالف ستيفنسون السفير البريطانى بصلاح الدين باشا ، وأخذ السفير البريطانى

بين قيمة التعاون في مشروع دفاع مشترك ، وأن « على الحكومة المصرية أولاً أن تدرك أنها أمام واحد من أمرين :

١ - التعاون في مشروع دفاع واف قد يجنب مصر الغزو كلية .

٢ - أن تعرض مصر لغزوين أحدهما لاحتلال البلاد .

والآخر لطرده المعتدين ، . والتعاون في مشروع دفاع أكثر فائدة لمصر هذا فضلاً عن أن ميثاق الأمم المتحدة يبيح الاتفاقات الإقليمية ، وأن إنجلترا تحاول عقد اتفاق لضمان الأمن الأقليمي . واعتذر عن تأخير رد الحكومة البريطانية بأنه ناشئ من مشاغلها الكثيرة .

وأمام هذا وجد وزير الخارجية المصرية نفسه مضطراً لأن يلاحظ بأن مشاغل إنجلترا لن تنتهى ، وأبان بأن المطالب المصرية مسألة « حياة أو موت بالنسبة لمصر » ، وهى مسألة مع ذلك تهم السلم العالمى . وأن الحكومة المصرية مضطرة بعد قليل إلى الإدلاء ببيان عن هذه المفاوضات للبرلمان ، وأن حكومة مصر تعتقد أن « السياسة التى تتبعها بريطانيا في مصر والسودان منافية لميثاق الأمم المتحدة في نفسه وروحه ، فهى منافية لمبدأ المساواة فى السيادة ، ولمبدأ استقلال الدول الأعضاء وسيادتهم ، وللمبدأ الذى يقضى بوجوب امتناع كل دولة عن المساس باستقلال غيرها من الدول الأعضاء أو بوحدة أراضيها ، كما أنها تتنافى قرار هيئة الأمم المتحدة بوجوب جلاء القوات الأجنبية عن أراضي الدولة المحتلة بغير رضاها ، . وأما المحادثات الإقليمية فهى فى نظر

الحكومة المصرية يجب أن «تعقد بالرضى والاختيار»، «وأن مصر شعباً وحكومة لا ترغب في أى مخالفة على أساس احتلال أراضيها والعبث بوحدتها» .

ولقد توترت العلاقات بين إنجلترا ومصر من ناحية أخرى في صيف سنة ١٩٥١ نتيجة لإصرار مصر على عدم مرور السفن الناقلة للبترول خلال القناة إلى إسرائيل ، وخاصة بعد حادث السفينة البريطانية أمباير روش فاحتجت إنجلترا ، وأعلنت أنها ستشكو مصر إلى مجلس الأمن ، وأرسلت أربعة مدمرات إلى البحر الأحمر ، وطالب بعض الأعضاء في البرلمان البريطانى الحكومة الانجليزية بضرورة إرسال سفن حربية لحراسة السفن البريطانية أثناء مرورها بالقناة حتى لا تتعرض لها مصر ، ورفضت الحكومة البريطانية اتباع رأى المحافظين بحماية ناقلات البترول ، حتى لا تشجع المصريين على المطالبة بتأميم القناة . ولكنها التفتحت إلى مجلس الأمن ، وأمام هذا الموقف أعلن وزير الخارجية المصرية للسفير الأمريكى بأن النزاع على الملاحة في قناة السويس يمكن فضه بالوسائل الدبلوماسية وأن إثارته في مجلس الأمن ستحدث قطيعة بين الدول الغربية .

لم تكن إذن مسألة الملاحة في القناة من العوامل للتقريب بين إنجلترا ومصر ، وربما كان لها أثرها السئ على العلاقات المصرية الإنجليزية .

وبينما الأمور سائرة في بطاء شديد ، ومصر تنتظر لإجابة مرضية من بريطانيا على المقترحات التي قدمتها ، إذ بوزير الخارجية البريطانية يعلن في مجلس العموم البريطاني في ٣٠ يوليو ١٩٥١ تمسك الحكومة البريطانية بوجهة نظرها وبالدفاع المشترك بحجة الضرورات الدولية .

بسط مستر موريسون في بيانه سياسة الحكومة البريطانية تجاه الشرق الأوسط ومصر ، وبين بوضوح لا مزيد عليه أن بريطانيا في هذه الظروف العالمية الحالية غير مستعدة لقبول وجهة النظر المصرية فيما يختص بجلاء القوات البريطانية عن قناة السويس ، وفيما يختص بالدفاع عن مصر وعن الشرق الأوسط . وكان هذا الخطاب في الواقع رداً حاسماً على المقترحات المصرية ، وتبريراً لموقف إنجلترا إزاء هذه المقترحات .

يقول مستر موريسون :

« فالיום أصبحت كل الأمم أعضاء في مجموعة واحدة ، ولا يمكن دعم مصالح أية دولة على حساب الحاجات والحقوق المشروعة لبقية الدول .

« والصداقة القومية والتعاون الوثيق بين مصر وبريطانيا يعدان من أحجار الزاوية في استقرار أمور الشرق الأوسط وسلامته . وقد حاولنا أن نقدر مركز مصر ، ولكننا لم نجد استجابة لما أبديناه من صبر وإدراك . ولا تزال نواجه تصميمًا لا يلين على مطالب ليست

لها أية علاقة بحقائق الموقف العالمى فى الوقت الحاضر .

« ووجود القوات البريطانية فى مصر لم يعد مشكلة لانغنى إلا بريطانيا ومصر وحدهما . فنحن دولة تحمل بالنيابة عن دول الكومنولث وحلفاء الغرب مسئولية كبرى .

« ومصر مفتاح الشرق الأوسط ، وأنه لسراب خادع أن تتظاهر مصر بأنها تستطيع الوقوف جانباً فى أى نزاع دولى .

« فصر تحتل جسراً هاماً بين قارتين وتسيطر على المواصلات البحرية بين العالمين الشرقى والغربى ، وهى هدف هام جداً لأية دولة تعتدى على المشرق والحوض الشرقى للبحر المتوسط .

« ومصير مصر وبريطانيا وحضارتهما مرتبط برباط وثيق ، وليس من الواقعية فى شىء أن تدعى مصر أن فى استطاعتها النجاة من الخطر برفض التحالف مع بريطانيا وعدم الاشتراك فى النظام الدفاعى عن المنطقة . وفوق ذلك ليس فى استطاعة مصر أن تقف وحدها لتدافع عن أرضها ، ومثلها فى ذلك مثل بريطانيا ذاتها . وإنى لوائق تمام الثقة من أنه إذا اضطرت العالم الحر إلى خوض غمار الحرب فإن الشعب المصرى سيقف إلى جانبه كما وقف فى الماضى يقاوم العدوان .

« وأهم خلاف بين مصر وبريطانيا هو عدم الاتفاق على التدابير اللازمة لمواجهة أى طارئ من هذا القبيل ، وبدون استعدادات واسعة النطاق فى وقت السلام ستعتقد قضيتنا قبل أن تبدأ المعركة .

« ومهمتنا إقناع مصر بمواجهة تلك الحقيقة التي لا مفر منها وبالأخطار التي تترتب على إهمال هذه الإستعدادات . ومن فوق هذا المنبر أدعو مصر إلى المساهمة بنصيبها وعلى قدم المساواة في الجهود المشتركة لتأمين سلام العالم . نريد أن ننظم علاقتنا على أساس جديد كل الجدة . ولكن إذا رفضت مصر تلك الدعوة ، فلن نسمح للوقف الذي ينشأ عن هذا الرفض بعرقلة جهودنا للوفاء بالتزاماتنا الدولية .

« ومع ذلك لن نياس من إقناع مصر بالمساهمة معنا من تلقاء نفسها حتى تسهل مهمتنا » .

وقرع مصر في آخر خطابه « فصر بموقعها الجغرافي الفريد يجب أن تضرب مثلاً على السلوك الدولي بدلاً من الاساءة إلى المعاهدات الدولية واتفاقية الملاحة ، .

وختم حديثه بضرورة حماية مصالح بريطانيا المشروعة في الشرق الأوسط .

ولقد وجدت نفمة موريسون ترديداً في بعض الصحف الانجليزية فتقول صحيفة الأبرزفر (عن الأهرام ٢٠ أغسطس) « أوضح هربرت موريسون أنه بينما ترغب بريطانيا في الوصول إلى اتفاق مع مصر بشأن هذه القاعدة ستحافظ بريطانيا على تلك القاعدة وتتمسك بها في فترة التوتر الراهنة رضيت مصر أو لم ترض . . . وهذه ضرورة مؤلمة ، ولكن يجب ألا يعمينا النزاع مع مصر عن حاجتنا إلى الارتباط معها

برباط الصداقة والود . ويجب علينا ... أن نواصل مساعدتنا لجعل مصر
تشارك في حلف عام يضم دول الشرق الأوسط حتى تبدو القواعد
الموجودة على أرضها جزءاً من نطاقها الدفاعي ، وأغلب الظن أن يكتب
لهذه السياسة النجاح إذا كان واضحاً أننا نزمع بتأييد الأمريكيين التمسك
بمنطقة القناة ، وأن الاحتجاجات مهما كانت لن تبدل هذا القرار أو
تغير منه شيئاً ، ...

وأما من ناحية الجانب المصري فلقد وجد وزير الخارجية المصرية
ضرورة الرد على تصريح موريسون الذي أحدث رجة كبيرة في مصر ،
ففي ٦ أغسطس في البرلمان المصري تحدث عن الاحتلال وآثاره السيئة ،
وأبان عن توافر كل إنجلترا وتخاذلها في أمر تسليم الجيش المصري ، ورد
على فكرة موريسون بوجود خطر الحرب ماثلاً فقال « ومتى خلع
العالم من خطر الحرب ... وسيكون على الدوام خلاف دولي يلبس ثوب
خطر الحرب ، ويجوز القول بأنه يهدد السلام ، فهل يمكن أن يطالبنا
منصف بأن نقبل على سيادتنا واستقلالنا عار الاحتلال أبد الأبد ... » ،
وأبان عن تمسك مصر بحقوقها ومطالبها ، واستمسكها بميثاق هيئة
الأمم المتحدة ، وأعلن أن مستر موريسون بخطابه هذا قد أوصد باب
المفاوضات .

لقد وجدت الحكومة المصرية إذن « عمق الهوة » التي تفصل بين
وجهتي نظر الطرفين ، وذلك كما يقول بيان رئيس الحكومة في

٨ أكتوبر ، لإصرار الحكومة البريطانية على سياستها الاستعمارية القديمة ، سياسة ادعاء المسؤوليات وانتحال التبعات ومقاومة الحقوق الوطنية بشق الحجة والتعلات .

اعتبرت الحكومة المصرية تصريح وزير الخارجية البريطانية إغلاقاً صريحاً لباب المفاوضات بين الدولتين . ولكن مستر موريسون تراجع ، وفي خطاب خاص له إلى الحكومة المصرية ذكر أن الباب لا زال مفتوحاً ، فالحكومة البريطانية « تدرس مشروعاً جديداً لعلاج وسائل الدفاع » . وأجابت الحكومة المصرية بأن جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس ليس كل القضية المصرية ، وإنما هو جزء منها ، وأن القضية المصرية كل لا يتجزأ ، واكتفت الوزارة البريطانية بالصمت ، فلم تستطع أن تعين موعداً محدوداً لإرسال مقترحاتها الجديدة .

وهكذا كانت الحكومة البريطانية تؤجل في ردودها ، وإذا خرجت عن الصمت لا تعطى رأياً واضحاً نهائياً ، وتحاول كسب الوقت ، فالانتظار لا يضرها ولا يضعف مركزها ، ويظهر أن الحكومة البريطانية لم توجه إلى علاقاتها مع مصر ما يلزمها من عناية ودراسة تنفق ونمو الوعي القومي في مصر ، وخضعت لأراء العسكريين ورجال الحرب فلم تحاول فهم وجهة النظر المصرية .

والواقع أن موريسون الذي تولى وزارة الخارجية البريطانية بعد موت إرنست ييفن كان حديث عهد بأموال السياسة الخارجية ، وليست

لديه خبرة عملية في ذلك الميدان ، وليس له العزم لتنفيذ ما يرى ، فهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وسرعان ما تراكت عليه المشاكل من كل جانب ، وتجمعت المصاعب أمامه بشكل خطر ، فازداد الموقف الدولي تعقداً بالنسبة لـ إنجلترا . لقد كان موقف الحكومة العالمية صعباً في البرلمان ، فلقد أصر المحافظون على إثارة المشاكل أمامها ، وهاجموا سياستها نحو مصر ، وأعلنوا عن خشيتهم من أن تضيع وزارة العمال الامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ونعوا عليها سياسة التهدة التي تتبعها .

وليت الأمر اقتصر على هذا الحد ، فلقد ازدادت حالة المالبسة البريطانية سوءاً أمام حركة التسابق إلى السلاح ، واختلفت إنجلترا مع الولايات المتحدة بشأن مسألة السلاح ومسألة الاعتراف بالصين الشيوعية والحرب الكورية ، ثم انقسم حزب العمال على نفسه فريق يرى الاستمرار في سياسة السلاح مهما كلف إنجلترا الأمر ، وفريق يرى ألا تكلف إنجلترا نفسها في هذا الميدان ما لا تطيق ، فحذر أنيورين ييفان أحد الوزراء المنشقين بريطانياً من السير في ركاب فوضى الرأسمالية الأمريكية ، ، وتوقع انتشار البطالة وازدياد التضخم في بريطانيا — واختلفت إنجلترا أيضاً مع دول غرب أوروبا على مسألة الاشتراك في الجيش الأوروبي .

ولم يقف الأمر عن هذا الحد . إذ تعقدت العلاقات الإيرانية

الانجليزية بشأن البترول الايراني وتأميمه ، وقام نزاع خطير بين الدولتين ذهب بالعلاقات الطيبة بينهما ، واضطر الانجليز آسفين إلى الانسحاب من عبادان ، بعد أن رفضت الولايات المتحدة تقديم أى تأييد سياسى لهم . فكانت هذه أول ضربة سياسية قاسية تلقاها الانجليز بعد الحرب الكبرى الثانية . أخذ نفوذ الانجليز في الشرق الأوسط بعدها في التضاؤل والضعف ، ولم يعد لسياسة انجلترا الخارجية ولا لاسمها نفس الاحترام الذى كان لها من قبل منذ ربع قرن من الزمان .

ورأت الحكومة المصرية في أوائل اكتوبر سنة ١٩٥١ أن الوقت قد آن لإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ . فلقد سرد رئيس الحكومة في ذلك الوقت في بيانه في ٨ أكتوبر في البرلمان قصة المحادثات بينه وبين انجلترا والأسباب التى دعت الحكومة المصرية إلى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة .

وشرعت الوزارة (الوفدية) على الفور ، كما يقول رئيسها ، فى أن تكون أولى خطواتها محاولة الاتفاق مع الإنجليز ، فدخلت معهم فى سلسلة طويلة من الاتصالات والمحاولات ، وتعددت الاتصالات وطالت المحادثات ، وتذرت الوزارة بالحكمة والصبر ، وواجهت المشكلات مواجهة واقعية للتوفيق بين حقوق مصر الوطنية ، وبين الملبسات الدولية التى يتعلل بها الإنجليز . ولكن شيئاً من ذلك لم يفلح فى إقناعهم بضرورة احترام حقوق مصر ، فلم تجد الحكومة والحالة هذه

بدأ من أن تعلن في خطاب العرش الذي ألقى في البرلمان المصري يوم ١٦ نوفمبر ١٩٥٠ أنه لامناص من إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وما يتبع ذلك من إعلان إنهاء اتفاقيتي ١٦ يناير ، ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ الخاصتين بالحكم الثنائي في السودان .

استمرت المحادثات ، وقصد وزير الخارجية المصرية إلى لندن ، حيث تباحث مع وزير الخارجية البريطانية طويلا ، وانتهت هذه المباحثات في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، بأن قرر وزير الخارجية البريطانية أنه عرض على مجلس الوزراء بصفة شخصية محضنة مقترحات تتضمن طريقة علاج جديد لمشكلة الدفاع .

ولكن المقترحات الموعودة لم تصل إلى الحكومة المصرية إلا في ١١ أبريل سنة ١٩٥١ ، أي بعد التاريخ المضروب بثلاثة أشهر ، وقد جاءت مع ذلك أبعد ما تكون عن تحقيق المطالب الوطنية .

وفي ٢٤ أبريل سنة ١٩٥١ ردت الحكومة المصرية برفض هذه المقترحات في جلستها وتفصيلاتها مقدمة مقترحات مضادة بشأن الجلاء ووحدة مصر والسودان .

ووعد الجانب البريطاني بدراسة هذه المقترحات المضادة والرد عليها ولكن رده لم يصل إلا في ٨ يونيو سنة ١٩٥١ .

ثم استؤنفت المحادثات ودار البحث حول السودان ، وبينما هي سائرة تتمتع ، ألقى وزير الخارجية بيانه المعروف في مجلس العموم

البريطاني يوم الإثنين ٢٠ يولييه سنة ١٩٥١ ، يعلن فيه تمسك الحكومة البريطانية بالاحتلال والدفاع المشترك في وقت السلم ، بحجة الضرورات الدولية ، ومعارضتها وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري بحجة استطلاع مشيئة السودانيين .

وقد جاء هذا البيان ناطقاً بعمق الهوة التي تفصل بين الطرفين ، لإصرار الحكومة البريطانية على سياستها الاستعمارية القديمة ، سياسة إدعاء المسؤوليات ، واتصال التبعات ، ومقاومة الحقوق الوطنية بشقي الحجج والتعللات .

وفي ٦ أغسطس سنة ١٩٥١ رد وزير الخارجية المصرية على هذا البيان . . . قال فيه : إن وزير الخارجية البريطانية قد أغلق بتصرّجاته الأخيرة في مجلس العموم باب المحادثات . ولكن وزير الخارجية البريطانية بعث برسالة شخصية ينفي فيها أنه أغلق باب المحادثات ، ويقول أنه يبحث على وجه الاستعجال مشروعاً جديداً لعلاج مسائل الدفاع ، فرددت عليه ميثناً الأسباب التي من أجلها اعتبرت الحكومة المصرية أن خطابه في مجلس العموم البريطاني أغلق باب المحادثات ، وأضافت أن جلاء القوات البريطانية ليس إلا شرط القضية المصرية ، وأن هناك الشرط الآخر وهو وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري ، وأن الشرطين كل لا يتجزأ . . .

أرسل هذا الرد في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٥١ ، ولم تصل هذه المقترحات

حتى الآن ، ولكنى تلقيت من وزارة الخارجية البريطانية في ٢١ سبتمبر ١٩٥١ رسالة شخصية أخرى ، يقول فيها إنه لا يستطيع أن يعين على وجه التحديد تاريخاً لإرسال مقترحاته ، ولكنه يتوقع أن يكون ذلك في موعد قريب .

وقد كلفت السفير البريطاني الذي حمل هذه الرسالة ، أن يبلغ وزير الخارجية البريطانية أن الحكومة المصرية مرتبطة بإعلان خطتها في البرلمان قبل فض دور الانعقاد الحالي في أوائل شهر أكتوبر على أكثر تقدير ، فلا معدى والحالة هذه ، من أن تصل المقترحات الجديدة على أساس تحقيق المطالب الوطنية قبل ذلك التاريخ .

هذا هو تاريخ المحادثات حتى الآن ، وغنى عن البيان أن الجانب البريطاني لا يخسر شيئاً من هذا التطويل والتأخير فالاحتلال قائم في قناة السويس . . .

لقد جادل الانجليز في حق مصر في إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وانفاقيتي سنة ١٨٩٩ ، ولكن الأمثلة لا تنقصنا على سوابق إلغاء المعاهدات والاتفاقات الدولية من جانب واحد (و ذكر رئيس حكومة مصر ثمانية عشر مثلاً) .

.....

... أسباب الإلغاء التي أجملها الآن :

أولا — أن هذه المعاهدة عقدت في ظل الاحتلال البريطاني فلم

يكن شرط الاختيار الكامل متوفراً للجانب المصرى . . . (هذا) رأى وزير الخارجية البريطانية المغفور له مستريفن أعلنه بصريح العبارة في مجلس الأمن عند ما طرح عليه النزاع الروسى الإيرانى إذ قال بالحرف الواحد « إن الحكومة البريطانية ليؤسفها أى اتفاق يبدو أنه قد انتزع من الحكومة الايرانية قسراً على حين تحتل حكومة الاتحاد السوفيتى جزءاً من إيران ، كما قال في المناسبة نفسها « نحن دول قوية توصف أحياناً بالثلاث الكبار ، ولكننا نمثل القوة دون ريب ، وللقوة ولا شك حسابها في المفاوضات . .

وقد أخذ مجلس الأمن بهذا رأى ، فتضمن قراره فيما تضمن أن وجود القوات الأجنبية في أرض دولة من الدول يسلبها حرية الاختيار في المفاوضات .

لا بد لي هنا أن أفصح عما نقصده بضغط الاحتلال ، ليس القصد أن أحداً أكرهنا إكراهها مادياً على توقيع المعاهدة ، ولكننا نقصد حالة الإكراه الأدبى التى كانت تساور نفوسنا ، إذ نرى مصر تكاد تحتنق تحت ضغط الاحتلال المتغلغل في كل مرافقها العايب بكل مصالحها . والامتيازات الأجنبية الجاثمة على صدرها ، فأردنا أن نلتمس لها من هذا الإسار نحر جأ يطلقها من عقالها ويكون خطوة أولى تتلوها خطوات أوسع لاستكمال وحدتها واستقلالها .

ثانياً — تغير الظروف التى عقدت فيها المعاهدة . . .

ثالثاً — أنها تتناقض مع اتفاقية قناة السويس ومع ميثاق الأمم المتحدة ، وكلاهما أولى منها بالتنفيذ والاحترام . فانفاقية قناة السويس عقدت قبلها بزمان طويل بين دول متعددة ، لتقرير وضع دولى عام هو حيدة القناة وحرية المرور فيها على قدم المساواة التام بين الجميع .

ولذلك حرمت هذه الاتفاقية على الدول الموقعة عليها محاولة الحصول على مزايا إقليمية أو تجارية أو أية ميزة أخرى فى أى اتفاق دولى يعقد فى المستقبل بشأن القناة . كما ناطت بمصر وحدها — وهى الدولة صاحبة الإقليم حق الدفاع عن حيدة القناة وسلامة المرور فيها . وهذا ما أهدرته معاهدة سنة ١٩٣٦ إهداراً تاماً . إذ ليست هذه المعاهدة إلا مجموعة من الميزات الصارخة لمصلحة بريطانيا وحدها على حساب استقلال مصر وسيادتها . وما كان لبريطانيا بصريح النص فى اتفاقية سنة ١٨٨٨ أن تنتهز فرصة الاحتلال فتحصل انفسها على هذه المزايا .

أما ميثاق هيئة الأمم المتحدة . (فضرورى) وجوب تغليب أحكامه على ما يتناقض معها من أحكام المعاهدات والاتفاقيات الأخرى .
رابعاً — تكرار الإخلال بأحكام المعاهدة من جانب المملكة المتحدة ، والواقع أن الإنجليز لا يتمسكون بالمعاهدة إلا فيما يعتمدون عليه لتأييد الاحتلال أو العبث بوحدة مصر والسودان . . . فهم يتجاوزون عدد القوات التى ترخص المعاهدة بابقائها فى منطقة القناة ، ويتجاوزون المناطق المحددة لها ، ويأبون الخضوع للإجراءات الصحية

والبحرية التي تفرضها القوانين المصرية ، ويجاربون تدريب الجيش المصرى وتجهيزه بدلا من أن يتعاونوا فى إعداده وتقويته وفقاً لتعهدهم فى المعاهدة إن المعاهدة توجب عليهم ألا يتخذوا فى علاقاتهم مع البلاد الأجنبية موقفاً يتعارض مع المحالفة (يشير رئيس الحكومة إلى موقف إنجلترا من اسرائيل) .

إننا نعمل فى حدود حقوقنا . . . إن مصر إنما تعمل فى حدود حقها القانونى والدولى إذ تلغى معاهدة سنة ١٩٣٦ وتنتهى العمل بأحكامها لم تعد مصر تعترف بمركز الانجليز فى قناة السويس ، ولكن الحكومة البريطانية أعلنت أن المعاهدة لا تشمل على حق الإلغاء من جانب واحد ، وأنها ألغيت بالفعل من جانب واحد هو الجانب المصرى بغير موافقة الجانب الإنجليزى ، وأنها لا تستطيع أن تقر مصر على هذه الخطوة ، وفى نظرها لإقدام الحكومة المصرية على إلغاء المعاهدة عمل غير شرعى يتنافى مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة الذى نصت مقدمته على احترام الالتزامات الناشئة من المعاهدات والارتباطات الدولية الأخرى ، ولذا فهى وإن كانت لاتزال راغبة فى المفاوضات إلا أنها أثناء ذلك ستظل متمسكة بهذه المعاهدة التى تبرر استمرار الانجليز فى احتلال قناة السويس إلى سنة ١٩٥٦ .

ولكنه بالرغم من إعلان إنجلترا تمسكها بمعاهدة ١٩٣٦ ، يظهر أن الحكومة الانجليزية لم تكن مؤمنة تماماً بقوة حجتها بعد أن أقرت

هى قبل ذلك بخمسة أعوام مبدأ الجلاء التام عن مصر والقناة . ثم ه
لاستطيع أن تفصل نهائياً فى مسألة مصر والشرق الأوسط بمفردها
فلقد انتهى الوقت الذى كان فيه لانيجلترا سياسة مستقلة فى هذه المنطقة
من العالم . ولذا أسرعنا إلى حلفائنا من الأمريكيين والفرنسيين ؛
والأترك تطلب منهم التأييد لسياستها والنجدة لحل المشكلة المصرية
فتقدمت هى وحلفاؤها بمشروع الدول الأربع . (أنظر الملحقات)
وينص ذلك المشروع على إنشاء قيادة متحالفة للشرق الأوسط
تشارك فيه الدول التى تريد وتستطيع الدفاع عن الشرق الأوسط
وتشارك مصر فى هذه القيادة المتحالفة على أساس المساواة .

وعندئذ توافق انجلترا على سحب القوات البريطانية التى لا تخص
للقيادة المتحالفة ، وتقدم مصر فى أراضيها التسهيلات الاستراتيجية
والدفاعية ، ويدخل فى هذا فى حالة الحرب استخدام الموانئ والمطارات
والمواصلات المصرية ، كما تكون مصر مقر القيادة العليا المتحالفة
وتسلم القاعدة البريطانية فى قناة السويس بصفة رسمية إلى مصر
ولكنها تصبح قاعدة مشتركة للدول المشتركة فى التحالف ، ويكون
لمصر نصيب فى إدارتها ووقى الحرب والسلم .

وبنى ذلك المشروع على أساس أن الدفاع عن الشرق الأوسط
ضد العدوان الخارجى أمر حيوى للعالم الحر أى المعسكر الغربى ، ولز
يكون هذا الدفاع عملياً إلا بالتعاون مع الدول التى يهمها الأمر .

ولقد وجدت الحكومة المصرية أن ترفض هذه المقترحات . . .

نص مشروع الدول الأربع :

« يتشرف السفير البريطاني بناء على تعليمات من (حكومته) . . . بأن يقدم إلى الحكومة المصرية مقترحات لتسوية الخلافات القائمة بين مصر والمملكة المتحدة في مسألة وجود قوات بريطانية في منطقة قناة السويس ، وفي مسألة الدفاع بوجه عام ، وبمقتضى هذه المقترحات التي توافق عليها حكومات تركيا وفرنسا والولايات المتحدة موافقة تامة وتأييدها ، فتقام هذه المسائل على أساس هيئة للدفاع عن الشرق الأوسط تساهم فيها مصر كشريك مع الدول الأخرى التي يهملها الأمر .

وكانت الحكومة المصرية قد أبلغت بوضوح أن اقتراحات بعيدة المدى لتسوية هذه المسائل كانت على وشك أن تقدم إليها عندما عمدت في ٨ أكتوبر إلى تقديم تشريع لإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ الإنجليزية المصرية وإتفاقيتي سنة ١٨٩٩ بشأن الحكم الثنائي في السودان .

وعلى الرغم من حيرة حكومة جلالة الملك في إدراك العمل الذي قامت به الحكومة المصرية ، ولا يمكنها الاعتراف بشرعيته ، إلا أنها قررت بالاتفاق مع حكومات تركيا وفرنسا والولايات المتحدة أن تقدم إلى الحكومة المصرية هذه المقترحات ، بأمل أن تعبرها أكبر قسط من العناية الجدية وإظهار مبلغ ما أوليت هذه المسائل من دراسة دقيقة ومدى استعداد حكومة جلالة الملك متحدة مع سائر الحكومات

التي يهيمها الأمر ، للسير في سبيل رغبته للملاقاة آمال مصر الوطنية ،
جهة ، واحتياجات الدفاع عن هذه المنطقة الهامة من جهة أخرى .

١ - إن مصر دولة من ذل العالم الحر ، وبالتالي فإن الدفاع
وعن الشرق الأوسط عموماً أمر حيوى لها وللأمم الديموقراطية
على السواء .

٢ - لا يمكن تأمين الدفاع عن مصر وعن الدول الأخرى
الشرق الأوسط ضد العدوان الخارجى إلا بالتعاون بين جميع
الدول التي يهيمها الأمر .

٣ - لا يمكن ضمان الدفاع عن مصر إلا عن طريق الدفاع الفعا
عن منطقة الشرق الأوسط وتنسيقه مع الدفاع عن المناطق المتاخمة .

٤ - بناء على ذلك يبدو من المرغوب فيه إنشاء قيادة متحال
للشرق الأوسط ، تشترك فيها الدول القادرة على الدفاع عن المنطقة
والراغبة في المساهمة فيه ، وإن المملكة المتحدة والولايات المتحدة
وفرنسا وتركيا مستعدة لأن تشترك مع الدول الأخرى التي يهيمها الأمر
في إنشاء مثل هذه القيادة فضلاً عن أن استراليا ونيوزيلندا واتحاد
جنوب إفريقيا قد أعربت عن اهتمامها بالدفاع عن هذه المنطقة
ووافقت من حيث المبدأ على الاشتراك في القيادة .

٥ - مصر مدعوة للاشتراك كعضو مؤسس في القيادة المتحالفة
للشرق الأوسط ، على أساس المساواة والمشاركة مع الأعضاء المؤسسين
الأخرين .

٦ - إذا كانت مصر مستعدة للتعاون الكامل في هيئة القيادة المتحالفة للشرق الأوسط وفقاً لأحكام الملحق المرافق ، فإن حكومة جلالة الملك تكون من جانبها راغبة في الموافقة على أن تسحب من مصر تلك القوات البريطانية التي لا تخصص للقيادة المتحالفة للشرق الأوسط ، باتفاق بين الحكومة المصرية وحكومات الدول المشتركة كذلك ، كأعضاء مؤسسين في هيئة القيادة المتحالفة للشرق الأوسط .

٧ - وفيما يختص بالقوات المسلحة المزمع وضعها تحت تصرف القيادة المتحالفة للشرق الأوسط ، وتقديم التسهيلات الضرورية للدفاع الاستراتيجي إلى هذه القيادة كالقواعد العسكرية والجوية والمواصلات والموانئ ... الخ ، فإنه ينتظر من مصر أن تبذل مساهمتها على قدم المساواة مع الدول الأخرى المشتركة .

٨ - وتمشياً مع روح هذه الترتيبات ، تدعى مصر لقبول مركز عال من حيث السلطة والمسئولية في القيادة المتحالفة للشرق الأوسط ولتعيين ضباط مصريين لإدماجهم في هيئة أركان حرب القيادة المتحالفة للشرق الأوسط .

٩ - ستقدم إلى مصر التسهيلات لتدريب وإعداد قواتها من قبل الأعضاء المشتركين في القيادة المتحالفة للشرق الأوسط الذين هم في مركز يسمح بتقديمها .

١٠ - ستضع الدول التي يهمها الأمر فيما بعد ، بالتشاور فيما بينها ،

النظام التفصيلي للهيئة المتحالفة للدفاع عن الشرق الأوسط ، وتحدد علاقاتها بهيئة معاهدة شمال الأطلنطي ، ولهذا الغرض يقترح أن يرسل جميع الأعضاء المؤسسين للقيادة المتحالفة للشرق الأوسط ممثلين عسكريين إلى اجتماع يعقد في المستقبل القريب بغرض إعداد مقترحات تفصيلية لعرضها على الحكومات صاحبة الشأن .
ملحق :

١ - بالمساهمة مع الدول الأخرى المشتركة التي تساهم بقسط مماثل في الدفاع عن المنطقة :

(١) توافق مصر على أن تمنح قيادة الشرق الأوسط المقترحة على أرضها تسهيلات للدفاع الاستراتيجي وجميع التسهيلات الأخرى اللازمة لتنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط وقت السلم .

(ب) وتتعهد مصر بأن تمنح قوات القيادة المتحالفة للشرق الأوسط جميع التسهيلات والمساعدات الضرورية في حالة الحرب أو التهديد بحرب وشيك أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها بما في ذلك استعمال المواني والمطارات ووسائل المواصلات .

٢ - ويؤمل كذلك أن توافق مصر على أن تكون قيادة القائد الأعلى للحلفاء في أرضها .

٣ - تمشياً مع روح هذه الترتيبات يكون مفهوماً :

(١) أن تسلم إلى مصر رسمياً القاعدة البريطانية الحالية فيها ، على أن يكون مفهوماً أنها تصبح في نفس الوقت قاعدة للحلفاء تتبع القيادة

المتحالفة في الشرق الأوسط مع اشتراك مصر اشتراكاً تاماً في إدارتها في وقت السلم وفي وقت الحرب .

(ب) يحدد من وقت لآخر بمعركة الأمم المشتركة بما فيها مصر عدد القوات المتحالفة للأمم المشتركة التي ترابط في مصر وقت السلم ، وذلك تبعاً لأطراد نمو القوات التابعة للقيادة المتحالفة في الشرق الأوسط .

٤ - ويكون مفهوماً كذلك أن تنشأ هيئة للدفاع الدولي تضم قوات مصرية ومتحالفة تحت قيادة ضابط ذي مسئوليات مشتركة نحو الحكومة المصرية والقيادة المتحالفة في الشرق الأوسط ، وذلك لحماية مصر وقاعدة الحلفاء .

١٣ أكتوبر سنة ١٩٥١

١٠ - الجلاء الانجليزى عن القناة

فى صيف سنة ١٩٥٢ انتهى العهد القديم فى مصر وافتتحت مصر صفحة جديدة فى حياتها ، فلقد جاءت الثورة منصوره وثبتت أقدامها فى وادى النيل . وكان هدفها الخارجى الأول هو تحرير السودان ومصر من قيود التسلط الانجليزى ونجحت الثورة فى أن تعيد للسودان وجدته وأن تحقق له حقه فى تقرير مصيره .

ولقد شجعت اتفاقية السودان الجانبين المصرى والانجليزى على الدخول فى مباحثات فيما يختص بموضوع قناة السويس والجلاء ، فلقد ذكر بمناسبة ذلك الاتفاق ، أنه يفتح صفحة جديدة فى علاقة مصر بالمملكة المتحدة تعيد الثقة بينهما وسيكون لها أثرها فى حسم المسائل المعلقة بين البلدين .

فكان الجو الذى سبق المباحثات جو تفاؤل يحوطه التحفظ والاستعداد من الجانب المصرى ، فبدأت المباحثات فى الوقت الذى بدأت فيه معسكرات التدريب فى تخريج الفدائيين . وكانت مصر تؤمل أن تؤيد الولايات المتحدة مطالب المصريين وأن تقنع انجلترا بالنظر إلى مسألة القناة نظرة عملية ترضى الجانب المصرى ، فيقول قائد الثورة جمال عبدالناصر فى خطابه الذى يستمرض فيه موقف الولايات المتحدة

بإزاء الشرق الأوسط في (١/٣/٥٣) « وتستطيع أمريكا أن تكسب صداقتنا بالعون المخلص وحده ، وبالعمل بالمبادئ السامية التي أشعلتها ثورة التحرير الأمريكية ... وبالعمل الصادق بمقتضى ميثاق تصفية الاستعمار » .

ولقد وضحت الثورة شروط مصر قبل بدء المفاوضات أيام وهي :
أولاً : جلاء غير مشروط ، ثانياً : عدم استعداد مصر لمناقشة أية منظمة للدفاع المشترك . ثالثاً : ضرورة الاحتفاظ بالمعدات العسكرية والجوية الموجودة بالقناة . رابعاً : رغبة مصر في السلام . خامساً : إصرار مصر على حقوقها المستمدة من حق الشعوب الطبيعي في الحرية والاستقلال والمستندة إلى ميثاق الأمم المتحدة » .

وقامت المباحثات وعلى رأس الجانب المصرى قائد الثورة جمال عبد الناصر ، وعلى رأس الجانب البريطانى سير رالف ستيفنسون ، وفى أثناء هذه المباحثات ذكرت أسماء نهرو رئيس وزارة الهند وظفر الله خان وزير خارجية باكستان ومستر كافرى السفير الأمريكى فى مصر كساسة حاولوا التقريب بين وجهتى النظر المصرية والإنجليزية .

وذكر لنا جمال عبد الناصر فى وضوح وصرامة فى (٥/٥/٥٣) موقف الجانبين فى المفاوضات ونتيجتها فىقول : « مصر طلبت أثناء المباحثات التى توقفت بسبب عنت السياسة البريطانية ما باتى :

أولاً - جلاء القوات البريطانية ويبلغ عددها ... ثمانين ألف مقاتل ، بينما تنص معاهدة ١٩٣٦ الملغاة والتي تمسك بها بريطانيا على ألا يزيد عدد هذه القوات على عشرة آلاف مقاتل ، ولست بصدد تعداد خرق البريطانيين لنصوص المعاهدة التي ألغتها مصر بسبب اعتبار البريطانيين إياها وثيقة كلها حقوق لم يتجاوزوها كما يقولون ، وبسبب تناقضها مع روح العصر ومع ميثاق الأمم المتحدة .

ثانياً - لم نمانع في بقاء العدد الضروري فعلا من الفنانين الأجانب الذين لا يمكن توافرهم في المصريين للقيام بالأعمال الفنية اللازمة للاحتفاظ بالقاعدة في مستوى نشاطها العادى ، على أن يكونوا تحت السيطرة المصرية ، وأن يقوم هؤلاء الفنانون الأجانب بتدريب المصريين ليحلوا محلهم ، فى فترة محدودة من الزمن يتفق عليها ، مع مراعاة مصلحة القاعدة . على أن الحكومة البريطانية بينت لنا النوايا السيئة فهمي تريد أن تستغل من مسألة الفنانين اللازمين للقاعدة وسيلة لجعل الاحتلال البريطانى غير المشروع لمصر احتلالا شرعياً وأبدياً . إنهم يوافقون على مبدأ السيادة الاسمية لمصر على القاعدة على أن تشرف عليها وتديرها لندن ، ثم يصرون على فرض هؤلاء الفنانين على مصر إلى الأبد ، ويشترطون أن يكونوا من العسكريين البريطانيين وأن تكون لهم السيطرة الكاملة ...

وليعلم العالم أننا أول من يهمل الاحتفاظ بقاعدة قناة السويس

في مستوى عملي فعال ، بل يهمننا أكثر من غيرنا أن تعزز هذه القاعدة وتقوى حتى لا تتعرض لاحتلال أو سيطرة أخرى في المستقبل . . .
ولهذا لن نقبل بأي حال من الأحوال أن تكون هذه القاعدة وسيلة لاستمرار الاحتلال البريطاني أو إبقاء أي سيطرة لنفوذ الاحتلال . .
وكان نتيجة لذلك أن قطعت الأحاديث الرسمية وقتاً ولكن الحكومة البريطانية لم تعلق باب المفاوضات نهائياً ، بالرغم من أن جانباً من النواب المحافظين وصل عددهم إلى واحد وأربعين هاتهم مطالبة الثورة المصرية انجلترا بالجلء الناجز ، فأجمعوا أمرهم فيما بينهم وأعلنوا تمردهم على خطة حكومة المحافظين ، ونادوا بخلق باب المفاوضات حتى تتقدم مصر بشروط معقولة في نظرهم . لقد أعلن هؤلاء المتمردون أن انسحاب انجلترا من قناة السويس سيكون أسراً وخيم العاقبة ، وكالوا الاتهامات لمصر فقالوا : إنها أخلت باتفاقية السودان وخلفت مبدأ حرية الملاحة في القناة وأنها - أي مصر - قد أعلنت مراراً عداها لانجلترا ، وتساءلوا عن المناطق التي يستطيع الجنود الانجليز الجلء إليها ، واقترحوا توفيراً للنفقات الباهظة التي تتحملها انجلترا كل عام تقليل عدد القوات لإجلءها ، فهم يرون ضرورة بقاء انجلترا في القناة مادامت في نظرهم سلامة القناة غير مضمونة ، وقال قائلهم : إنه يجب على بريطانيا الاحتفاظ بقواعد ومطارات وتسهيلات كافية في موانئ القناة ، وأن يكون بها عدد كاف من البريطانيين لتشغيلها ، وأنه يجب لذلك الاحتفاظ بوحدات مقاتلة

قوتها كافية وأن تكون بريطانيا هي الحكم الوحيد في هذا الأمر .
لم يأخذ تشرشل رئيس الحكومة البريطانية برأى هؤلاء النواب
فهو يعترف أن من صالح بريطانيا « عسكرياً ومالياً ، العمل على إعادة
توزيع القوات الانجليزية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا . يؤيده
ذلك زعيم المعارضة كلنت إمتلى الذي صرح « بأن مركز قناة السويس
مهم كطريق دولي وبأنه لأمر خطر أن تغلق القناة بإدارة الحكومة
المصرية ورغبتها . . . إننا لا نريد إبقاء قوات كبيرة في مصر ، ولكننا نهتم
اهتماماً حيوياً بالسلم في الشرق الأوسط كله ، وأنه من الخطر أن يؤدي
انسحابنا من منطقة القناة إلى زيادة قوة إحدى دول الشرق الأوسط
زيادة غير مقبولة . »

فن مصلحة إنجلترا إذن كما ترى المعارضة وكما بين وزير الخارجية
إيدن السير قدماً في المباحثات وعدم قطعها حرصاً على السلام في الشرق
الأوسط .

وكانت الحكومة البريطانية ترى أن واجباً على العالم الحر وخاصة
الولايات المتحدة تأييد وجهة النظر الانجليزية ، على أساس أن إنجلترا
في موقفها بإزاء القناة إنما هي تدافع عن مصالح العالم الحر جميعه . على أن
الولايات المتحدة وإن كانت قد وافقت على إطلاق يد إنجلترا في الشرق
الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها إلا أنها أخذت ترى سوء
مغبة هذه السياسة ، وأخذت ترعى مسائل الشرق الأوسط بعناية أكبر

نظر أنتم مصالحها البترولية في هذه المنطقة من ناحية ، ولنمو الشعور القومي العربي من ناحية أخرى ، ولل فشل الذي أصاب الامبريالزم الفرنسي والإنجليزى في هذا الجزء من العالم ، ذلك الفشل الذي ربما أدى إلى نمو النشاط الشيوعي وزيادة نفوذ روسيا السيامى ، وهذا ما تفرع منه الولايات المتحدة . ولكن الولايات المتحدة كان يهملها مع ذلك أن تصل الدولتان مصر وانجلترا إلى تسوية سلمية وبهذا يتحقق سلام الشرق الأوسط واستقراره .

وكانت الظروف إذن ميسرة لعودة المفاوضات من جديد ، ولكنها عادت وتعثرت مرة أخرى وتوقفت ، مما أدى برجال الثورة إلى التفكير جدياً في «إتباع سياسة عدم التعاون مع انجلترا» ، وكما يقول عبد اللطيف البغدادى موضحاً (الاهرام ٢٢ فبراير ١٩٥٤) «والقصد إقرار سياسة عدم التعاون مع انجلترا كخطوة أولى في كفاحنا لنيل استقلالنا ، هو أن تصبح قاعدة القتال ، بعد أن انقطع الأمل نهائياً في حل هذه القضية ... دون أى فائدة لانجلترا ... فإنها لن تجد اليد العاملة اللازمة لتشغيلها أو طرق المواصلات الحديدية والبرية والبحرية والموانى اللازمة لها ، ولن تحصل على المواد التموينية اللازمة لقواتها ... أما موعد تنفيذ هذه السياسة في وقت السلم تنفيذاً شاملاً كاملاً فسيكون عند ما نستكمل استعداداتنا لخوض معركة التحرير ...»

. ولكن الظروف الدولية ومصالح الفريقين ستدعو مرة أخرى

إلى استئناف الفريقين المفاوضات ومحاولة الوصول إلى اتفاقية مرضية لكل منهما . فن ناحية الجانب المصرى رأت الثورة أن مصلحة البلاد تقتضى تدعيم مركزها الخارجى حتى تستطيع توجيه نشاطها إلى معالجة شئون البلاد الداخلية ، ولا مفر لمصر من أصدقاء يؤيدونها فى معترك السياسة الدولية . فلا تستطيع دولة فى الوقت الحاضر المعيشة فى عزلة سياسية أو إقتصادية ، وخاصة دولة كمصر بما لها من موقع جغرافى ممتاز تعمل حكومتها جاهدة على تشجيع دخول رؤوس الأموال الأجنبية . وأما من ناحية الجانب الآخر فيظهر أن الولايات المتحدة الأمريكية التى يهيمها استقرار الأحوال السياسية والإقتصادية والإجتماعية فى الشرق الأوسط قد لعبت دوراً فى إقناع إنجلترا بضرورة الوصول إلى إتفاق معقول مع مصر ، فصالح الولايات المتحدة البترولية كانت من الأسباب الداعية إلى الإتفاق مع إنجلترا فى مسائل الشرق الأوسط البترولية والسياسية من ناحية وإلى التعاون مع الدول العربية التى بها منابع البترول والتى تحتل بينها مصر مركزاً ممتازاً ، وإلى مكافحة النفوذ الشيوعى فى الشرق الأوسط ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

ولما كانت دول الجامعة العربية قد أعلنت تساندها مع مصر وأنها يهيمها تسوية مسألة القناة تسوية مرضية لمصر ، رأت الولايات المتحدة أن ليس من مصلحتها تأييد الامبريالزم البريطانى فى كل تصرفاته ، كما رأت من واجبها إقناع إنجلترا بالعدول عن موقفها المتصلب بإزاء القناة .

ولعل أكبر دليل على اهتمام الولايات المتحدة بوصول الطرفين إلى اتفاق تصريح مستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية مباشرة بعد عقد الاتفاق بين مصر و إنجلترا ، بأن الحكومة الأمريكية قد بذلت جهداً كبيراً في سبيل إبرامه ، لأن حكومة أيزنهاور كانت تعد مشكلة قناة السويس من أخطر المسائل التي واجهتها ، وأن الحكومة الأمريكية قد طلبت بالفعل إلى كل من الجانبين أن يعمل بمجد وعناية لإيجاد حل للمشكلة . وأضاف دلاس إلى ذلك أن هذه المشكلة كانت موضع بحث كل مؤتمر عقد بين إنجلترا وأمريكا ، كما كانت موضع الإهتمام الشخصي لجيفرسون كافري سفير أمريكا في مصر . لقد حاولت الولايات المتحدة أن تقنع إنجلترا بأن الموافقة على الجلاء ليس فيها فقط توطيد لدعائم السلام في الشرق الأوسط ورعاية مصالح الدولتين وإنما فيها إطلاق يد بريطانيا في استخدام قواها الكبيرة المراقبة في القناة في جهات أخرى ، إذ أن القناة قد فقدت جانباً من قيمتها الحربية والاستراتيجية بعد التقدم الكبير الذي تم في الأسلحة الذرية . ومن ناحية ثالثة سيسمح هذا الاتفاق لحكومة الثورة المصرية بأن تركز اهتمامها في الأمور المتعلقة بالنهضة الاجتماعية والاقتصادية بما يؤدي إلى استقرار الأحوال في مصر وبالتالي في الشرق الأوسط .

وأما من ناحية إنجلترا ، فلقد رأت وزارة المحافظين وكانت غير مستريحة في مقاعدها الوزارية ، فهناك هذه الأغلبية الضئيلة العدد

التي أجلسها في كراسي الحكم ، وهناك الرغبة في الحزب ذاته في إدخال عناصر جديدة في الوزارة لتدعيمها قبل مواجهة الانتخابات القادمة ، رأت وزارة المحافظين أن الاستمرار في العناد ومقاومة مطالب مصر المشروعة لن يؤدي إلى نتيجة عملية مفيدة . فصر الثورية قد أصبحت قوة يعتد بها واثقة بنفسها متمسكة بقضيتها . وانتهى العهد الذي كانت انجلترا تستطيع فيه التدخل في تعيين الوزارات أو المحافظة عليها أو استخدام حزب ضد حزب آخر لمصلحتها الخاصة ، فلقد انقضى عهد الأحزاب القديمة في مصر .

ومن ناحية ثانية كانت وزارة المحافظين مطمئنة إلى حتما إلى موقف حزب العمال فلقد أبدى رجال من أمثال اتلي وانيورن بيقان آراءهم بأنهم لن يعارضوا فكرة الجلاء بل إنهم يؤثرون الاتفاق مع مصر بصدد . واقد أخذ معظم حزب العمال بهذا الرأي .

كذلك وجدت انجلترا في ذلك الوقت أن الدفاع عن مركزها في الشرق الأوسط ومصالحها البترولية يستدعي شيئاً من التقارب مع مصر والتنازل عن سياسة الامبريالزم القديمة ، فالتمسك بها ربما قوى من نفوذ روسيا ، وربما أطاح بما لانجلترا من مركز في هذه المنطقة من العالم ، فلقد زلزل النفوذ الشيوعي مركز انجلترا في إيران ، وكان من العوامل التي أدت إلى تأميم البترول الإيراني ، لاسيما بعد أن نجح الشيوعيون نجاحاً مدوياً في الصين وفي جنوب شرق آسيا ، فنالت

سياسة الامبريالزم الاوربي أكبر لطمعة عرفتها بعد الحرب الكبرى الثانية .

مهدت الظروف الدولية إذن للتفاهم بين مصر وانجلترا ، فكان كل ما ترغّب فيه حكومة الثورة هو إرضاء أمانى مصر القومية بجلاء القوات الانجليزية عن القناة واستكمال سيادة مصر على أراضيها وعدم التقييد بمواثيق للدفاع المشترك وفتح أسواق السلاح العالمية أمامها ، وأما الولايات المتحدة فكان يهمها الاستقرار السياسى والاجتماعى فى الشرق الأوسط ، وما ترغّب فيه انجلترا هو المحافظة على مصالحها البروتولية وبقاء القناة مفتوحة أمام كل السفن فى وقتى السلم والحرب .

فلا عجب إذ قامت المفاوضات بين المصريين والإنجليز فى جو أكثر تفاؤلاً من ذى قبل ، وكان يرأس الجانب المصرى رئيس مجلس الوزراء جمال عبد الناصر ، وأما الجانب الإنجليزى فكان على رأسه سير رالف ستيفنسون السفير البريطانى وظهرت أول بادرة علنية لاستعداد انجلترا لمقابلة مطالب مصر حين بين ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية فى ١٤ يولية فى لجنة الجيش التابعة لحزب المحافظين بأن الوقت قد حان لكي تسحب بريطانيا قواتها من منطقة قناة السويس معلناً بأن تغير الظروف بعد أن أمكن صنع القنابل الهيدروجينية هو الذى يملئ مثل هذه السياسة . ولم يعر أكثر أثاثاً كبيراً لاحتجاج بعض النواب المعارضين بأن انسحاب انجلترا من القناة قد يستتبع فقدان كرامتها فى الشرق الأوسط

أو لتقريرهم التصويت ضد أى اتفاق تعقده حكومته مع مصر يكون من شأنه جلاء كل القوات الإنجليزية عن القناة .

وكانت جلسة البرلمان الإنجليزي في ١٤ يوليو موضحة لموقف الحكومة البريطانية وحزب العمال من حيث مسألة الجلاء ، فتنشر شل بين للجلس في غير مواربة ولا غموض استئناف المفاوضات مع مصر للوصول إلى تسوية لهذا الموضوع . ولمح للدور الذي قامت به الولايات المتحدة في هذا الموضوع . فقال « إنه أصبح يرى أن للولايات المتحدة مصالح استراتيجية في مصر وفي قناة السويس باعتبارها مجرى مائياً دولياً ، وأنه أصبح يرى ألا تختص بريطانيا وحدها بتحمل المسؤولية فيما يتعلق بهاتين النقطتين ، وتكلم عن « اهتمام الولايات المتحدة بهذه المنطقة وخاصة بعد التوسع في الجناح الجنوبي للحلف الأطلنطي ، وهو التوسع الذي جعل هذا الجناح يمتد إلى تركيا ، ، فلم تعد إنجلترا إذن ترى لزماً عليها وحدها الدفاع عن مصالح العالم الحر في هذه المنطقة ! ثم ذكر السبب الذي دعا إلى تغيير رأيه القديم بأن « الأهمية الاستراتيجية لمصر وقناة السويس قد انضاءت كثيراً بعد الكشف الحديثة في ميدان الذرة . . . »

ولا تخلو مناقشات مجلس العموم البريطاني من طرافة ، ولذا لا بأس من الإشارة إليها هنا . فلقد لاحظ النائب ووترهاوس من المحافظين أنه واجب على إنجلترا أن تستعمل شيئاً من الحزم في إقناع مصر بضرورة

بقاء قوة انجليزية في القناة وذلك نظير قيام إنجلترا بمساعدة مصر في الناحية المالية ، وعلى استغلال موارد البلاد الطبيعية ، فهو بذلك يناوئ فكرة الجلاء التام .

وأما النائب العمالي بلنجر فلقد رأى أن منطقة الشرق الأوسط لم تعد لها قيمتها الاستراتيجية التي كانت لها سنة ١٩٣٦ . وأنه إذا كانت الولايات المتحدة قد أبدت رغبتها في الاشتراك في ضمان سلامة الشرق الأوسط . فلا غبار على إنجلترا إذا انسحبت من قناة السويس بعد أن ظلت وحدها تتحمل مسئولية الدفاع عن هذه المنطقة .

وقال تشارلس موت راتكليف وهو من النواب المحافظين ، (ويظهر أنه كان على علم بما تنوى إنجلترا عمله . وكلف بإعداد الأذهان في إنجلترا للاتفاقية المقبلة) . إن مهمة القوات البريطانية الآن هي المحافظة على نفسها ، وإنه يفضل الوصول إلى اتفاق مع مصر ينص على صيانة بعض معدات قاعدة قناة السويس وعلى حق العودة إليها بشروط خاصة .

وأما النائبان المحافظان أمري وآشتون ، فلقد نعبا على الحكومة الإنجليزية التفكير في الجلاء ، لأن الانسحاب سيؤم في نظرهما العالم العربي بأن بريطانيا قد ولت الأدبار أمام الضغط والإرهاب المصري ، وأنه ينبغي على إنجلترا الدفاع عن مصالحها الإفريقية ، وإلا نشأ في هذه المنطقة فراغ لا تستطيع غير الشيوعية ملئه .

وأما النائبة العمالية بربارا كامبل . فلقد أبانت بصراحة عن السر في

تحويل تشرشل عن رأيه القديم ، فكما قالت إن السر هو ضغط الولايات المتحدة ، وعلى أى حال كان رأى المعارضة أن تستمر الحكومة فى محاولتها لتسوية مسألة مصر .

واختتم سلوين لويد المناقشة بالإشارة إلى الحالة السيئة فى القناة وأن الحكومة البريطانية قد تشاورت مع دول الكومنولث ، وأنه غير المفيد لـإنجلترا أن تحتفظ بقوات معادية فى بلاد لا تريد ها . وقا إنه لتلك الأسباب مجتمعة وافقت إنجلترا على مقترحات معقولة .

ولقد وضحت رغبة إنجلترا فى التفاهم مع مصر بوصول مستر أنطون هيد وزير الحرية البريطانية إلى مصر . فلقد حمل إلى القاهرة نتائج دراس مجلس الوزراء البريطانى لتطورات الموقف والمباحثات . واستطاع الفريقان أخيراً الوصول إلى اتفاق ، وفى ليلة ٢٩ يوليو أذاع الرئيس جمال عبد الناصر الكلمة التاريخية الآتية على الشعب المصرى : « أيها المواطنون . إننا نعيش الآن لحظة مجيدة فى تاريخ وطننا ، إننا نقف الآن على عتبة مرحلة حاسمة من مراحل كفاح شعبنا . لقد وضع الهدف الأكبر من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلى ، فقد وقعنا الآن بالأحراف الأولى اتفاقاً ينهى الاحتلال وينظم عملية جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر الخالدة ، وهذه هى الخطوط الرئيسية للاتفاق ١ — تم الاتفاق بين الوفدين المصرى والبريطانى على أنه رغبة فى قيام العلاقات المصرية الانجليزية على أساس جديد من التفاهم المتبادلا

والصداقة الوطيدة ، ومع مراعاة التزاماتها بمقتضى ميثاق الأمم المتحدة قد أصبح من الضروري الآن إعداد مشروع اتفاق خاص بقاعدة قناة السويس على النحو التالى .

٢ - يسرى الاتفاق حتى نهاية سبع سنوات من تاريخ توقيعه . وتشاور الحكومتان خلال الاثنى عشر شهراً الأخيرة من هذه المدة لاتخاذ ما قد يلزم من تدابير عند انتهاء الاتفاق .

٣ - تبقى بعض أجزاء قاعدة قناة السويس الحالية فى حالة صالحة ، وفقى الحاجات الميئنة فى ملحق رقم (١) ، وتكون معدة للاستخدام مباشرة وفقى الفقرة التالية .

٤ - (١) فى حالة حدوث هجوم مسلح من دولة أجنبية على مصر ، أو على أى بلد عربى ، يكون عند توقيع هذا الاتفاق طرفاً فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية ، أو على تركيا ، تقدم مصر للمملكة المتحدة من التسهيلات ما قد يكون لازماً لتهيئة القاعدة للحرب وإدارتها إدارة فعالة . وتتضمن هذه التسهيلات استخدام الموانئ المصرية فى حدود الضرورة القصوى للأغراض السالفة الذكر .

(ب) فى حالة قيام تهديد بهجوم على أى بلد من البلاد السالفة الذكر يجرى التشاور فوراً بين حكومة المملكة المتحدة والحكومة المصرية .

٥ - يكون تنظيم القاعدة وفقاً للملحق رقم (١) المرافق .

٦ - تمنح الحكومة المصرية لحكومة المملكة المتحدة حق نقل أية

مهمات بريطانية من القاعدة أو إليها حسب تقديرها بحيث لا تزيد هذه المهمات على القدر الذى سيتم الاتفاق عليه [إبموافقة الحكومة المصرية.

٧ - يتم جلاء جميع قوات جلالة الملكة جلاء تاماً عن الأراضى المصرية فى مدة لا تزيد على عشرين شهراً من تاريخ توقيع هذا الاتفاق، وفقاً للجدول الذى يتفق عليه فى أقرب وقت وتقدم الحكومة المصرية جميع التسهيلات اللازمة لهذا الغرض لنقل الجنود والمعدات .

٨ - يقرر هذا الاتفاق أن قناة السويس البحرية ، التى تعد جزءاً لا يتجزأ من مصر، هى طريق مائى له أهمية دولية من النواحي الاقتصادية والتجارية والاستراتيجية ، ويعبر عن تصميم كل من الطرفين على احترام اتفاق سنة ١٨٨٨ الذى يكفل حرية الملاحة فى القناة .

٩ - تقدم الحكومة المصرية التسهيلات الخاصة بالطيران والنزول والصيانة للطائرات التى يتم الإخطار عنها وتكون تابعة لسلاح الطيران الملكى ، وتمنح الحكومة المصرية شرط الدولة الأكثر رعاية للطائرات المسموح بها .

١٠ - تبحث المسائل التفصيلية الباقية عند صياغة الاتفاق ومن بينها تخزين البترول والتدابير المالية الضرورية وغير ذلك من المسائل التفصيلية التى تهم كلا من الجانبين وتسوى هذه المسائل بالاتفاق الودى فى مفاوضات تبدأ فوراً .

ملحق رقم (١) تنظيم القاعدة :

١ - تمنح الحكومة المصرية حكومة صاحبة الجلالة الملكة حق إبقاء بعض المنشآت التي سيتفق عليها ، وإدارتها للأغراض المعتادة ، فإذا رغبت حكومة صاحبة الجلالة في أى وقت ألا يحتفظ بجميع هذه المنشآت ، فإنها تبحث مع الحكومة المصرية كيفية تصفية المنشآت التي لم تعد بحاجة إليها ، ويتعين الحصول على موافقة الحكومة المصرية لإقامة منشآت جديدة .

٢ - تأخذ الحكومة المصرية على عاتقها عقب جلاء قوات صاحبة الجلالة مسئولية تأمين القاعدة وجميع المعدات الموجودة فيها أو التي تكون في طريقها في الأراضي المصرية من القاعدة أو إليها .

٣ - تعقد حكومة جلالة الملكة عقوداً مع شركة أو أكثر من الشركات التجارية البريطانية أو المصرية لحفظ المنشآت المشار إليها في الفقرة (١) وإدارتها وكذلك صيانة المخازن الموجودة داخل تلك المنشآت ، ولهذه الشركات التجارية أن تستخدم فنيين وموظفين من البريطانيين والمصريين المدنيين على ألا يزيد عدد الفنيين البريطانيين الذين تستخدمهم تلك الشركات التجارية على العدد الذي سيتفق عليه في المفاوضات التفصيلية ، ولهذه الشركات التجارية أيضاً أن تستخدم ما يلزمها من العمال الفنيين .

٤ - تقدم الحكومة المصرية المعونة الكاملة للشركات التجارية

المشار إليها في الفقرة (٣) لتمكينها من القيام بمهامها وتعيين الجهة التي تستطيع الشركات الرجوع إليها للتعاون معها على أداء واجباتها .

٥ - تحافظ الحكومة المصرية على المنشآت والمنافع العامة والمواصلات والكبارى وأنابيب البترول وأرصعة الموانى وغيرها بما قد يسلم إليها بمقتضى الاتفاق بين الحكومتين وتمنح الشركات المشار إليها في الفقرة (٣) التسهيلات اللازمة للقيام بأعمالها .

٦ - تمنح الحكومة المصرية لحكومة صاحبة الجلالة ما يلزم من تسهيلات للتفتيش على المنشآت المشار إليها في الفقرة (١) والأعمال الجارية فيها ، ولتسهيل هذه المهمة يلحق بسفارة جلالة الملكة بالقاهرة ما يلزم من موظفين على أن يتفق بين الحكومتين على الحد الأقصى لعدد هؤلاء الموظفين .

وبذلك انتهى احتلال دام اثنين وسبعين عاماً واستطاع رئيس الوزراء أن يعلن المصريين بأن هذه الاتفاقية جاءت لأن مصر تحققت فيها العزة القومية ، ولأن شعب مصر ظهر قوياً متحداً متماسكاً مصمماً على أن ينال حقوقه كاملة ، . وفي خطابه في ٢٩ يوليو يقول : « إن اتفاقنا صريح واضح فأول مرة في تاريخ هذا الوطن الأبى يتقرر خروج آخر جندي انجليزي من بلادنا ، وفي ٢١ أغسطس عاد جمال عبد الناصر في خطاب تاريخي إلى الاتفاقية وتفسيرها والجهود التي بذلتها الثورة في سبيل تحرير البلاد . . . وإلى ما حققته الثورة من « الجلاء الكامل » .

و « عدم الارتباط بأى نوع من التحالف أو الدفاع المشترك » ، ومن أن قاعدة القناة أصبحت « مصرية » وسيشرف عليها الجيش المصرى وستكون تحت قيادة القائد العام ، وستحتلها القوات المصرية . .

لقد شاهدت سنة ١٨٨٢ دخول الجنود الانجليز القناة ونزولهم فى أرضها ، وشاهد صيف سنة ١٩٥٤ بدء رحيلهم عنها . ولعل قيمة هذه الاتفاقية بالنسبة لمصر تظهر فى اعتراف وزير الحرية البريطانية نفسه فى مجلس العموم البريطانى « بأن هذه الاتفاقية لا تتمشى كثيراً مع ما كان لبريطانيا من اسم ومركز وأنه اعاذر لكل من يعارضها ، كما تظهر فى إعلان مستر أتلى رئيس المعارضة بأن شروط هذه الاتفاقية بالنسبة لانجلترا هى أسوأ شروط للجلاء ،

لقد كان رأى العام فى إنجلترا منقسماً فى البرلمان الإنجليزى بإزاء هذه الاتفاقية . فلقد كان حزب العمال بالرغم من قلقه بالنسبة لإسرائيل محبذاً بصفة عامة لها . ولو أن أغلييته امتنعت عن التصويت عليها . وأما فريق الحكومة من حزب المحافظين فلقد انقسم فريقين أغلبية تؤيد الحكومة وأقلية لا زالت متمسكة بفكرة الإمبراطورية القديمة وعدم التنازل عن أى حق من حقوقها واستخدام سياسة الحزم والثبات بدلا من سياسة التنازل والانسحاب . ففى نظرها أن الانسحاب معناه الاستسلام والانهازم وأن ذلك الانسحاب سيؤثر فى مركز إنجلترا وسمعتها فى العالم وأن العواقب ستكون فى المستقبل وخيمة .

وعبر عن رأى الحكومة البريطانية وزير الحرية هيد ورثيد
مجلس الوزراء سير ونستون تشرشل . كان دفاع الحكومة البريطا
عن الانفاقية قائماً على أسس استراتيجية أملت الظروف العالمية الحاض
وأقرها رجال الحرب والسياسة متفقين . وهذه الأسس هي كما قال وز
الحرية : أولاً بجىء القنبلة الهيدروجينية وبعض الأسلحة الذرية الفتا
الأخرى . ولما كانت إنجلترا تتوقع أن تستخدم هذه الأسلحة وة
الحرب فى هذه الحالة تصبح مقدرة إنجلترا تجنيد وتدريب وإرس
قوات إلى الخارج محدودة . وكذلك ستكون المحافظة على هذه القوا
أشق وأصعب . واحتمال استخدام قوات كبيرة فى الشرق الأوسط
وقت الحرب فى المستقبل أمر غير مؤكد . وثانياً دخول تركيا فى حلا
الأطلنطى والتقدم الكبير الذى أحرزته فى النسلح على يد أمر
وحرصها بل وتصميمها على الدفاع عن أراضيها . كل هذا سيسهل
إنجلترا فى تأييدها ومساعدتها ، ويبعد مصر عن منطقة الخطر ويك
من الأصلح على ذلك إنشاء قاعدة قريبة من تركيا . وكذلك سن
كثيراً قيمة قاعدة القناة لإنجلترا إذا كانت معادية لها . فاحتاج
إنجلترا فى الوقت الحاضر والمستقبل هو أن تكون مصر مسالمة لانه
متعاونة معها . فهذا من شأنه تقوية مركز إنجلترا فى الشرق الأوسط .
وثالثاً — إنجلترا الآن قد بعثت قواتها فى منطقة كبيرة وليس
صالحها وليس لديها الاحتياطى الكافى ، فإنجلترا مفيد لها لم شعث قو

المتفرقة في كل مكان . وعلى هذا الأساس فن صالح انجلترا إيجاد قاعدة أصغر والاتفاق مع مصر والشعب المصري .

وبين وزير الحرية البريطانية أن من صالح انجلترا كذلك استخدام مدنيين فنيين في أمر صيانة القاعدة . ولكنه مع ذلك يعترف أن اسم انجلترا وسمعتها يقتضيان غير ذلك الترتيب . ولكن الظروف الحاضرة تملي ذلك . وذكر أن رأى الكولونيل واثرهاوس هو أن نقول لمصر وسنظل في القناة بعشرة آلاف أو خمسة عشر ألف جندي إلى أن تنفق على معاهدة جديدة ملائمة . ولكن رأى وزير الحرية البريطانية أن ذلك ليس بذي عناء لانجلترا بحال من الأحوال إذ أن رجال الحرب لم يوافقوا على تلك الفكرة ، إذ معنى رأى واثرهاوس تركيز قوات بريطانيا في فايد . وهذا يقتضى المحافظة على خطوط مواصلات طويلة وطلب وزير الحرية من أعضاء المجلس أن يحكموا عقولهم لاعواطفهم وأنه يقدر الأسباب والعواطف التي تجعل بعض أعضاء المجلس يرفضون سياسة الحكومة .

وأما زعيم المعارضة كلنت اتلي فلقد عبر عن رأى أغلبية حزب العمال حين قال ، وكانت لهجته متهمكة لاذعة : إنه لا يظن أن الفارق بين القنبلة الهيدروجينية والقنبلة الذرية يبرر تصرف الحكومة هذا ، وتساءل هل قبرص غير معرضة للقنبلة الهيدروجينية ، وذكر أنه آن الوقت لحكومة المحافظين أن ترى صحة وجهة نظر حكومة العمال ،

وعرض بالموقف السابق الذى وقفه تشرشل حين انتقد حكومة العمال
فى هذا الموضوع وذكر أن التأخر فى الموافقة على الجلاء سبب لانجلترا
خسارة جسيمة فى الأموال والأرواح ، كما سبب لها من القلق
ما لا مبرر له . ثم شرح موقف حكومة العمال فقال : إن رأى حكومتهم
العمال كان اعتبار القناة شريان الأمبراطورية بينما نظرت إليه الحكومة
الحاضرة كمجرد مسألة متصلة بهجوم يقع على دول معينة ، ثم أبدى عجزه
كيف أهملت مسألة إسرائيل فى معالجة ذلك الموضوع ، وذكر أن القلق
يعم الآن هذه البلاد ، أى إسرائيل . وذكر أنه لا يظن أن تستخدم
القنبلة الهيدروجينية فى الحرب فى الشرق الأوسط ، وقال بضرورة
وجود فرق من الجنود فى هذه المنطقة .

ولكنه سجل أن المعارضة توافق تماماً على سحب الجنود البريطانيين
من مصر ، وأنه قد بين تكراراً أنه لا قيمة لوجود قوات انجلترا
فى مصر المعادية ، ولكنه لا يعتبر قبرص قاعدة مناسبة ، وأن لانجلترا
واجبات نحو البلاد العربية وتركيا وإسرائيل ومصر . وبين أنه يوجد
الآن فراغ فى الشرق الأوسط وأن حكومة العمال كانت تريد إنشاء قوى
دولية للدفاع عن السلام فى هذه المنطقة ، ولكنه لا يوجد الآن فى هذه
المنطقة شيء فكل ما تعمله انجلترا فى الوقت الحاضر هو أن تلتجئ لما
سمى التحالف البلقانى المكون من يوغوسلافيا واليونان وتركيا . وقال
إنه لا يعتبر أن انجلترا بعملها هذا تقوم بواجبها . وأعلن سخريته من

يصدقون كلام رئيس الوزراء عن المسائل الاستراتيجية وقال إن شروط الجلاء هذه هي أسوأ شروط عرفها ، فستر تشرشل كما يقول أتلى يعرف أنه كان ممكناً الحصول على شروط أحسن في سنة ١٩٥٢ إذا كان قد وقف أمام الرجعيين من أنصاره من أصحاب المقاعد الخلفية وأعلن أن الحكومة بإبرامها هذه الاتفاقية لم تقم بعمل عظيم وليس لها فضل كبير .

ويهم هنا كلام المعارضة من حزب المحافظين الذين يتزعمهم الكولونيل واتر هاوس ، أعلن واتر هاوس أنه يتكلم في حزن وأسف ، ثم انطلق إلى تهكم على إرسال وزير الحرية البريطانية إلى مصر وعلى التعليمات التي يكون قد صحبها معه وذكر أن كل ما كانت تهتم به الحكومة هو إمضاء الاتفاقية مهما كانت شروطها .

وتكلم عن الاتفاقية كورقة هي كل ماجنته انجلترا من مجهود ونصب مدة ثمانين عاماً . وقال إن المسألة لم تكن بيعاً ، وإنما جاءت منحة وتنازلاً ، وأن تصرف الحكومة لم يكن تصرفاً حكيماً ولا محموداً ، فإنا علينا الآن ألا ننسحب بسرعة ونسلم منشآتنا ، لقد دفعنا الحساب وبلغنا ما قيمته ٥٠٠ مليون جنيه للصيريين لكي يستعملوها كما يشاؤون ، وربما استعملوها ضد إسرائيل ، . أعلن واتر هاوس أن هذه المعاهدة صفقة خاسرة لانجلترا وقال « لقد نعى المحافظون على العمال تسليم عبادان ، وهانحن أولاء نسلم قناة السويس ، ثم بين التناقض في القول بأنه إذا كانت

القنبلة الهيدروجينية لها مثل ذلك الخطر والأثر الذي تذكره الحكومة ؛ فلماذا تمسك بحق العودة ؟ وأعلن أن هذا ليس سبباً حقيقياً . .
 والسبب الحقيقي أننا أصبحنا متعبين من تحمل مسئولياتنا ، فنحن نفقد الآن الإرادة للحكم والسيطرة ، وأن الولايات المتحدة هي التي تدفع انجلترا إلى ذلك ، فالولايات المتحدة لا تضمر حباً للأمبراطورية البريطانية . وأما ما قيل من أن الطرفين اتفقا على السير وفق شروط معاهدة سنة ١٨٨٨ فهذا مضحك ، لأن مصر - كما قال - قد خرقت هذه المعاهدة باستمرار في السنوات الأربع الأخيرة ، واختتم كلامه بأن للأمبراطورية مهمة لا بد من تأديتها وأن نسيانها أو إهمالها سيخلق لانجلترا البؤس والشقاء وقال إن بريطانيا في قبرص ستحفر يديها قبر عظمتها .
 وكان الذي اختتم جلسة مجلس العموم وزير الخارجية أنطوني إيدن فذكر أنه بعد أن أصغى إلى المناقشة لم يجد حلاً عملياً واحداً يمكن إحلاله محل الاتفاقية وأن مستر اتلي كان قاسياً في ملاحظاته ، وبين أن مستر اتلي نفسه لم يستطع الاتفاق مع مصر ، وإنما وصلت قوات الاحتلال في القناة إلى ٨٠ ألف في هذه . هذا كل ما استطاعه زعيم المعارضة حين كان في الحكم ، وأنكر إيدن وجود فراغ في الشرق الأوسط فتركيا عنصر مهم من عناصر الدفاع في هذه المنطقة ، وأعلن أن الحكومة لا تريد إنشاء قاعدة في قبرص فهي غير كافية في نظره ، وأعلن أن القاعدة في وقت الحرب إذا اعتدى على تركيا موجودة في مصر . وقال

إن بريطانيا ستشئ مع ذلك قواعد أمامية في منطقة الشرق الأوسط وأنه باتفاقية الجلاء ستكون قادرة على توزيع قواتها وتسهيل حركات جنودها وأن القوات الموجودة الآن في القناة سترجع إلى إنجلترا لتكون احتياطياً مهماً وختم كلامه بأن الحكومة مهتمة بإصلاح علاقاتها مع مصر لأن هذا من شأنه إصلاح الأحوال في الشرق الأوسط وقال إن استراليا رحبت بهذه الاتفاقية ، وأن على مصر الآن بتوقف نجاحها النهائي . .

وأما في مجلس اللوردات فبالرغم من أن كيلرن وهانكي حملتا شعواء على هذه الاتفاقية إلا أن مجلس اللوردات أبدى بصفة عامة ارتياحه لها وأكد لورد سولسبرى الناطق باسم الحكومة في هذا المجلس ضرورة التفاهم مع الولايات المتحدة والتعاون الوثيق معها في كل أجزاء العالم .

وعلى أي حال ففي مجلس العموم الذي دارت فيه المناقشة الحقيقية تحدى ٢٦ نائباً من المحافظين الحكومة وتركوها تحت رحمة حزب العمال ولولا امتناع حزب العمال عن التصويت ضد الاتفاقية لسقطت الحكومة . لقد نالت الحكومة ٢٥٧ صوتاً منهم ستة أصوات من العمال تحدوا أمر اتلي بالامتناع عن التصويت . . ولقد استمرت مناقشة ذلك الموضوع في مجلس العموم خمس ساعات .

ولئن دلت المناقشة التي جرت في ذلك المجلس على شيء فهي تدل

دلالة واضحة على أن الكسب كان حقيقة في جانب مصر وجانب الثورة المصرية .

* * *

وأما الصحف البريطانية فكان بعضها معتدلاً في نقد شروط الاتفاقية أو ربما كانت « الديلي أكسبريس » أعنف صحيفة هاجمت الاتفاقية ، إذ ذكرت أن وزارة المحافظين قد قامت بأكبر استسلام عرفته إنجلترا منذ أن دبر الاشتراكيون وموتباتن مغادرة الهند . وشاركتها في هذه النعمة « النيوز كرونيكل » ، فلقد نشرت تحت عنوان « السويس عرق وبكاء » مقالة ذكرت فيها أن الحكومة البريطانية قضت في البرلمان ليلة أمس أظلم أيام حياتها . إذ كانت تتلقى من جانب نقس العمال اللاذع وسخريتهم ، ومن جانب آخر لوم النواب المحافظين . وضربت صحيفة « الديلي هيرالد » على نفس ذلك التوتر فقالت إن تشرشل قضى ليلة أمس أسود الليالي في حياته السياسية .

ولكنه بصفة عامة فالرأى العام الإنجليزى - كما مثلته الصحافة - كان مرتاحاً إلى الاتفاق مع مصر ، وبذلك انتهت مشكلة ضايقت الرأى الحر الإنجليزى مدة طويلة .

وتستعرض صحيفة المانشستر جارديان الأسبوعية شروط المعاهدة شرطاً شرطاً وبينت السهولة التى تم التمام بها تلك المرة وقالت إن هذه الاتفاقية ستعمل على تخفيف حدة التوتر فى الشرق الأوسط وفى البلاد

العربية . وترى أنه لم يكن من المعقول أن تعطى لانجلترا ، كارت بلانش ،
لتزيد في حجم القاعدة في أى وقت وكما نشاء .

وأما في الخارج فلقد هنأت الولايات المتحدة مصر رسمياً بإمضاء
هذه الاتفاقية : « إن هذا الاتفاق كما يقول كافرى السفير الأمريكى في
كتابه إلى رئيس الوزارة المصرية سيكون أساساً لتعاون أقوى حتى من
الاتفاق الحالى بين بلادنا بالنسبة للمشكلات التى تؤثر في الشرق الأوسط
فإن الاتفاق سيزيد في النهاية الاستقرار والقوة الدفاعية لهذه المنطقة ، .
ولقد وجدت الولايات المتحدة في هذه الاتفاقية نجاحاً كبيراً لسياستها
بصفة خاصة وسياسة العالم الديموقراطى بصفة عامة ، وفعلنا لقد اغتبط
أصدقاء الولايات المتحدة بهذه الاتفاقية من أمثال تركيا وفرنسا
والباكستان وعدوها خطوة كبيرة في سبيل استقرار الأمور في الشرق
الأوسط .

ولقد كان أول نتيجة لهذه الاتفاقية بالنسبة للعلاقات المصرية
الإنجليزية أن رفعت الحكومة البريطانية الحظر على تصدير الأسلحة
إلى مصر وكان من الطبع أن يكون لذلك رنة فزع في إسرائيل .

١١ - إنجلترا وتأميم مصر لشركة القناة

بعد أن تحررت مصر التي تجرى القناة في أرضها من الإحتلال الإنجليزي بمعاهدة ١٩٥٤ رأت مصر أن تلعب دورها السياسي في العالم كدولة مستقلة ذات مركز جغرافي واستراتيجي ممتاز وأن تحتل مكانتها الممتازة بين دول الشرق الأوسط لتفوقها من حيث الثروة ومن حيث عدد السكان والحضارة .

ورأت حكومة الثورة أن تشق مصر لنفسها طريقاً وسطاً بين المعسكرين الغربي والشرقي ، فهي قد رفضت الارتباط بالأحلاف العسكرية ماعدا الحلف العربي في حدود الجامعة العربية ، وهي قد رفضت المعونة العسكرية والاقتصادية طالما ارتبطت هذه المعونة بذيول أو بخيوط تقيد من حرية مصر السياسية أو تعوقها عن التصرف في الميدان الدولي وفق مصالحها الخاصة ومصالح الشعوب العربية .

ووجدت مصر التي طالما قاست من الاستعمار والامبرياليزم الغربي ، أن تأخذ بناصر الشعوب العربية والإسلامية التي لا تزال تئن تحت عبء النسلط الأوربي ، ولم تكن مصر وحدها في هذا التفكير فكثير من الأمم الآسيوية والإفريقية الناشئة كانت تشاطر مصر رأيها . فدول الجامعة العربية والهند وأندونيسيا قد وقفت صامدة أمام سيطرة الامبرياليزم . لقد أصبحت سياسة مصر الخارجية إلى حد كبير نصرة الحرية ، ولم تكن حكومة الثورة بناسية أن الغرب هو الذي أرسى إلى حد

كبير قواعد إسرائيل في فلسطين ومدّها بالمعونة الاقتصادية والحرية حتى جاء وقت فاقت فيه إسرائيل أوقالت إنها تفوقت من الناحية الحرية على كل دول الجامعة العربية مجتمعة .

فكان على مصر إذن أول مانعمل أن تأخذ حذرهما من ناحية الخطر المحقق بحدودها الشرقية وبسوريا وبشرق الأردن ، وأن تكون على أهبة الاستعداد لمقابلة كل خطر يهددها أو يهدد الشعوب العربية من قبل إسرائيل ، فكان عليها أن تقوى نفسها من الناحية الحرية ، فاولت الانصال بالغرب ، ولكن الغرب ظل متقاعساً لا يعطف على أماني مصر إذ كان يمه قبل كل شيء ما ينمّاه توازن القوى في شرقي البحر المتوسط بين إسرائيل والدول العربية ، ذلك التوازن الذي قيل أن اتفاقية ٢٥ مايو سنة ١٩٥٠ أقامته ، هذه الاتفاقية التي عقدت بين انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة والتي أعلنت فيها الولايات المتحدة اهتمامها الكبير بالمحافظة على السلام والاستقرار ومعارضتها لاستخدام القوة وللنسابق في السلاح في هذه المنطقة . فلم تستطع مصر الحصول على السلاح من ناحية الغرب بشروط معقولة تقرها هي وتقبلها .

وكان لا مفر لمصر من الالتجاء إلى الجانب الشرقي للحصول على السلاح ، ووافق الجانب الشرقي ، وكانت صفقة الأسلحة المعروفة من تشيكوسلوفاكيا ، هذه الصفقة التي أثارت مخاوف إسرائيل والصهيونية والغرب . لقد رأت الدول الغربية في هذه الصفقة ، بل لقد ادعت أنها ترى

فيها خطراً كبيراً على السلام العالمي وعلى توازن القوى في الشرق الأوسط ،
فتقدم النفوذ الروسي في هذه المنطقة معناه في نظر الغرب تخط للحاجز
الذي كان يظن أن حلف بغداد قد أقامه ، ومعناه عودة إلى الحرب الباردة .

وإزاء ذلك الموقف الجديد لم يقف الغرب موقفاً ثابتاً واضحاً ، بل
تقاذفته تيارات مختلفة : الخوف على إسرائيل من ناحية ، الدعاية
الصهيونية القوية التي استغلت هذه المسألة استغلالاً واضحاً ، ترضى
الشعوب العربية التي تمتلك منابع بترول الشرق الأوسط الغنية ، ذلك
البترول الذي لا يستطيع غرب أوروبا الاستغناء عنه وخاصة منظمة
الأطلسي ، ذلك البترول الذي زاد استخراجها بين سنتي ١٩٣٠ ، ١٩٥٤
من ٦,٣٤٠,٠٠٠ إلى ١٣٦,٠٠٠,٠٠٠ طن ، وخشية نمو النفوذ الروسي في
هذه المنطقة — ثم تراءى للغرب ضرورة العمل على وقف النفوذ الشيوعي
في شرق البحر المتوسط بأن وعد مصر بمعاونتها في بناء السد العالي لكي
تستطيع بناء اقتصادها القومي والمحافظة على استقرارها الاجتماعي .

ولكن الغرب لم يرقه الدور الذي أخذت مصر تلعبه في السياسة
الدولية ، فلقد تعود أن يرى مصر عاملاً سلبياً لا إيجابياً في ذلك الميدان ،
تعود الغرب أن يرى مصر تدور في عجلة السياسة البريطانية من ناحية
السياسة ومن ناحية الاقتصاد طوال القرن التاسع عشر إلى منتصف
القرن العشرين . لم ترق الغرب السياسة التجارية والاقتصادية المستقلة
التي استنتها مصر كما ساء تعاملها الاقتصادي مع الدول الشيوعية . لم
يعجب الغرب الدور الذي لعبته مصر في مؤتمر باندونج ، وهاله اعترافها

بالصين الشيوعية وأذهله الدور الذى قام به رئيس جمهورية مصر فى مؤتمر بريونى ييوغوسلافيا .

فمصر قد أخذت تنحون نحواً مستقلاً فى سياستها لا تتعلق بأذيال الغرب ، بل فى الواقع تقاوم سياسة الغرب الاستعمارية والفكرة التى تقول بسيطرة دولة على أخرى، وتنفذ بل وتعارض فكرة التكتلات الدولية ، فلقد نادى رئيس جمهورية مصر جمال عبد الناصر فى مؤتمر بريونى (يوليو ١٩٥٦) علانية بهذه الآراء ، نادى بحل مشكلة فلسطين على الأساس الذى قرره مؤتمر باندونج ، بل وأعلن رسمياً عطف مصر على حركة الجزائر الاستقلالية ، وطالب بحل المشكلات الدولية عن طريق المفاوضات والعدالة ، وارتفع صوته بضرورة قبول الصين الشيوعية عضواً فى هيئة الأمم المتحدة .

غضبت لذلك الموقف الدوائر السياسية فى الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا ، ورأت فى سياسة مصر الجديدة خطراً كبيراً على مصالحها . لقد ساء انجلترا بصفة خاصة أن ترى نمو مركز مصر فى الشرق الأوسط ، واعتقدت أن الحكومة المصرية تعمل جاهدة على إضعاف النفوذ الإنجليزى فى هذه المنطقة ، فتتحالف مصر مع الجمهورية السورية ومع المملكة السعودية التى ساءت علاقتها بانجلترا بعض الشئ حول الاختلاف على واحة البريمى ، مثل هذا التحالف لم يكن مثيراً لاطمئنان انجلترا ، ثم مناوأة مصر لحلف بغداد الذى تؤيده انجلترا والتى اشتركت عضواً عاملاً فيه ، ومسامى

مصر السياسية في شرق الأردن ، هذه المساعي التي انتهت بطرد جون باجوت جلوب المستشار العسكري للملك حسين في أوائل شهر مارس ١٩٥٦ بعد خدمة خمسة وعشرين عاماً ، كل هذا عدته الحكومة البريطانية « صدمة عنيفة » لسياستها الخارجية في الشرق الأوسط ، كذلك كانت الحكومة البريطانية على يقين أن موقف مصر هو الذي أدى بشرق الأردن إلى رفض الإنضمام إلى حلف بغداد . وأن نفوذ مصر أصبح ينافس نفوذ إنجلترا في كل البلاد العربية بل وبناتها .

وأما فرنسا فلقد أفزعها ارتباط اسم مصر بالحركة القومية الجزائرية وبالحركات القومية في شمالي أفريقية وبالاختفاء التدريجي للإمبراطورية الفرنسية .

رأى الغرب لذلك أن يسحب عونه لمصر ، وقررت الولايات المتحدة وتبعتها إنجلترا سحب العروض لتمويل السد العالي ، كما يدعى البيان الأمريكي ، على أساس أن مشروع السد العالي يؤثر في حقوق بلاد أخرى تشارك في مياه النيل ومنها السودان وأثيوبيا وأوغندا ، وعلى أساس الشك في قدرة مصر على تركيز مواردها الاقتصادية في هذا البرنامج الانشائي الضخم .

ورأى جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية المصرية أن يجب على هذه الخطوة التي قصد بها جرح كبرياء الحكومة المصرية وإثارة الشكوك في سياستها الاقتصادية وحرمان البلاد من أهم مشروعاتها الحيوية ، وذلك

بأن أصدر قانون (٢٨٥ لسنة ١٩٥٦) بتأميم شركة قناة السويس حتى
تستطيع مصر بموارد القناة السير قدماً في بناء مصر الاقتصادية .
فواضح إذن أن تطور مسألة القناة كبير الصلة بمركز الشرق الأوسط
الجغرافي وماله من أهمية استراتيجية ، بما يعانيه الشرق الأوسط بصفة
عامة من فقر وفاقة وحاجته لاستغلال موارده ورفع مستواه الاجتماعي ،
كبير الصلة بماضى الشرق الأوسط وخضوعه للنفوذ الغربي الانجليزي
والفرنسي واستكائته لمدة طويلة للإمبرياليزم السيامي والاقتصادي وبما
رسب في نفوس الشرقيين من أحقاد على الاستعمار والمستعمرين ، كبير
الصلة بيقظة شعوب الشرق الأوسط ونمو الوعي القومي فيه ، كبير الصلة
بنمو موارد الشرق الأوسط البترولية ، وبمشكلة إسرائيل وتمكين
الغرب لها في فلسطين على حساب الأمم العربية ، وثيق الصلة بذلك
النزاع المحتدم ، بالحرب الباردة ، بين المعسكرين الروسي والغربي ، سياسة
الغرب في الاحتفاظ بما تبقى له من سيطرة سياسية واقتصادية في الشرق
الأوسط وبسياسة الاتحاد السوفيتي في حرمان الغرب من ذلك النفوذ .
وفي إعلان الرئيس الذي أمت بمقتضاه شركة القناة (٢٦ يوليو
١٩٥٦) نص على أن تنتقل للدولة المصرية « جميع ما للشركة من أموال
وحقوق وما عليها من التزامات وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً
على إدارتها » ، كما نص على تعويض حملة أسهم شركة القناة « فيعوض
المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص

بقيتها مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون في بورصة الأوراق المالية بباريس ، ، كما نص على إنشاء هيئة مستقلة لإدارة القناة ، « وميزانية مستقلة تتبع في وضعها القواعد المعمول : في المشروعات التجارية ، ، وقرن الرئيس جمال عبد الناصر ذلك القانون بأن أعلن عزم مصر على المضى في ضمان حرية المرور في القناة وذ لانفاقية القسطنطينية لسنة ١٨٨٨ .

قامت مصر بالتأميم مباشرة منها لحقوق سيادتها دون تحد أو مساءة بحقوق أية دولة . ولكن ذلك العمل قوبل بالاحتجاج والتهديد باستخدام القوة و باتخاذ تدابير اقتصادية فيها اعتداء على حقوق مصر لما علمت إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة بقرار الحكومة المصرية أصدرت بياناً ثلاثياً أكدت فيه الصفة الدولية لقناة السويس وضرورة ضمان دوليتها ، وهي وإن لم تعارض في التأميم كحق من حقوق سيادة الدولة إلا أنها ترى في خطوة مصر انتهاكاً للحقوق الأساسية للإنسان وأنها أصبحت « ترى أن حرية الملاحة وسلامة القناة في هذه الظروف غير مضمونة » .

وقررت الحكومة البريطانية كخطوة أولى تجسيد أرصدة مصر ومنع تعاملها بالاسترليني ، فلقد خشيت إنجلترا - كما ترى - على ضياع نفوذها ومصالحها الاقتصادية والبتولية في الشرق الأوسط إذا لم تقف موقفاً حاسماً بإزاء مصر ، إذ ربما قامت دول الشرق الأوسط العربي

بتقليد ما فعلته مصر وأمت بترونها ، كما ظنت الحكومة البريطانية ومعها
الحكومتان الأمريكية والفرنسية أن رئيس مصر ربما استخدم القناة
لأغراض سياسية قومية ، وكاننا انجلترا وفرنسا تريان في بقاء الشركة بقاء
لنفوذهما ومحافظة على استغلال مواطنيهما لذلك المرفق الذهبي . لقد
كانت شركة القناة وثيقة الصلة بالحكومتين الانجليزية والفرنسية .

لقد أعلن سير أنتوني إيدن رئيس حكومة بريطانيا في ٨ أغسطس
سنة ١٩٥٦ رأى حكومته وموقفها إزاء تأميم مصر للقناة ، فقال بعد أن
حمل حملة شديدة على رئيس جمهورية مصر :

« إن تأميم الرئيس عبد الناصر قد أوجد حالة خطيرة ، وأن وضع
هذه القناة تحت إشراف دولي مسألة حياة أو موت بالنسبة لبريطانيا ،
وقال : « إن انجلترا ستحاول حل هذه المشكلة باتفاق دولي على قدر
الامكان » ، وأشار إلى أن رئيس جمهورية مصر أمم شركة القناة « دون
مشاورات سابقة » ، « ودون رضاها » ، وأنه « قد شن حملة شديدة من
الدعاية ضد بريطانيا » ، « ولا زلنا نذكر جيداً الثمن الواجب دفعه في
حالة الاستسلام للفاشية » ، « وأيقن « بأن في وسع مؤتمر لندن (الذي
أزمنت انجلترا وفرنسا وأمريكا عقده) إيجاد مشروع معقول للقناة في
المستقبل » ، وقال : « لو أننا جميعاً اشتركنا في إنشاء نظام دولي للقناة
وأنفقنا إراداتها على تحسينها فإن ذلك يمكن أن يعود بالرفاهية على
الشرق والغرب . . وعلى الدول التي تنتج البترول وتلك التي تشتريه . »

ثم ذكر إيدن بأنه « صحيح أن القناة تجرى في أرض مصر ولكنها ليست حيوية لها كما هي حيوية لغيرها من دول العالم ، ، وأن مسألة القناة مسألة حياة أو موت للجميع ، لأنه بغير البترول الذي ينقل عبرها تتوقف الصناعات ووسائل النقل في بريطانيا ، كما أن عمليات التصدير متوقفة عليها ، فهي تهم كل بيت في هذه البلاد ، ، وفي رأيه « أن بريطانيا تتعرض لكثير من الأخطار إذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة . وهذا هو تفسير التحركات البرية والجوية والبحرية البريطانية ، .

وكرر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية هذه النغمة في حديثه يوم ١٤ أغسطس ، وأعلن أن التداوير الحربية التي اتخذتها إنجلترا « لا تتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة ، ، وأن الهيئة الدولية التي تقترح إنجلترا لإنشاءها والتي يرى أن تشارك مصر فيها هي والدول صاحبة المصالح في القناة هي التي تقوم بإدارة القناة وتضمن لمصر نصيباً معقولاً من الأرباح وللساهمين تعويضاً عادلاً ، .

لقد شاركت الحكومة الفرنسية الحكومة البريطانية رأياً في موضوع القناة ، بأن الحكومة المصرية حاولت من جانبها وحدها إنهاء ما أسمته الدولتان « نظام الإدارة الدولي لقناة السويس الذي أكدته وأكملته اتفاقية سنة ١٨٨٨ ، ، وأعلنت تأييدها للإجراءات التي اتخذتها بريطانيا سلمية أو حربية ، وقامت من ناحيتها بتجميد الأرصدة المصرية وإرسال السفن والجنود والعتاد إلى قواعد الغرب القريبة من مصر .

وأعلن موليه رئيس الوزارة الفرنسية بأن فرنسا ستقف لرئيس جمهورية مصر بالمرصاد إذ أنه يرى إلى إنشاء امبراطورية عربية من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلنطي . ولقد أيدت صحيفة التيمز اللندنية الحكومة الإنجليزية في أنه « إذا ترك عبد الناصر يفعل ما يشاء مستهدم مصالح إنجلترا والدول الغربية في الشرق الأوسط (١٠ أغسطس) » .

وقبل ذلك يومين حاولت هذه الصحيفة مناقشة مشروعية العمل المصري ، ووصلت إلى النتيجة التي تريدها وهي أن عمل مصر غير قانوني وأن رئيس جمهورية مصر لن يصل إلى الأغراض التي استهدفها من استغلال موارد القناة لبناء السد العالي ، وبينت كيف كانت إنجلترا حسنة النية بقبول الجلاء عن قناة السويس ، وامتدحت سلوك إسرائيل ١١ وفي ١٥ من ذلك الشهر اتهمت هذه الصحيفة رئيس جمهورية مصر بتسميم العلاقات بين إنجلترا والدول العربية ، واتبعها في ذلك صحف المحافظين . وأما حزب العمال ، فلقد أيد في أول الأمر رئيسه جيتسكل وأحد كبار زعمائه موريسون الحكومة البريطانية في استنكار ما قامت به مصر من تأميم القناة ، وذكر جيتسكل أن المسألة هي مسألة التفوق في الشرق الأوسط مما شجع الحكومة على السير في طريقها ، وسنجد أن العمال سيغيرون موقفهم فيما بعد وخاصة بأزاء استخدام القوة ضد مصر .

وعلى أية حال فقد تعالت صيحات الدوائر الرسمية السياسية والمالية

في لندن وباريس ضد مصر وضد رئيس جمهوريتها وهددت بالحرب إذا لم تقبل مصر الإشراف الدولي على القناة ، وتابعت الدولتان إرسال قواتهما إلى قبرص . حيث تكونت في منتصف سبتمبر قوة تقرب من الثلاثين ألف جندي ، وتحدثت الدولتان عن تكوين قيادة عليا مشتركة ضد مصر .

ولم ندر في ذلك الوقت مدى استعداد الحكومتين للدخول في غمار حرب ضد مصر ، وهل قصد بهذه التحركات العسكرية مجرد المناورة للضغط على مصر ؟ ولكن الحقيق في الموقف أن ظروف القرن التاسع عشر التي كانت تستطيع فيها الدولتان البطش وقمع الشعوب الصغيرة لم يعد لها وجود ؛ فلقد انتهى عهد كانج وبارستون وجلادستون وسولسبري ، فالموقف الدولي في منتصف القرن العشرين مختلف تماماً عن الموقف في القرن التاسع عشر ، فلم يعد لبريطانيا وفرنسا مركز الصدارة في العالم . فقد احتل هذا المركز غيرهما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي . وأصبحت الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في حكم التاريخ . وقامت قوى جديدة في آسيا وأفريقية والشرق الأوسط كالهند والشعوب العربية والاندونيسية والصينية تقف للأمبريالزم الأوربي بالمرصاد ولا تسمح له بالنمو .

وأما الولايات المتحدة الأمريكية فلقد ذكر رئيسها دوايت أيزنهاور أن القناة مهمة لها ، ولكن الولايات المتحدة كما تعتقد تستطيع الاستغناء

عنها وإن كانت ترى أن أوروبا وخاصة منظمة الأطلنطى لا تستطيع الاستغناء عن القناة بسهولة . فالقناة كما ترى حيوية بالنسبة لغرب أوروبا الذى يعتمد إلى حد كبير على بترول الشرق الأوسط . ولكن الموقف فى الولايات المتحدة كان صعباً ، فالسنة سنة انتخابات لرياسة الجمهورية ، ولاستطيع حكومتها لهذا الظرف وضع سياسة محددة بالنسبة للقناة قد لاتعرف عواقبها . وهى حائرة بين أصدقائها من دول الغرب تخاف على وحدتهم وأعدائها فى المعسكر السوفييتى ، وهى تخشى فى نفس الوقت ثورة العرب ضدها وهم الذين يملكون معظم بترول الشرق الأوسط ، وتخاف أن يؤدى استخدام إنجلترا وفرنسا للقوة ضد مصر إلى حرب ثالثة لم تختبر هى وقتها المناسب أو تدفع مصر والعرب إلى أحضان روسيا نهائياً ، وخاصة بعد أن أعلنت مصر أنها ستدافع عن سيادتها إلى النهاية وبعد أن أعلن العرب تأييدهم لمصر ، ولذا فالولايات المتحدة تؤثر حسم الخلاف سلبياً عن طريق المؤتمرات وليس عن طريق القوة وتعمل لكسب الوقت .

وأما روسيا ، التى وجدت فى سلسلة المنظمات والمحالفات السياسية والحربية والاقتصادية التى أقامتها الولايات المتحدة وإنجلترا ، محالفة شمال الأطلنطى وحلف بغداد (الذى يتكون من تركيا والعراق وإيران وباكستان) ، وحلف جنوب شرقى آسيا أمر ألا يقسم بالود والصداقة نحو الاتحاد السوفييتى . لقد احتدم النزاع بين روسيا وأمريكا فى جبهة

طولها سبعة آلاف ميل تضم الشعوب الآسيوية ، ولذا رأت روسيا أن تؤيد كل الدول التي تعمل على التخلص من الأمبريالزم الإنجليزي والفرنسي ، وأن تعضد كل الدول التي رفضت الدخول في حلف الأطلنطي وحلف بغداد وأن تقدم المعونة الفنية والاقتصادية لدول الشرق التي تحتاج إلى هذه المعونة وتطلبها . لقد نحت روسيا في السنتين الأخيرتين إلى سياسة خارجية أكثر عملية وأكثر مرونة من ذي قبل ، فمدت يد الصداقة للعرب ، ورأت فيهم قوة توازن انضمام تركيا إلى الغرب - هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فالعرب يملكون منابع بترول الشرق الأوسط الغنية ، ذلك البترول الذي تعتمد عليه منظمة حلف الأطلنطي في سلبها وفي استعدادها للعرب ، فالروسيا تود لو استطاعت حرمان الغرب من ذلك البترول على الأقل . ولما كانت مصر تحتل مكاناً هاماً بين العرب تعمل سياستها على الابتعاد عن المحالفات ، وجدت روسيا أن تمديد الصداقة إليها ، ووجدت الحكومة الروسية في أزمة القناة وسيلة لإذلال الغرب وإلحاق هزيمة أخرى بسياسته بعد الفشل الذي ناله في أمر توحيد ألمانيا .

ولذا فروسيا منذ اللحظة الأولى تؤيد مصر في موقفها ، وعلى لسان خروشيف في آخر يولييه ، تحذر الغرب من القيام بأية عملية حربية غير حكيمة ، ، وتعلن أن مصر في تأميمها للقناة مارست حقاً لها ولم تعتد على أحد ، فالمصريون هم الذين حفروا القناة بأيديهم ، ، وأعلنت

في صراحة أنها ترى في الخطوة التي خطتها مصر ، الشعوب التي كانت خاضعة للاستعمار بدأت تحرر نفسها من نير الاستعمار . ،
لقد أكدت روسيا اهتمامها بحرية الملاحة في القناة ، ولكنها لم تقبل الدعوة إلى مؤتمر لندن التي طلبت أمريكا وانجلترا وفرنسا عقده إلا بعد أن احتجت على تصرفات الحكومات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية ، وأعلنت أن المؤتمر يعد تدخلا في شئون مصر ، ونادت بأنه يمكن تسوية مشكلة القناة تسوية سلمية . ووقفت إلى جانبها تؤيد سياستها الصين الشيوعية وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وغيرها .

وشارك الروسيا في تأييد موقف مصر دولة الهند ، وكانت سياستها الخارجية العامة اتباع الحياد بين الكتلتين الشرقية والغربية ومقاومة الاستعمار وتأييد الأمم الآسيوية والأفريقية في نضالها في سبيل الحرية .
ففي ٨ أغسطس ١٩٥٦ هاجم جواهر لال نهرو موقف بريطانيا وفرنسا من تأميم القناة ، ورأى أن تهديدهما باستخدام القوة وسيلة خاطئة لا تملأها الحكمة ولا تجد لها مكاناً في العالم ، وبين أن خطوة التأميم قد جاءت نتيجة لسحب أمريكا عرضها تمويل السد العالي بطريقة جرححت كبرياء مصر ومستكرامتها ، وقال إن مؤتمر لندن لا يمكن أن يصل إلى قرارات نهائية لأن هذا يقتضى موافقة مصر ، ولقد أخذت الهند على عاتقها معارضة آراء الغرب والدفاع عن وجهة النظر المصرية

بضرورة احترام سيادة مصر على جزء مهم من أراضيها .

رأت الدول الثلاث انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة تنفيذاً لسياستها التي تهدف إلى تدويل قناة السويس الدعوة إلى عقد مؤتمر في لندن يجتمع في ١٦ أغسطس لمناقشة موضوع الإشراف الدولي على القناة . ووجهت بريطانيا الدعوة إلى أربع وعشرين دولة هي مصر وإيطاليا وأسبانيا وتركيا وبريطانيا وروسيا والنمسا وسيلان والدانمرك وأثيوبيا وألمانيا الغربية واليونان والهند واندونيسيا واليابان وإيران ونيوزيلند والنرويج والباكستان والبرتغال والسويد والولايات المتحدة ، دول أسيوية وإفريقية وأوربية كبيرة وصغيرة .

وأما مصر فلقد رفضت الدعوة لحضور ذلك المؤتمر ودعت دول معاهدة سنة ١٨٨٨ والدول التي ترمي سفنها في القناة إلى مؤتمر عالمي لعقد اتفاق يؤكد ضمان حرية الملاحة ويسجل في الأمم المتحدة ويترك الباب مفتوحاً لانضمام حكومات أخرى ، وبنت مصر رفضها على أساس أن مؤتمر لندن ليس مؤتمراً دولياً بالمعنى الصحيح إذ لم تدع إليه كل الدول التي ترمي سفنها في القناة ، ثم إن إنجلترا انفردت بالدعوة إليه ، ثم لأنه دعى دون استشارة مصر ، وهي الدولة صاحبة الشأن ، واعتبرت مصر أن مؤتمر لندن ليس له حق مناقشة أمر يتعلق بسيادة مصر ؛ رأت الحكومة المصرية في قبول مبدأ الإشراف الدولي أمراً قد يؤدي إلى فصل القناة

عن مصر، بل وفصل شبه جزيرة سيناء أيضاً، ورداً على تهديد البريطانيين
رأت تعزيز مركز البلاد من الناحية الحربية فأعلنت التعبئة وإنشاء
جيش التحرير الوطني من الحرس الوطني والكتائب والمتطوعين،
وقفت البلاد العربية جميعها إلى جانب مصر تؤيدها في قضيتها ونستنكر
استخدام إنجلترا وفرنسا للعنف، بل وتهديد باستخدام إجراءات إيجابية
ضد الدولتين، وكان يوم ١٦ أغسطس إضراباً عاماً في كل البلاد العربية
فأضحى مظهر أرائها للساند وللتعاون.

ولكن الدول الأخرى لبست دعوة إنجلترا. وفي ذلك المؤتمر
بسطت إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وجهة نظرها وتساندها
وتبلورت فكرة الدول الثلاث في اقتراح لدلاس وزير الخارجية الأمريكية
أدخلت عليه بعض التعديلات وأقرته الدول الثلاث.

ويقول مشروع دلاس: «إن الحكومات الموافقة على هذا التصريح
والمشاركة في مؤتمر لندن... أفلقها الموقف الخطير الخاص بالقناة
وهي إذ تسعى إلى إيجاد حل سلمي يتفق وأغراض الأمم المتحدة
ومبادئها. وإذ تعترف بأن الحل السليم يجب أن يحترم حقوق مصر
المستمدة من سيادتها بما في ذلك حقها في تعويض عادل منصف نظير
استخدام القناة، ويضمن من جهة أخرى القناة باعتبارها ممرأ مائياً
ودولياً طبقاً لاتفاق القسطنطينية المعقود في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٨٨،
إن هذه الحكومات تتفق في التعبير عن وجهة نظرها بما يأتي:

١ - إنها تؤكد ، كما تنص على ذلك مقدمة اتفاق سنة ١٨٨٨ وجوب إنشاء نظام محدد لضمان حرية الملاحة في قناة السويس البحر في جميع الأوقات ولجميع الدول .

على أن يضمن مثل هذا النظام المقترح الأمور الآتية :

١ - إدارة فعالة مستقلة وصيانة القناة وتحسينها كمر مائي دولي - مفتوح طبقاً لمبادئ اتفاق سنة ١٨٨٨ .

٢ - فصل إدارة قناة السويس عن النفوذ السيامي لأية دوا من الدول .

٣ - احترام سيادة مصر .

٤ - ضمان إيراد عادل ومنصف لمصر نظير استخدام القناة ويزداد هذا الإيراد بازدياد طاقتها واضطراد استخدامها .

٥ - أن يدفع لشركة قناة السويس العالمية التعويض المالي العادل الذي يثبت أنها تستحقه .

٦ - أن تكون رسوم المرور في القناة منخفضة لتطابق الاحتياجات السابقة وفيما عدا الفقرة (٧) يجب ألا تستهدف أى ربح . ولتحقيق هذه النتائج على أساس دائم . . يتفق على الأمور التالية :

١ - اتخاذ تدابير تنظيمية لتحقيق التعاون بين مصر والدول الأخرى ذات المصلحة في إدارة القناة وصيانتها وتحسينها وللتوفيق بين مصالحها في القناة وضمائها . ولتحقيق هذا الغرض تكون إدارة القناة

وصياتها وتحسينها وتوسيعها حتى تزداد حركة المرور فيها لصالح التجارة العالمية ومصر من اختصاص مجلس قناة السويس ، على أن تمنح مصر هذا المجلس جميع الحقوق والتسهيلات .

وأعضاء هذا المجلس بالإضافة إلى مصر يتألفون من الدول الأخرى الذين يختارون بطريقة يتفق عليها بين الدول الممثلة في الاتفاق وعلى المجلس أن يرفع تقارير دورية إلى الأمم المتحدة .

٢ - إنشاء لجنة تحكيم لتسوية أى نزاع خاص بالإيرادات العادلة التى تعود على مصر أو خاص بتعويض شركة قناة السويس العالمية أو غير ذلك .

٣ - تقرير عقوبات رادعة لآى انتهاك للاتفاق من أى طرف .
... والنص على أن أية إساءة لاستخدام القناة يعتبر تهديداً للسلام وخرقاً لميثاق الأمم المتحدة وأهدافها .

٤ - ... تقرير قيام رابطة مناسبة بالأمم المتحدة - وحق إعادة النظر فى الاتفاق كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

ووضعت الهند فى المؤتمر مشروعاً لحل أزمة القناة يتضمن :

١ - إعادة النظر فى اتفاقية القسطنطينية المعقودة فى سنة ١٨٨٨ لضمان وتحديد رسوم عادلة ومنصفة .

٢ - الدعوة لعقد مؤتمر من الدول الموقعة على اتفاق سنة ١٨٨٨ وجميع الدول المستخدمة للقناة لإعادة النظر فى الاتفاق .

٣ - ربط المصالح الدولية للدول المستفيدة من القناة بالشركة المصرية الجديدة المؤممة دون الافتئات على حق مصر في ملكيتها وإدارتها.
٤ - إنشاء هيئة استشارية من الدول المستخدمة للقناة على أساس المصالح والتمثيل الجغرافي تكون لها مهام تقديم المشورة والنصح والاتصال .

٥ - ترفع الحكومة المصرية للأمم المتحدة كل عام تقريراً سنوياً عن شركة القناة المصرية المؤممة .

ولقد وضع كرشنا مينون المبادئ الستة التي تستند إليها مقترحاته وذكر أنها :

- ١ - الاعتراف بسيادة مصر .
 - ٢ - الاعتراف بالقناة كجزء لا يتجزأ من مصر وكمر مائي ذي أهمية دولية .
 - ٣ - حرية الملاحة واستمرارها لجميع الدول طبقاً لاتفاق القسطنطينية المعقود في سنة ١٨٨٨ .
 - ٤ - تحديد رسوم عادلة ومنصفة مع إتاحة التسهيلات التي تقدمها القناة لجميع الدول دون تمييز .
 - ٥ - الاحتفاظ بالقناة في حالة سليمة طبقاً للمطالب الفنية الحديثة ؛
 - ٦ - الاعتراف بمصالح الدول التي تستخدم القناة اعترافاً كاملاً .
- ولقد انتقد مندوب الهند في مؤتمر لندن مشروع دلاس بأنه ليس

حلا للأمر ، فصر لن تسلم سيادتها ، وبين أن مؤتمر لندن لا يمكنه فرض التدويل على مصر ، وذكر أن مشروع الهند يرمى إلى حل عملي وناشد المؤتمر رفض المشروع الأمريكى لأن مصر سترفضه .

وجدير بالذكر هذا المشروع الذى قدمته أسبانيا فهو يرمى إلى إعادة النظر فى معاهدة ١٨٨٨ لأن بعض موادها غير متلائم مع روح العصر وإلى إنشاء شكل من أشكال التعاون الدولى فى إدارة القناة لمواجهة الظروف الحالية يحترم سيادة مصر الإقليمية وحققا فى استغلال القناة تجارياً كما كانت تفعل الشركة وتمثل فيه الدول التى تستخدم القناة تمثيلاً يكتفى لضمان حرية الملاحة بالقناة وتأمينها .

ولم تقف الهند وحدها فى تأييد سيادة مصر على القناة ورفض فكرة الإشراف الدولى فى مؤتمر لندن ، فلقد وقف مندوب روسيا فى المؤتمر موقفاً مشهوداً ، أعلن شيلوف أنه إذا كان مؤتمر لندن من نتيجة فهمي ، أن خفت الأصوات التى نادى باستخدام القوة ضد مصر « وهذا التطور ، كما يقول ، جاء نتيجة لضغط الرأى العالمى الذى نادى بالأتدرج فى جدول أعمال المؤتمر مسألة استخدام الإجراءات العسكرية كوسيلة لتسوية المشكلة ، ، وذكر « أن المؤتمر لم يعد يناقش قانونية الإجراء المصرى بالتأميم ، كما لم يستطع أحد فى المؤتمر الدفاع عن شركة القناة القديمة ، .

ثم انتقل شيلوف إلى الدفاع عن موقف الحكومة المصرية عن

احترامها لاتفاقية ١٨٨٨ ثم إلى استعراض المشروعين الأمريكى والهندي بعد أن سجل أن المؤتمر بحكم تكوينه لا يستطيع اتخاذ إجراءات نهائية بشأن القناة من غير موافقة مصر . فانتقد المشروع الأمريكى انتقاداً شديداً ، إذ تجاهل ذلك المشروع في نظره موقف مصر والتوفيق بين مصالح مصر والدول الأخرى، وذكر أن المشروع الأمريكى معناه تنازل مصر عن حقوقها في السيادة على القناة ، إلى هيئة دولية تتصرف في ثروة مصر القومية . وأكد شيلوف حقوق مصر في القناة من حيث السيادة ومن حيث حق التأميم ، وأعلن أن المشروع الأمريكى تحدى للشعب المصرى .

وسخر المندوب الروسى من الفكرة التى عرضها مندوب استراليا لشراء حقوق السيادة المصرية على القناة . وقال إن إقامة هيئة دولية رغم إرادة مصر لإدارة ممتلكات مصرية عمل له نتائج سياسية خطيرة إذ سينتج عنه اضطراب الأمن الدولى . فتدويل القناة ليس إلا ستاراً استعمارياً ، وذكر أنه لهذه الأسباب لا يوافق الوفد الروسى على المشروع الأمريكى . ولم يفت شيلوف أن يشير إلى محاولة بعض دوائر الغرب عرقلة الملاحة في القناة عن طريق إغراء موظفى القناة على تركها . وأكد شيلوف كذلك ضرورة احترام المصالح المشروعة وعدم تجاهل حقوق السيادة المصرية ، واحترام حرية الملاحة في القناة لكل الدول في كل الأوقات والعمل على صيانة القناة وزيادة صلاحيتها ، والتعاون الدولى

لضمان ذلك ، ولقد نصح المندوب الروسى بإقامة لجنة استشارية لتقديم المشورة للإدارة المصرية فى القناة بشأن حرية الملاحة والرسوم ، وأن تكون لهذه اللجنة اتصالاتها بالأمم المتحدة والهيئات الدولية المهتمة بالملاحة ، كما نصح بتثبيت الرسوم التى تدفعها السفن المارة فى القناة على أساس المستوى الحالى بالتقريب . وقال بضرورة تعويض أصحاب أسهم الشركة تعويضاً مناسباً .

وأيد شيلوف المقترحات الهندية لأنها تنفق وآراء روسيا فى هذا الموضوع وختم كلامه بأن « الاتحاد السوفيتى لن يتوانى فى بذل جهده حتى يتحقق حل عادل يدعم الثقة بين الأمم ويخدم قضية السلام العالمى » . ولقد وافقت أغلبية أعضاء المؤتمر على اقتراح دلاس وأنهى المؤتمر جلساته فى ٢٣ أغسطس ، وقد قرر إرسال لجنة خماسية على رأسها مستر روبرت جوردون منزيس رئيس وزراء استراليا ، ويتكون من مندوبى أثيوبيا وإيران والسويد والولايات المتحدة لتدعو مصر للتفاوض فى مشروع دلاس - وصاحب هذا القرار استئناف فرنسا وإنجلترا لاستعداداتهما الحربية بما دعا الحكومة الروسية إلى تحذير الغرب مرة أخرى عواقب تتركه العسكرية وإلى إعلان أن العقوبات الاقتصادية والاجراءات العسكرية لا مبرر لها فالغرب لن يقفوا وحدهم إذا قامت الحرب .

وجاءت اللجنة إلى مصر واجتمعت برئيس الجمهورية المصرية الذى لم يتردد بعد أن استمع إلى وجهة نظرها ، لم يتردد فى رفض مشروع دلاس

لأنه ينشئ دولة داخل دولة ولأنه رأى فيه «استعماراً جماعياً» ، ولم يستطع قبول فكرة منزيس بأن مشروع اللجنة الخامسة يحمل من مصر مالكا ومن الدول مستأجراً . ولم يكثرث للملاحظة منزيس بأن الدول تخشى أن تستخدم مصر القناة لأغراض قومية سياسية .

أسقط في يد إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وهددت الحرب بالوقوع ، ولكن الموقف الدولي بالرغم من خطورته لم يعد في صالح استخدام القوة ضد مصر لخدمة مصالح بعض الرأسماليين أو الاستعابيين ، فسجد الأصوات تعالى في إنجلترا نفسها وفي فرنسا وفي بقية أجزاء العالم تطلب تسوية مسألة القناة تسوية سلمية بالاتفاق مع مصر أو بالاتجاه إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن . لقد وجدت الحكومة الإنجليزية أن خطتها لا تجد تأييداً من كل أعضاء الكومنولث . فاهند وسيلان كما رأينا كانتا وظلتا مؤيدتين لموقف مصر . كذلك وجدت أن حلفاءها في الشرق الأوسط لا يمكن الاعتماد عليهم في حالة حرب مع مصر بل إن بعض هؤلاء الحلفاء ذهب إلى حد إعلان موقفه بتأييد مصر كالعراق ، أخذ أعضاء حلف بغداد .

ولذا استبعدت فكرة الحرب إلى حين ، ولجأت الدول الثلاث إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى وسيلة أخرى ، وأعلن رئيس الحكومة البريطانية في ١٢ سبتمبر بعد أن ندد مرة أخرى بالتأميم كعمل غير قانوني ، واعترض على استخدام طريق رأس الرجاء الصالح وأكد أن شركة

القناة كانت ذات طابع دولي وأن مشروع دلاس قد فاز بتأييد ١٨ دولة ، أعلن أن الحكومة البريطانية مصرة على عدم الاعتراف بالعمل المصري ولذا فهي ترى تأليف هيئة من الدول التي تستخدم القناة (من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ومن يمثل أهم الدول التي تمر سفنها في القناة) وقال : إن تلك الجمعية ستسعى للمتفهمين بالقناة الفرصة لممارسة حقوقهم وأنها ستكون ذات طابع مؤقت ، وأنها ستحصل على رسوم المرور ، وتدفع لمصر إيراداً معقولاً في نظير التسهيلات التي تقدمها لها مصر .

ولقد رأى رئيس الحكومة البريطانية أن يطلب دعوة البرلمان من إجازته الصيفية قبيل منتصف سبتمبر ليعرض عليه موقف الحكومة من مشكلة قناة السويس بعد فشل مؤتمر لندن . وفي اجتماع البرلمان أعلن إيدن رأى الحكومة في إنشاء جمعية المتفهمين ، وحاول تبرير استعدادات إنجلترا العسكرية وتحركات قواتها ، وأذنب بأنه إذا لم تتعاون مصر وهذه الهيئة أو عرقلت أعمالها فإن مصر تكون قد خرقت مرة أخرى معاهدة ١٨٨٨ التي ضمنت حرية الملاحة ، وفي هذه الحالة يكون من حق الدول الثلاث اتخاذ تدابير جديدة سواء عن طريق الأمم المتحدة أو بوسائل أخرى ، وذكر : أن ليس في نية بريطانيا انتهاج سياسة التهينة بأية حال .

فأثار هذا الموقف ضجة وصخباً كبيراً في مجلس العموم واعتراضاً قوياً عنيفاً من جانب العمال ، ذلك الحزب الذي رأت أغليته في أول

الأمر تأييد الحكومة بشرط النشئ مع مبادئ الأمم المتحدة، ولكن مرور الوقت جعل العمال يعيدون النظر في موقفهم، وخصوصاً فيما يختص باستخدام القوة ضد مصر. فلقد اجتمع حزب العمال وطالب الحكومة بأن تعلن أن هذه الإجراءات العسكرية لم تتخذ إلا لمجرد الاحتياط والدفاع، وأنه لا يقصد بهذه الإجراءات التدخل العسكى المسلح، وفي اجتماع البرلمان هذه المرة قام رئيس الحزب مستر جيتسكل ينتقد سياسة الحكومة، وعارض بقوة فكرة استخدام القوة، وقال إن الحل الوحيد لمشكلة القناة هو في الالتجاء إلى الأمم المتحدة. وتعالى أصوات كثيرة إلى جانبه تتهكم على سياسة المحافظين وتسخر منها.

ولكن هل كان من الممكن أن يرى نفسه وريث بت وكاننج وبامستون ولويد جورج وتشرشل أن يتراجع أمام هذه العاصفة. لقد صمم إيدن على أن يجعل من مسألة القناة موضعاً لطرح الثقة بوزارته. فاقترح اقتراح المجلس على استنكار خطوة الحكومة المصرية في الإشراف على قناة السويس، ورد زعيم المعارضة على ذلك باقتراح استنكار عمل مصر مع لوم الحكومة على رفضها الذهاب إلى الأمم المتحدة، وطلب امتناعها عن تحدى مصر واستخدام القوة لإلا تمشياً مع ميثاق الأمم المتحدة.

ولو أن أغلبية البرلمان أخذت باقتراح إيدن إلا أن العمال انتصروا في استبعاد استخدام القوة إلى حين، وزعزعوا مركز وزارة المحافظين. وبالرغم من استحالة قيام هيئة المنتفعين المقترحة بعمل مفيد فلقد

حاول سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية أن يوضح موقف الحكومة البريطانية وشركائها : فهي تعزم عقد اجتماع لمناقشة كيفية قيام الهيئة الجديدة بعملها ، ولم يخف الصعوبات العملية الخطيرة لذلك المشروع ، وأعلن « أن ليس من حق مصر أن تحمل محل الشركة باعتبارها السلطة المديرة للقناة . . . وليس للبصريين أن يطلبوا من الدول المستفيدة من القناة الاعتراف بمشروعية الحالة الحاضرة . . وأن الدول المستفيدة من القناة تحتفظ بحق المرور طبقاً لاتفاقية ١٨٨٨ ، وهي ليست مضطرة إلى الاستفادة التي تقدمها مصر أو أن تقتصر على هذه التسهيلات . »

أبانت المناقشة البرلمانية في مجلس العموم الإنجليزي عن فشل سير انتوني إيدن في توحيد كلمة إنجلترا بأزاء مشكلة القناة . لقد رأى فريق من الرأي العام الإنجليزي أن هيئة المستخدمين للقناة ما هي إلا حل للوقوف بعد تخرجه برفض مصر لمقترحات منريس ، وفريق آخر رأى فيه تحدياً واضحاً لمصر وحلاً غير عملي قد يؤدي إلى الحرب أو إلى فشل سياسي آخر . لقد عرفت الحكومة البريطانية أن الرأي العام الإنجليزي غير مجذ للرب على الأقل قبل معرفة رأى الأمم المتحدة .

لقد تركت مظاهرات العمال داخل المجلس وخارجه - كما تقول صحيفة التيمز اللندنية - تركت الحكومة في مركز محزن أمام مسألة حيوية بالنسبة لانجلترا ، وذكرت المانشستر جارديان أن سياسة المحافظين ستؤدي حتماً إلى الدمار فستجر إنجلترا إلى الحرب أو إلى هزيمة سياسية . وأما الدبلي

هرالد الصحيفة العالمية فلقد أشارت إلى أن اتنوفى إيدن قد فقد تأييد
الرأى العام العالمى كما فقد حسن سمعة دولته .

واختلفت الدول الثلاث انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة فيما بينها
بخصوص هيئة المنتفعين فلقد رأت فيها حكومة المحافظين سيقاً مصلتنا
ووسيلة لإرغام مصر على قبول فكرة التدويل ، وكانت فرنسا ترى
أن تكون هذه اللجنة بشكل يفهم منه ما فهمته الحكومة البريطانية .
ولكن الولايات المتحدة رفضت قبول مثل ذلك التفسير فلقد بين
دلاس فى مؤتمر لندن الثانى الذى عقد فى ١٩ سبتمبر أن اقتراح هيئة
المنتفعين إنما هو حل مؤقت للبرور من القناة أو بعيداً عنها ، ولا تزال
الولايات المتحدة تبحث عن حل آخر — وفى مؤتمر لندن هذا ظهر
الخلاف واضحاً بين الأعضاء الآخرين ، فقساملت إيران وباكستان عما
يمنع من الالتجاء إلى هيئة الأمم المتحدة ، وأبانت اليابان عن صعوبة
تحاشى القناة . فتحاشى المرور فى القناة سيضر أوروبا أكثر مما يضر مصر
وسيرفع من أثمان البترول بشكل ربما استدعى العودة إلى نظام البطاقات
فى توزيعه . وأخيراً ووفق فى المؤتمر على إيجاد هيئة المنتفعين بغير وظيفة
محددة ، وتكون مهمتها العمل على تمهيد الطريق لحل مشكلة القناة
وللمحافظة على التعاون بين فيما يختص باستخدام القناة .

لقد خرجت الدول الثلاث من المؤتمر غير راضية فلقد عاد الخلاف
إلى الظهور؛ فانجلترا أصبحت ترى أن الولايات المتحدة تعمل على تثبيطها

عن عزمها في اتخاذ موقف حاسم ضد مصر ، وأما فرنسا فلقد قامت فيها
أزمة وزارية نتيجة لأن الحكومة لم تحقق ما وعدت به من وقف مصر
عند حدها ، ولذا أعلنت حكومة باريس عندما قبلت لجنة المتنفعين
« بأن فرنسا ستحافظ على حريتها في العمل ولن تتعاون في أى إجراء
يضر بمصالحها الهامة » .

كانت هناك أمام الدول جملة حلول للمشكلة إما عن طريق الحرب أو
باستخدام هيئة المتنفعين أو بمقاطعة القناة أو بالمفاوضات أو بالالتجاء
إلى مجلس الأمن .

أما طريق الحرب فلم يعد الرأى العالمى يقر باستخدامه ، وأما طريق
المقاطعة للقناة فهو سيف ذو حدين لا يضر مصر وحدها ، وأما طريق
هيئة المتنفعين فلقد وضح للكثيرين بأنه غير عملى ، بقى طريقان طريق
الالتجاء إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن وطريق المفاوضات المباشرة ،
ولقد اقترح بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى طريقاً أخرى هى
اجتماع الدول الست : روسيا والولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا والهند
ومصر للنظر في حل المشكلة ، ولكن الدول الغربية رأت في الاقتراح
الروسى تثبيتاً لدعائم النفوذ الروسى في الشرق الأوسط نهائياً . وتوجهت
صوب مجلس الأمن .

وعمل على تمسك الحكومة المصرية بإيمانها بقضيتها وتأييد الدول
العربية لها وكذا روسيا والهند ، فلقد اعترضت كل من الهند وروسيا

على هيئة المنتفعين إذ لا يمكن لهذه اللجنة أن تعمل في نظر الدولتين بغير استخدام القوة ضد مصر — وأعلنت الحكومة الروسية أن الحشود الإنجليزية والفرنسية في قبرص لا تتفق أبداً مع مركز إنجلترا وفرنسا كأعضاء في هيئة الأمم المتحدة .

ولقد وضحت الحكومة المصرية موقفها بأزاء مشكلة القناة في مذكرتها لمجلس الأمن (الأهرام ١٨ سبتمبر) ، وبينت فيها حرصها الشديد على حماية حرية الملاحة في القناة مهما حاولت إنجلترا وفرنسا عرقلة ما تبذل من مساع صادقة في هذا السيل .
وهذا هو نص المذكرة المصرية :

« لقد ادعت حكومتا فرنسا والمملكة المتحدة في خطابهما المشترك إلى مجلس الأمن في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٥٦ أن الحكومة المصرية قد حاولت من جانب واحد إنهاء نظام الإدارة الدولية لقناة السويس الذي أكدته وأكملتته إتفاقية قناة السويس لسنة ١٨٨٨ .

وإدعاء ، إنجلترا وفرنسا لا يستند مطلقاً إلى أى سند قانوني أو تاريخي أو أدبي فالإ جانب النص الصريح للবাদة الرابعة عشرة من إتفاقية القسطنطينية التي تنص على أن الالتزامات الناتجة عن الإتفاقية الحالية لا تتقيد بمدة الإمتياز الممنوح لشركة قناة السويس والتي تثبت زيف هذا الادعاء فإن تاريخ شركة قناة السويس وظروف تكوينها وارتباطها بالإتفاقية وكذلك استحالة تصور الاعتراف بوضع أبدي لهذه الشركة ،

كل ذلك لا يمكن بحال أن يؤيد هذه النظرية .
ومن ناحية أخرى فإن القانون الذي أمت بمقتضاه شركة قناة السويس قد نص على تعويض حلة الأسهم تعويضاً كاملاً عادلاً ، كما أنشأ لإدارة القناة هيئة مستقلة لها ميزانية مستقلة ، وقد زودت هذه الهيئة بجميع السلطات الضرورية دون التقيد بالقواعد والنظم الحكومية ، وقد قرنت الحكومة المصرية التأميم باعلان عزمها على المضي في ضمان حرية المرور في القناة وفقاً لاتفاقية ١٨٨٨ .

وبالرغم من أن مصر قد قامت بالتأميم مباشرة منها لحقوق سيادتها دون تحد أو مساس بحقوق أية أمة فإن ذلك العمل قوبل بتصريحات من كل من حكومتى فرنسا والمملكة المتحدة تتضمن التهديد باستخدام القوة وتعلن عن تدابير قامت بها هاتان الحكومتان للتعبئة وتحركات القوات المسلحة كما اتخذت تدابير إقتصادية معادية ضد مصر .

وقد عمدت حكومتا فرنسا والمملكة المتحدة بالاشتراك مع بعض موظفي شركة قناة السويس السابقة إلى تحريض الموظفين والمرشدين الذين يعملون في قناة السويس على ترك عملهم محاولين بذلك عرقلة سير الملاحة في القناة .

وقد وجهت حكومات فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية دعوة إلى إحدى وعشرين دولة من بينها مصر لحضور مؤتمر يعقد في لندن للبحث في اقتراح بإنشاء إدارة دولية لقناة السويس .

« وفي ١٢ أغسطس أعلنت الحكومة المصرية رفضها لحضور ذلك المؤتمر الذي عقد لبحث مستقبل جزء لا يتجزأ من مصر دون الرجوع إلى مصر أو التشاور معها .

« وجدير بالذكر أنه بالرغم من أن الحكومة المصرية قد أعلنت في ١٢ أغسطس ١٩٥٦ استعدادها للاشتراك مع حكومات الدول الأخرى الموقعة على اتفاقية القسطنطينية لسنة ١٨٨٨ في الدعوة إلى مؤتمر لإعادة النظر في الاتفاقية فإنه لم تجر حتى الآن أية مفاوضات مع مصر .

« وقد درست الحكومة المصرية بعناية المقترحات التي قدمت إليها ووجهات النظر المختلفة التي أبديت حول مسألة قناة السويس في مؤتمر لندن وخارجه .

« وفي ١٠ سبتمبر ١٩٥٦ أعربت الحكومة المصرية من جديد عن إيمانها بأنه من الممكن ومن الواجب العمل على إيجاد حلول بالوسائل السلمية للمسائل المتعلقة بما يلي :

١ - حرية وسلامة الملاحة في القناة .

ب - تنمية القناة لمواجهة مقتضيات الملاحة في المستقبل .

ج - وضع رسوم عادلة .

« وتحقيقاً لذلك اقترحت الحكومة المصرية - كخطوة أولى -

تشكيل هيئة مفاوضة تمثل فيها وجهات النظر المختلفة للدول التي تستعمل القناة ، والمبادرة إلى إجراء محادثات للاتفاق على تشكيل هذه الهيئة

ومكان وموعد انعقادها ، ويمكن أن يعهد إلى هذه الهيئة أيضاً بمهمة إعادة النظر في اتفاقية القسطنطينية لسنة ١٨٨٨ .

وترى الحكومة المصرية أن تتألف هيئة المفاوضة هذه من ممثلين لمصر ولحوالي ثمانى دول من الدول المستعملة للقناة ، ويمكن الإتفاق على اختيار هذه الدول بالطرق الدبلوماسية .

وقد تلقت الحكومة المصرية حتى الآن موافقة رسمية على مقترحاتها من إحدى وعشرين دولة .

وعلى النقيض من هذه السياسة السلبية التى تتسم بطابع الاعتدال من جانب الحكومة المصرية ، فإن رئيس وزراء المملكة المتحدة قد أعلن فى بيانه أمام مجلس العموم فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٦ أن الحكومة البريطانية قد قررت بالاشتراك مع حكومات أخرى أن تقوم دون إبطاء بإنشاء منظمة لتمكين المستعملين للقناة من مباشرة حقوقهم... وإن هيئة المنتفعين بالقناة ستستخدم المرشدين وستقوم بمهمة تنسيق المرور فى القناة... وأن رسوم المرور ستدفع لهيئة المنتفعين لا للسلطات المصرية... كما ذهب إلى التحذير بأنه إذا حاولت الحكومة المصرية التدخل فى عمليات هيئة المنتفعين أو رفضت أن تقدم لها القدر اللازم من التعاون فإن هذه الحكومة ستعتبر أنها خرقت مرة أخرى إتفاقية عام ١٨٨٨ .

إن الحكومة المصرية ترى فى هيئة المنتفعين المقترحة ما يتعارض

مع كرامة مصر وحقوق سيادتها ، وتعدده انتهاكا خطيرا لميثاق الأمم المتحدة واتفاقية ١٨٨٨ ، فهية المتفعين على النحو المقترح فى بيان رئيس وزراء المملكة المتحدة يهدف بطريقة لم يسبق لها مثيل إلى إقامة منظمة تخول لنفسها سلطات داخل إقليم دولة ذات سيادة وعضو من أعضاء الأمم المتحدة دون موافقة هذه الدولة .

« إن مثل هذا التدخل فى القناة سوف يهدد حرية الملاحة فيها ، وسوف يضر بمصالح الدول المستعملة للقناة ، فضلا عما تضمنه من تهديد السلام والأمن الدولى ، ذلك أن اتفاقية القسطنطينية وإن كانت تنص على حرية المرور فى القناة إلا أنها لا تسلب مصر بأى حال من الأحوال حقها فى إدارة القناة .

« وبالإضافة إلى عدم مشروعية هيئة المتفعين ، فإنها ستؤدى إلى وضع معقد ومتناقض نتيجة لوجود هيتين متعارضتين : إحداهما قانونية والأخرى غير قانونية ؛ إحداهما سلطة شرعية والأخرى مغتصبة ، ولا يستطيع أحد أن ينكر المخاطر التى ينطوى عليها هذا الوضع .

« إن هذا الاقتراح ليس هناك ما يدعو إليه ، وبخاصة إذا ما تذكرنا أنه على الرغم من المصاعب التى أثارها فرنسا والمملكة المتحدة وشركة قناة السويس السابقة ، فإن المرور فى القناة قد استمر بانتظام وكفاية ما يقرب من ستين يوماً ، ويؤيد ذلك أن حوالى ٢١١٦ سفينة مرت فى القناة منذ وقوع التأميم فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، ويمكن مقارنة هذا العدد

بعدد السفن التي مرّت في القناة في المدة نفسها من عام ١٩٥٥ وهو
« ٢١٠٢ ، سفينة » .

« ويلاحظ بوجه خاص أنه خلال الفترة التي مرّت منذ الأعمال التي
قامت بها كل من فرنسا وبريطانيا ، وكذلك بعض عناصر شركة قناة
السويس السابقة . ومنذ أن ترك المرشدون الفرنسيون والبريطانيون
أعمالهم أن السفن تمر في سلام تام وانتظام .

« إن هذا النجاح الملحوظ في أعمال الملاحة في القناة منذ تأميم شركة
قناة السويس قد أمكن إحرازه رغم العقبات التي لانهاية لها وأعمال
التخريب السابق الإشارة إليها ، ويرجع ذلك إلى العناية الفائقة التي
تولتها الحكومة المصرية لحرية الملاحة في القناة وإلى الجهود المتصلة
للهيئة التي خصصتها لإدارة القناة ، وعلى ضوء ما تقدم ترغب الحكومة
المصرية أن تعلن أنه يجب على كل سفينة تريد المرور في القناة أن تراعى
التعليمات المقررة للمرور فيها وأن تدفع الرسوم للجهة المختصة .

« إن الحكومة المصرية عازمة على ألا تدخر وسعاً في الوصول إلى
حل سلمي لمسألة القناة على أساس الاعتراف بسيادة مصر وحقوقها
المشروعة ووفقاً لميثاق الأمم المتحدة وعلى نحو يساهم في تقديم القناة بما
يعود بالنفع على كافة الأمم ويساهم في رخاء العالم وسلامه وأمنه .

« وتحقيقاً لهذا كان من الضروري وضع حد للأعمال التي أشرنا إليها
والتي تهدف بها فرنسا والمملكة المتحدة على وجه الخصوص إلى الاستيلاء

على القناة والقضاء على صميم استقلال مصر . . والتي تعتبر خطراً جدياً
على السلام الدول وتعتبر انتهاكا بالغ الخطورة لميثاق الأمم المتحدة . . .

ولما لم تستطع الدولتان إنجلترا وفرنسا فرض مشروعهما بهيئة
المنتفعين على مصر ، وجدتا أن تتقدما بشكوى إلى مجلس الأمن تبين فيها
أن الخطوة التي خطتها مصر بتأميم القناة فيها خطر كبير على السلام العالمى ،
وأدرجت هذه الشكوى للنظر ، وتقدمت مصر من ناحيتها هى الأخرى
بشكوى تبين فيها أن تصرفات الدولتين فيها خطر على السلام العالمى
وإهدار لحقوق مصر . وأيدت الولايات المتحدة مصر فى إدراج شكواها .
وفى مجلس الأمن فى جلسة ٦ أكتوبر افتتح سلوين لويد وزير
خارجية إنجلترا ومندوبها المناقشة ، وأبان عن مشروع قرار باسم بريطانيا
وفرنسا مكون من خمس بنود وهى :

- ١ - أن يؤكد مجلس الأمن من جديد مبدأ حرية الملاحة . . .
- ٢ - أن يؤكد المجلس ضرورة حماية الضمانات والحقوق التي تتمتع بها
جميع الدول التي تستخدم القناة . . أى إدارة القناة بهيئة ذات طابع دولي .
- ٣ - إقرار العمل الذي اتخذته الدول الثماني عشرة عندما قدمت
مقترحات تهدف إلى إيجاد تسوية سلبية للمسألة .
- ٤ - أن يوصى المجلس حكومة مصر بالتفاوض على أساس هذه
المقترحات .

ه - أن يوصى المجلس حكومة مصر في الوقت نفسه بالتعاون مع هيئة المنتفعين بالقناة .

و قرر سلوين لويد أن قرار مصر بتأميم القناة لا يلغى الحقوق الدولية القائمة ، وأن عمل مصر فيه قضاء على الضمانات التي كانت لدى الدول المستخدمة للقناة ، وأكد عزم إنجلترا على الحصول على ضمانات واضحة جلية ، ، وذكر أن مقترحات لندن صالحة كأساس للنسوية ، ، وأشار إلى أن المعونة اللازمة لتوسيع القناة لن تأتي إلا بعد استعادة الثقة بين الجانبين .

وأما حليفه كريستيان پينو ممثل فرنسا ، فبعد مقدمة حمل فيها على رئيس جمهورية مصر بين وجهة نظر دولته بالقناة في نظره دولية في أسهمها وفي مجلس إدارتها وفي أغراضها وتخضع في بعض النواحي للقانون الفرنسي والقانون الدولي ، وأن إدارتها الرئيسية هي في باريس ، وأن تأميم مصر للقناة كان عملاً انتقامياً وأيد المشروع الإنجليزي .

ولقد وقفت استراليا من بين دول الكومنولث إلى جانب إنجلترا تؤيدها فذكر مندوبها أن عمل مصر ليس فيه شيء من مبادئ حسن الجوار بالنسبة للدول التي تعتمد تجارتها على حرية الملاحة في قناة السويس ، ... وأن عمل مصر سيكون له آثار بعيدة المدى على تدفق رؤوس الأموال الدولية إلى البلاد المتخلفة . وأن عمل مصر غير قانوني ، وإذا كانت استراليا قد وقفت في صف إنجلترا ، فلقد وجدت مصر

تأييداً قوياً من جانب روسيا ويوغوسلافيا .

لقد أعلنت مصر عن وجهة نظرها في مجلس الأمن وعن قرارها
رفض المشروع الإنجليزى الفرنسى المقدم إلى مجلس الأمن - بين مندوب
مصر الدكتور فوزى مشروعية عمل مصر وتأييد كثير من الأمم لها .
وبعد أن استعرض بإيجاز تاريخ القناة عاد إلى التأميم ، وأكد استعداد
مصر لتعويض حملة الأسهم وفقاً لسعر السوق يوم ٢٥ يوليو . وأن مصر
ستكون مستعدة لكل آخر لدفع التعويضات على أساس متوسط سعر
الأسهم في السنوات الخمس السابقة للتأميم ، وأنه إذا لم يتم الاتفاق على
هذا الأساس فإن الحكومة المصرية ستكون مستعدة لقبول التحكيم . .
وبين أن مصر قد اقترحت إنشاء هيئة للمفاوضة تمثل وجهات النظر التي
أعلنتها الدول التي تستخدم القناة ، وأبان عن أسف الحكومة المصرية
لما قامت به الحكومتان البريطانية والفرنسية من استعراض لقواتهما
الحربية ضد مصر ، وما قامتا به من محاولات لتعطيل الملاحة في القناة
وذلك بسحب الخبراء الفنيين والمرشدين من العمل في قناة السويس ،
وفي الوقت الذى أكد فيه ممثل مصر رغبة مصر الصادقة في ألا
يوجد تمييزاً بين الدول المستخدمة للقناة وفي الوصول إلى تسوية
سلبية متفقة مع ميثاق الأمم المتحدة أكد أن الملاحة في القناة لم تتعطل
« برغم أعمال التخريب التي عمدت إليها الحكومتان الفرنسية والبريطانية
بالاشتراك مع شركة القناة السابقة ، »

وبين الدكتور فوزى تجدى الحكومتين الإنجليزية والفرنسية لسيادة الدولة المصرية ، وتهكم على الفكرة التى تقول بها الحكومتان من أن عمل مصر فيه تهديد للسلام العالمى إذ أن مصر ، كما يقول ، قامت بعمل يتفق مع حقوقها المعترف بها كدولة مستقلة ذات سيادة . وأشار إلى قرار الأمم المتحدة فى « حق الشعوب فى استخدام مواردها ثروتها ، وذلك طبقاً لسيادتها ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة . كما قررت هيئة الأمم أن تمتنع جميع الدول عن الأعمال المباشرة وغير المباشرة التى تهدف إلى تعطيل أعمال السيادة لكل دولة .»

وأكد مندوب مصر مصرية شركة القناة ، وبين أنه قد خلط عمداً بين حرية الملاحة فى القناة وبين إدارتها ، وأن اتفاقية سنة ١٨٨٨ كان الغرض منها تكملة النظام الذى وضعه فرمان سنة ١٨٦٦ ، فاتفاقية سنة ١٨٨٨ قد تضمنت نصوص هذا الامتياز بطريقة أوفى . . . وقال : إن شركة قناة السويس لم تكن جزءاً من النظام الذى تناولت فيه اتفاقية سنة ١٨٨٨ .»

أبان مندوب مصر عن رغبة مصر فى المفاوضة ، وذكر من بين الأسباب التى تمنع مصر من الاشتراك فى مؤتمر لندن ذلك التهديد والوعيد الذى سبقه ، فلقد كان عقد المؤتمر إنذاراً لادعوة ، ولم نكن مدعوين لحضور مؤتمر بل كنا مطلوبين للحكمة . . وهنا ذكر الدكتور فوزى أن التهديد باستخدام القوة ليس موجهاً ضد مصر وحدها ، بل

إلى الأمم المتحدة . ففي نظر مصر ، التهديد باستخدام القوة والأعمال
العدوانية ضد مصر ، هذا قد أصاب العالم بصدمة . . . ورج . . المبادئ
والمثل العليا التي تضمنها ميثاق الأمم المتحدة ، ، وبين أن توجيه الاتهامات
والقذف إلى الحكومة المصرية ورئيسها ، يتجافى مع ما يجب أن يتوافر
في العلاقات بين الحكومات ، . . « وأن عمل الدولتين لينهى بالرغبة
في التدخل في شئون مصر الداخلية ، ، الأمر الذي لن تقبله مصر أبدا .
ووجدت مصر تأييداً قوياً من روسيا ، فلقد أيد شيلوف وزير
خارجية روسيا وجهة النظر المصرية ورفض مشروع التدويل ، وانتقد
التدابير الاقتصادية التي اتخذتها إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ، كما
هاجم سياسة التلويح بالقوة ، فذكر أن إنجلترا وفرنسا قد حشدتا ثمانية
عشر سرباً جويّاً بها أكثر من ألف طائرة ، و١٨٥ سفينة حربية وفرقة
مدركة كاملة ، وأربعة لواءات ، وثلاثة عشر ألأيا ومجموعتين من المدفعية
الثقيلة ووحدات أخرى مجهزة بأحدث الأسلحة . كل هذا لتهديد مصر ،
وبعد أن هاجم سياسة الغرب « الاحتكارية الاستعمارية » ، اقترح لجنة
للمفاوضة من ثمانى دول هي : مصر وإنجلترا وفرنسا وروسيا والولايات
المتحدة والهند ، ويوغوسلافيا وإيران أو اندونيسيا والسويد ، على أن
يعقد مؤتمر دولى يشمل جميع الدول التي تمر سفنها فى القناة . ونادى بأن
تكون تلك اللجنة متوازنة بحيث لا ترجح وجهة نظر على أخرى ، وبين
أن نجاح مجلس الأمن فى حل هذه المشكلة حلاً مرضياً يدعم مركز الأمم

المتحدة وسلطانها في نظر الرأى العام العالمى . ودحض شيلوف الفكرة التى تقول إنه لضمان حرية الملاحة فى القناة لابد من تدويل إدارة القناة ، وأعلن ، أن شركة القناة السابقة كانت معقلا من معاقل الاستعمار فى الشرق الأوسط ، وأن انهيارها هو « انهيار لنظام الاستعمار الفاسد » ، وندد شيلوف بسياسة الدولتين التى تعمل على تعطيل الملاحة فى القناة . كما انتقد سياسة الولايات المتحدة من الناحية البترولية التى ترمى إلى الإضرار لا بمصالح مصر وحدها ، بل بمصالح بريطانيا وفرنسا نفسها ، وأشار إلى الانقسام الواقع بين القائلين بهيئة المنتفعين .

وأما المندوب الأمريكى دلاس ، فلقد وضع فى خطابه الذى ألقاه يوم ١٠ أكتوبر أساساً من أسس سياسة دولته فيما يختص بمشكلة القناة ، وهى إبعاد القناة عن السياسة الدولية والسياسة القومية لأية دولة . وأيد مشروع القرار البريطانى الفرنسى بإقامة إشراف دولى على القناة . فقال إن القناة مصرية من حيث أنها تمر فى أرض مصرية ، ولكنها لم تكن أبداً من شئون مصر الداخلية بحيث تفعل فيها ما تشاء ، وإنما كانت ممراً - كما يقول - مائياً دولياً . وقال « إنه إذا استخدم هذا الممر المائى كوسيلة للسياسة القومية للحكومة التى تسيطر عليه لأصبح مثاراً للزراع الدولى . ولم ينس دلاس أن يوجه نقداً لكلام المندوب الروسى عن « الاحتكارات الأمريكية » ، وعن لجنة المفاوضة ، واتهم سياسة روسيا بأنها سياسة الصيد فى الماء العكر وجنى المنافع عن طريق الجدل ،

وأعلن فوستر دلاس تأييده لمبادئ مؤتمر لندن
ولقد وافقت الدول على أن تقوم مفاوضات سرية الغرض منها
إتاحة الفرصة للجانبين بعد أن أعلنوا عن وجهة نظرهما بالبحث عن
مبادئ تكون أساساً لمفاوضات تصل بالفريقين إلى نتيجة مرضية .
وأُسفرت هذه المفاوضات السرية عن الموافقة على مبادئ ستة هي :
١ - حرية الملاحة ، وأن تكون القناة مفتوحة لجميع سفن الدول
دون أى تمييز .

٢ - احترام سيادة مصر .

٣ - انفصال إدارة القناة عن سياسة أية دولة .

٤ - تحديد الرسوم والمصروفات يكون وفقاً لاتفاق بين مصر
والبلاد المنتفعة .

٥ - تخصيص جانب عادل من الرسوم لتحسين القناة .

٦ - اللجوء إلى التحكيم في حالة الخلاف بين الحكومة وشركة القناة

السابقة . . .

ولكن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية أرادتا في جلسة ١٣ أكتوبر
إضافة طلب إقرار مجلس الأمن لمقترحات الدول الثماني عشرة التي تمنح
عنها مؤتمر لندن بأنها تشبى مع الأمن التي اتفق عليها فعلاً في مجلس الأمن ،
وطلب دعوة مصر للتقدم بمقترحات واضحة تكفل للمتفعين ضمانات
فعالة كالضمانات الواردة في مقترحات الدول الثماني عشرة وطلب تعاون

مصر مع هيئة المتفعين لضمان عمل القناة وحرية الملاحة إلى أن يتم الاتفاق النهائي .

ولقد أعلن ممثل مصر قبوله للمبادئ الستة الأولى ورفضه للجزء المضاف الذى اقترحه الحكومتان الإنجليزية والفرنسية وطلب من المجلس عدم الموافقة عليه ، وأيدت روسيا مصر فى موقفها هذا واستخدمت حق الفيتو فيما يخص بالجزء المضاف . وبذا يكون المجلس قد وافق على المبادئ الست فحسب ، ولا ريب أن جانباً كبيراً من الفضل فى التوفيق يرجع إلى سكرتير هيئة الأمم المتحدة مستر هرشولد وإلى موقف الرئيس أيزنهاور الذى أعلنه باهتمامه بحل المسألة حلاً سلبياً .

بقى الاتفاق على مسألة تطبيق هذه المبادئ الستة فى مفاوضات أخرى فى ٥ أكتوبر ١٩٥٦ .

.....
وبالرغم من أن مصر وافقت على النقاط الست التى أقرها مجلس الأمن كأساس لحل مشكلة القناة ، وبالرغم من أن ذلك المجلس أوصى بقيام مفاوضات بين الجانبين المتخاصمين ، وبالرغم من أن سكرتير الأمم المتحدة قد أخطر مصر بأن هذه المفاوضات ستبدأ فى جنيف يوم ٢٩ أكتوبر ، بالرغم من كل هذا ، وجدت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية التخلّى عن سياسة السلام ، وجدت الدولتان التخلّى عن سياسة العمل على صون التوازن السياسى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط هذه السياسة التى ادعتا أنها تنفذانها منذ سنة ١٩٥٠ . ورأت الحكومة

البريطانية التخلي عن معاهدة سنة ١٩٥٤ بينها وبين مصر والتي ينص روحها على الصداقة بين الدولتين بل والتعاون في ظروف معينة ، وقررت الحكومتان التعاون مع إسرائيل والقيام بأعمال عدوانية ضد مصر ، رأت إنجلترا استخدام إسرائيل لخدمة مصالحها ، ولا ندري الآن على وجه التحقيق الشروط التي قام عليها الاتفاق بين الدول الثلاث ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن الدول الثلاث متفقة ومتعاونة قررت الاعتماد على مصر والأراضي المصرية .

ولم تلق الدول الثلاث بالا للرأى العام العالمى الذى أكد فى أكثر من موقف رغبته فى حل مشكلة القناة سلبياً ، وتجاهلت ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على احترام حقوق الدول الصغيرة . ولم تأبه لما لما تتخذه الدول الآسيوية والأفريقية من موقف يازام الأمبريالزم والسياسة الاستعمارية القديمة ، وتناسب الروابط الكثيرة التى قامت بين الشعوب العربية . لقد رأت الدول الثلاث استغلال الظروف العالمية بانشغال الاتحاد السوفيتى بمسائل وسط أوروبا وخاصة مسألة المجر ، وانشغال الولايات المتحدة بانتخابات الرئاسة فيها ، وكانت الدول الثلاث التى قررت العدوان تقدر أن الاتحاد السوفيتى لن يتدخل تدخلا حاسماً ولن يتخذ موقفاً صارماً يازام اعتدائها ، كما ظنت هذه الدول أن الرئيس أيزنهاور لن يستطيع منعها من التدخل الحربى ، فهى لها الحق فى اتخاذ سياسة مستقلة عن السياسة الأمريكية ، بل إن الرئيس الأمريكى

سيضطر في نظرهما في آخر الأمر تنفيذاً لاتفاق الأطلنطي إلى تأييدهما إذا حدث وهددهما الاتحاد السوفيتي . وكانت الدول المعتدية فوق ذلك تظن أنه من اليسير إخضاع مصر والقضاء على قوتها الحربية قبل أن تستطيع هيئة الأمم أو غيرها التدخل تدخلاً حاسماً . كانت هذه الدول تعتقد لنحس طالما أن العالم سيقر عملياً سياسة القوة ويقبل الأمر الواقع .

ولذا أسرت الدول الثلاث أمرها فيما بينها ، ومدت إسرائيل بالأسلحة والعتاد الحربي وأوعزت إليها بمهاجمة الحدود المصرية ، ولعل الخطة المتفاهم عليها كانت أن يقوم الجيش الإسرائيلي بمهاجمة الجيش المصري وشغله في شبه جزيرة سيناء ، وبذا تستطيع الدولتان الأخريان إزّال قوائمه بسهولة في منطقة القناة والاستيلاء عليها وقطع اتصال الجيش المصري بقواعده ومراكز تموينه ، وبذلك توضع مصر والعالم أمام أمر واقع باحتلال إسرائيل لمنطقة سيناء واحتلال انجليزى فرنسى لمنطقة القناة ، ولذلك لم يكذب الإسرائيليون يهاجمون سيناء في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ حتى قدمت الدولتان يوم ٣٠ أكتوبر إنذار إلى الحكومة المصرية بتسليم بورسعيد والإسماعيلية والسويس حتى تستطيعا حماية القناة ، وأن تنسحب قوات مصر وإسرائيل إلى مسافة عشرة أميال من القناة ، وحددت انجلترا وفرنسا اثنتى عشرة ساعة لإنذارهما .

ورأت الحكومة المصرية رفض ذلك الإنذار الذى ينطوى قبوله

على التسليم باحتلال إسرائيل لشبه جزيرة سيناء واحتلال إنجلترا فرنسي للقناة . وأعلنت أن مضر ستدافع عن أراضيها واستقلالها ، ولكي تفسد على إنجلترا وفرنسا خططهما التي ترمي إلى عزل الجيش المصري في سيناء ، قررت سحب الجيش إلى غرب القناة حتى تستطيع مقاومة نزول القوات الانجليزية والفرنسية في القناة ومصر .

وأخذت الدولتان إنجلترا وفرنسا في الاعتداء على الأراضي والمدن المصرية وخاصة منطقة القناة والمطارات وفي ضرب بورسعيد من الجو والبحر ، وبدأت في إنزال قوات جوية في بورسعيد قاومها المصريون مقاومة مشهودة . ثم حاولت الدولتان إنزال قوات من البحر في منطقة بورسعيد أيضاً قاومها المصريون مقاومة عنيفة . ثم كان للقتال في أرض مصر أن يقف بأمر هيئة الأمم المتحدة !

فلقد ثار الرأي العام العالمي الحر ، وهيئة الأمم المتحدة على الاعتداء البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر وضرب المدن المصرية بالقنابل وخاصة بعد أن وافقت الدول في مجلس الأمن على حل مشكلة القناة عن طريق السلم واستبعاد فكرة استخدام القوة - ثار الرأي العام العالمي الحر وهيئة الأمم المتحدة لعودة الاستعمارية الصهيونية والنيستيرية الإنجليزية الفرنسية - ثار لمحاولة إنجلترا وفرنسا وإسرائيل لإحياء استعمارية القرن التاسع عشر التي لم يعد لها مكان بعد حريين عالميتين كبيرتين ، وبعد قيام هيئة الأمم المتحدة وإعلان احترام حقوق الإنسان

وحق الشعوب الصغيرة في الحياة . كان للأمم المتحدة أن تتدخل لوقف ذلك الاعتداء وإلا فقدت مركزها نهائياً ولم يعد أى مبرر لبقائها .

وأضعف من مركز إنجلترا وفرنسا وأدى إلى خذلانهما جملة عوامل منها كما رأينا وقوف الرأي العام العالمى الحر إلى جانب مصر . ثم انقسام رأى فى بريطانيا وفرنسا نفسيهما ، فلقد وقعت المعارضة العمالية فى إنجلترا صفاً واحداً ضد خطة حكومة المحافظين فى الاعتداء على مصر ، وبينت بقوة أن سياسة المحافظين ستؤدى حتماً إلى القضاء على سمعة إنجلترا وتمزيق الكومنولث ، وطالبت بضرورة احترام قرارات هيئة الأمم المتحدة ، ذلك النظام الذى اشتركت بريطانيا فى إنشائه كأداة للحفاظ على سلم العالم وسلامه . لقد تساءل العمال فى وضوح وعنف عن السر فى استهانة الحكومة بقرارات هيئة الأمم المتحدة ، ونادى جيتسكل زعيم حزب العمال بأنه قد نشأ عن أعمال المحافظين تحذير من جانب روسيا (سياتى ذكره فيما بعد) بسحق العدوان على مصر ، وهو آخر شئ تحب أن تراه إنجلترا . لقد سخر العمال من إعلان إيدن أن هدفه من غزو مصر هو الفصل بين المتحاربين وحماية القناة ١ وذهلوا لعدم احترام الحكومة البريطانية لقرارات هيئة الأمم فى ٢ نوفمبر بوقف القتال ، وفزع رأى العام الإنجليزى حين علم بتحذير روسيا العنيف . ولذا فقد كان مركز الحكومة البريطانية حرجاً للغاية ، وخاصة بعد أن عرف الانقسام بين أعضاء وزارة إيدن من المحافظين أنفسهم ،

ففریق على رأسه إیدن وسلوین لویڈ یرى الاستمرار فى سياسة العنف ، وفریق معتدل على رأسه ریتشارد أوستن بتلر یرى أن ماتكسبه انجلترا من استمرار الحرب لایوازى زیادة سخط العالم واسقیاء الولايات المتحدة . ولقد استقال بالفعل وزیر الدولة ناتنج كما استقال ولیم كلارك المستشار الصحفى لإیدن ، كما استقال إدوارد بویل وکیل المالیة البريطانىة ، كما استقال بعض نواب المحافظین وذلك احتجاجاً على سياسة الحكومة . فلم تكن الحكومة البريطانىة من المحافظین تستطيع الاعتماد على تأیید الرأى العام البريطانى لها ، ذلك التأيید الشعبى اللازم لاستمرار الحكومة فى الحرب ضد مصر . وأما فى فرنسا فلم یرق الشیوعین عدوان الحكومة الفرنسیة على الأراضى المصریة .

وأما فى مصر فلقد ناضل المصریون نضالاً عنیفاً قضى على اعتقاد انجلترا وفرنسا من أن مصر ستنتهار بسرعة أمام اعتداتهما ، وظهر أمام العالم تصميم مصر على الذود عن حریتها وكرامتها .

ولاریب أن من أهم العوامل فى خذلان انجلترا وفرنسا المواقف التى اتخذتها الشعوب العربیة والكتلة الآسیویة الأفریقیة ، أما موقف الاتحاد السوفیئى والولايات المتحدة فكان حاسماً فى وقف العدوان الفرنسى الإنجلیزى الإسرائیلى وفى وقف القتال . بل وانسحاب القوات المعتدیة . . فأما الشعوب العربیة فقد أبانت . من أول لحظة تساندها مع مصر وأن قضية مصر هى قضیتها . . لقد وقعت شعوب سوريا ولبنان

والأردن وبلاد العرب السعودية والعراق إلى جانب مصر تحتج بشدة على العدوان الإسرائيلي الفرنسي الإنجليزى ، وقامت بعض الشعوب العربية بنسف أنابيب البترول فى بلادها فتوقفت أنابيب البترول فى كثير من المناطق عن العمل ، وأرسلت سوريا والمملكة العربية السعودية جيوشها لتقف بجانب الجيش الأردنى فى الأردن ، وقام رئيس جمهورية سوريا شكرى القوتلى بزيارة لموسكو لتوكيد الصلات بين العرب وروسيا ولتزويد سوريا بالأسلحة ، ولقد ذكر رئيس الجمهورية المصرية فى خطبته يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٦ أن ملك المملكة السعودية قال له : « إن جيش المملكة السعودية وأموال المملكة السعودية تحت تصرفنا ، أى مصر ، » وقال لى الملك حسين أن الجيش الأردنى مستعد بناء على الاتفاق الثلاثى الذى وقع منذ ١٥ يوماً أن ينفذ كل مآثره القيادة المشتركة ، « والرئيس شكرى القوتلى قال إنه مستعد بأن يقوم بكل عمل تكلفه به القيادة المشتركة ، » والشعوب العربية فى كل مكان تعاونت ضد الاستعمار ... من العراق إلى مراكش ، وأضاف رئيس جمهورية مصر بقوله : « دخلنا المعركة وكانت القومية العربية كلاماً ... وخرجنا وقد أصبحت عملاً حقيقياً ... العرب نسفوا أنابيب البترول وعرضوا أنفسهم للخسارة فكان ذلك ضربة للأعداء وكسباً للقومية العربية ، »

وأما الكتلة الآسيوية الأفريقية ففضلاً عن إعلان استيائها من الاعتداء على مصر ، فقد قدمت إلى هيئة الأمم مشروعاً ووافق عليه يقضى

بضرورة انسحاب كل الدول المعتدية من الاراضى المصرية وكان موقف كل من الهند وأندونيسيا والصين الشيوعية مشهوداً في جانب قضية مصر .

وأما الولايات المتحدة فكان أمامها العمل على إيجاد حل سلمي للأزمة أو خوض غمار حرب ذرية ، حرب عالمية ثالثة أو حرب كورية جديدة . وجدت الولايات المتحدة أن واجبها يقضى بوقف القتال قبل أن تستطيع روسيا إرسال قوى حربية إلى منطقة القناة أو إرسال متطوعين إلى مصر .

ولذا من أول الأمر لم تكن من أنصار استخدام القوة ضد مصر ولم تؤيد حليفاتها في استخدام القوة والالتجاء إلى العدوان كوسيلة لفض المشكلات الدولية - وطلبت من انجلترا وفرنسا وإسرائيل احترام قرارات هيئة الأمم المتحدة .

وأما الاتحاد السوفيتى ، فلقد استنكر بشدة العدوان الإنجليزى الفرنسى الاسرائيلى ، وجهر بعطفه على مصر ، وأيد قرارات هيئة الأمم المتحدة بوقف القتال ، ولما وجد أن انجلترا وفرنسا لم تنفذا قرار الأمم المتحدة فى ٢ نوفمبر بوقف القتال ، تقدم رئيس وزرائه بولجائين باقتراح إلى الولايات المتحدة يقضى بالتعاون بين الدولتين لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة حيث أن الدولتين أقوى دولتين فى العالم وعليهما يجب أن يقع عبء المحافظة على السلام فى الشرق الأوسط .

ولقد بينت الولايات المتحدة ، وهما بطبيعة الحال سلامة إنجلترا وفرنسا ، أنها تعمل على حل الأزمة داخل الأمم المتحدة وأن دخول قوة جديدة في الشرق الأوسط سيزيد في تعقد الأزمة ، وخاصة بعد أن وافقت هيئة الأمم على وقف الاعتداء الإسرائيلي الانجليزي الفرنسي ، وبينت الولايات المتحدة في فرصة أخرى أنها لن تسمح لقوة جديدة بالتدخل في الشرق الأوسط إلا بانتداب من الأمم المتحدة .

وأمام موقف الولايات المتحدة اضطر الاتحاد السوفيتي إلى أن يعلن أنه سيقوم وحده باتخاذ ما يراه من اجراءات لاحترام قرارات هيئة الأمم في الشرق الأوسط والقضاء على العدوان الانجليزي الفرنسي الإسرائيلي ، وأرسل بولجانين إنذاراً إلى إنجلترا وفرنسا هدد فيه باستخدام القوة ضد الدولتين إذا لم توقعا عدوانهما ، كما أرسل إلى إسرائيل تحذيراً قوياً وسحب سفيره من تل أبيب . هددت روسيا بحرب عالمية ثالثة إذا لم تكف إنجلترا وفرنسا وإسرائيل عن القتال في منطقة القناة ولقد أبدت دولة الصين الشعبية روسيا في إنذارها وأعلنت عن عزمها الأكيد في مساعدة مصر بإرسال متطوعيها للتحرب بجانب المصريين .

وأسرعت حكومات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل إلى الولايات المتحدة لتستشف رأيها في هذا الإنذار ، ونصحت الولايات المتحدة هذه الدول بضرورة احترام قرارات هيئة الأمم المتحدة إذا أرادت إنقاذ موقفها في الشرق الأوسط ، لقد بين الرئيس الأمريكي أيزنهاور أن

الولايات المتحدة لاثجد نفسها مضطرة لحماية قوى هذه الدول في الشرق الأوسط إذا هاجتها روسيا ، وهدد إسرائيل بقطع العون الأمريكى ، وبعدم مساعدتها ضد روسيا إذا تلىكأ الإسرائيليون في وقف القتال وأصروا على عنادهم ، (وتعتمد إسرائيل في أكثر من ٣٥ ٪ من ميزانيتها على الدولارات الأمريكية) ، وتكرر هذا الانذار لإسرائيل حين رفضت سحب جنودها من شبه جزيرة سيناء .

رأت الدول المعتدية أمام إنذار روسيا العنيف وموقف أيزنهاور الحاسم الانصياع إلى قرار هيئة الأمم ، وإن كانت انجلترا تتبعها فرنسا قد احتجت على الانذار الروسى ، « فبريطانيا - كما يقول رئيس وزارتها - ترحب بتأييد الحكومة الروسية للاقتراح الخاص بتأليف قوة دولية في الشرق الأوسط وأن بريطانيا تعلن عن رغبتها في أن تقوم الأمم المتحدة بمهمة إقرار السلام في المنطقة بطريقة عملية » ، وأضافت الحكومة البريطانية بأن : « ما قامت به كان شرطاً أساسياً لخلق قوة تابعة للأمم المتحدة لتقوم بهذه المهمة » ،

وكانت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قد قررت في ٢ نوفمبر هذه المبادئ :

- ١ - وقف إطلاق النار فوراً .
- ٢ - سحب القوات الأجنبية من الأراضي المصرية .
- ٣ - الانسحاب إلى ما وراء خطوط الهدنة .

٤ - منع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة من إرسال العتاد الحربي للشرق الأوسط .

ه - عودة الملاحة في قناة السويس وتأمينها .

وكانت موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة على القرار الأمريكي بوقف إطلاق النار بأغلبية ٦٤ صوتاً ضده أصوات هي بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ونيوزيلند وأستراليا ، وامتنع عن التصويت ست دول ..

ولكن كما رأينا أمام الإنذار الروسي وخذلان أمريكا للعدوان اضطرت إنجلترا وفرنسا ثم إسرائيل إلى الموافقة على قرار هيئة الأمم بوقف القتال .

ولقد وافقت هذه الدول كما وافقت مصر على وقف إطلاق النار في يوم ٧ نوفمبر ، ولقد نوه رئيس جمهورية مصر في خطبته يوم ٩ نوفمبر بتأييد العالم لمصر وبوقف الأحرار في إنجلترا وفرنسا ، كما نوه بموقف الأمم المتحدة وسكرتيرها همرشولد وبموقف روسيا والولايات المتحدة المناصر لمصر ، كما أشاد بموقف نهرو وسوكارنو وشوان لاي .

وكان تأليف قوة البوليس الدولية بناء على اقتراح كندا في هيئة الأمم المتحدة وتأييد الولايات المتحدة لهذا الاقتراح . ووافق على الاشتراك في هذه القوة السويد والنرويج وبوغوسلافيا وباكستان وكندا وكولومبيا ... وكان تأليفها على أساس المبادئ التي تمثلها هيئة الأمم

المتحدة .. فلا تظم واحدة من الدول التي لها مصالح مهمة في الشرق الأوسط ، ويعين قائد هذه القوة مسئولاً أمام الجمعية العامة أو مجلس الأمن عن طريق الهيئة الدولية ، وتحدد سلطات ذلك القائد بحيث يكون مستقلاً عن سياسة أية دولة .

وتكون مهمة القوة الدولية بعد دخول مصر بموافقة الحكومة المصرية في الوقت الذي يقر فيه وقف إطلاق النار ، وللعمل على استيعاب السلام خلال انسحاب القوات الأجنبية وبعدها ثم العمل على إقرار الشروط الأخرى الواردة في قرار ٢ نوفمبر ١٩٥٦ ، وهذه الهيئة شبه عسكرية ومهمتها أكثر من مهمة هيئة مراقبة .

وفي خلال الأعمال العدوانية لـإنجلترا وفرنسا وإسرائيل تعطلت القناة عن العمل وقامت أزمة بتزولية خطيرة لم تشمل إنجلترا وفرنسا فحسب بل معظم دول غرب أوروبا كإيطاليا وأسبانيا والبرتغال كما كان لذلك العدوان أثر بالغ على الاقتصاد البريطاني كما اعترف بذلك وزير المالية البريطانية في خطابه في ٤ ديسمبر ، واضطرت بريطانيا إلى مد يدها مستجيبة العون المالي الأمريكي : ولم تقتصر آثار أعمال العدوان على ذلك . فلقد ظهر بوضوح عدم التماسك بين اتحاد دول الأطلنطي وتزول مركزه أمام التهديد الروسي ، وضعف روحه المعنوي : وكان من أثر العدوان 'وزاد النفوذ الروسي في الشرق الأوسط وبين الشعوب الإسلامية ، وتلاشى في هذه المنطقة النفوذ الإنجليزي

والفرنسي ، وتوثقت الصلات بين الشعوب العربية ...

هذا من حيث آثار العدوان العامة ، على أن قرار هيئة الأمم المتحدة بوقف القتال وإنشاء قوة البوليس الدولية لم يكن معناه انتهاء العدوان على القناة ومصر ، فلم تعلن الحكومات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية بعد انتهاء تدخلها المسلح ، حالة العدوان لازالت قائمة ، ولذا استلزم الأمر أن تبذل مصر وأصدقاؤها جهوداً جديدة في سبيل سحب القوات المعتدية بسرعة من الأراضي المصرية ؛ وخاصة حين أخذت إنجلترا تؤيدها فرنسا تتحمل الأعداء لتأخير سحب قواتها من مصر ، فبريطانيا أعلنت أنها ستسحب قواتها بعد تأليف القوة الدولية وعلى أساس بقاء هذه القوة الدولية في مصر حتى تتم تسوية مشكلة فلسطين ، فربطت إذن بين مشكلة القناة ومشاكل الشرق الأوسط الأخرى ، وكانت ترمي بذلك إلى البقاء من الناحية العملية حتى تكون بيدها ضمانات فعلية لحل مشاكل الشرق الأوسط ومنها مشكلة القناة بالطريقة التي تراها هي .

ولكن مصر فطنت لهذا الموقف ، فكان أول جهد بذلته في هيئة الأمم بعد إيقاف القتال هو مطالبتها بسحب القوات المعتدية فوراً . وأيدتها روسيا في هذه الناحية تأييداً تاماً ، فأخذت تتواتر الأنباء بتحركات عسكرية روسية ، وانتشرت أخبار قاذفات قنابل ومقاتلات روسية تتجه نحو سوريا مما أثار الفزع في العالم الغربي ، وما سجل أمام العالم عزم الاتحاد السوفيتي على اتخاذ التدابير لتنفيذ إنذاره إلى الدول

المعتدية . وتأكد هذا العزم بشكل أوضح وأكثر صراحة حين أرسلت روسيا إنذاراً آخر إلى إنجلترا وفرنسا تحذرهما بأنه في حالة عدم انسحابهما ستسمح لعدد كبير من رجال الحرب الروسى ذوى الخبرة بالذهاب إلى مصر للقتال جنباً إلى جنب مع المصريين .

عمل هذا الإنذار على الحد من رغبة الإنجليز والفرنسيين في البقاء بالأراضي المصرية ، كما عمل على زيادة القلق في الولايات المتحدة التى كان يهمها أن يسترد اتحاد الأطلنطى قوته ويعود المتساندين دوله أمام الخطر الروسى المتزايد . ولذا أسرعت حكومة واشنطن إلى نصح حليفاتها باحترام قرارات هيئة الأمم والانسحاب قبل أن يتعقد الموقف مرة أخرى يارسال روسيا لم تطوعها إلى مصر .

هذا إلى أن المعارضة العمالية في إنجلترا لم تكف عن هجومها ، ولم تهدأ نائرتها ، فطالبت الحكومة بالانسحاب ، واتهمتها بالتآمر مع إسرائيل ، ، واقترحت تأليف لجنة برلمانية للتحقيق في هذا الأمر ، وذهبت إلى حد أن طالبت الحكومة بتعويض مصر عن الخسائر التى لحقت بها من جراء الاعتداء البريطانى .

وكان لاجتماع ملوك العرب ورؤسائهم في مؤتمر بيروت (١٢ ديسمبر) وعمل الدول العربية على توحيد سياستها البترولية ومناقشة أمر قطع العلاقات مع الدول المعتدية ، وأمر إيجاد هيئة عربية موحدة أثر في الولايات المتحدة وفي بريطانيا نفسها التى حاق بنفوذها الخسران في كل

مكان في الشرق الأوسط . لقد نادى رؤساء الدول العربية باتخاذ التدابير الحاسمة إذا لم تجل الدول المعتدية عن الأراضي المصرية وفقاً لقرار هيئة الأمم المتحدة .

وازداد الجزع في إنجلترا وفرنسا حين أرسل رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي إنذاراً آخر إلى إسرائيل أردفه بإنذار إلى العالم الغربي بأكمله . فأما إنذاره إلى إسرائيل فلقد سجل أن إسرائيل أصبحت لا تقيم كبير وزن لميثاق الأمم المتحدة إذ هي تماطل في تنفيذ قرارات الأمم المتحدة وأن السياسة الإسرائيلية ما برحت مهددة للسلام . وفي هذا الإنذار حذر بولجانين إسرائيل من عواقب سياستها هذه إذا شرعت في اعتداء جديد ضد الدول العربية ، وطالها بدفع تعويض لمصر . وأما إنذار بولجانين إلى العالم الغربي فهو يحذر من حرب ثالثة إذا لم يتخذ الغرب سياسة سلبية ويوافق على خفض التسليح وتحريم إنتاج الأسلحة الذرية ووضع مشروع لنزع السلاح .

وحين فشلت فكرة الماطلة في الانسحاب ، عادت إنجلترا وفرنسا تحاولان إقناع الولايات المتحدة بتأييد فكرة بقاء القوة البوليسية في منطقة القناة حتى تسوى مسائل الشرق الأوسط ، ولكن هذه الفكرة لم تجد لها نصيراً ، فلقد بينت الولايات المتحدة أنها متمسكة بقرارات هيئة الأمم المتحدة عاملة على تنفيذها . وفي الوقت الذي دخلت فيه طلائع البوليس الدولي منطقة بورسعيد أعلن في إنجلترا تحلي إيدن عن

الحكم مؤقتاً ، فكان هذا اعترافاً واضحاً من جانب إنجلترا بفشل سياسة
الاعتماد المسلح على مصر ، هذه السياسة التي ارتبطت باسم أتونى ايدن
قبل أى سياسى انجليزى آخر .

وتأكد فشل خطط إنجلترا التي عللت نفسها بأنها قد عرفت حقيقة
موقف روسيا بأزاء الشرق الأوسط ، تأكد فشل هذه الخطط حين
وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على مشروع القرار الذى قدمته الدول
الاسيوية الأفريقية التي أصبحت القوة الثالثة في العالم والذي أيدته
إحدى وعشرون دولة والذي يقضى بمطالبة إنجلترا وفرنسا بتنفيذ قرارات
الجمعية في ٢٠ ، ٧ نوفمبر ، بالرغم من أن بريطانيا قد اعتذرت عن تأخيرها
في الانسحاب بأنها تهدف إلى التعاون مع قوة البوليس الدولية وأنها
ستسحب قواتها حالما تصبح هذه القوة قادرة على تنفيذ مهامها ، ولكن
هيئة الأمم لم تأخذ بذلك الاعتذار .

ونتيجة لقرار الأمم المتحدة تعجل سكرتيرها همرشولد انسحاب
القوات المعتدية ، وأزال الشكوك التي أثارها إنجلترا وفرنسا عن مهمة
قوة البوليس الدولية ، فوضح أن انشاء القوة الدولية قام على أساس
موافقة الحكومة المصرية على عملها أي قوة البوليس الدولية ، وعلى
الدول المكونة لها وعلى أساس الاعتراف الكامل بسيادة مصر ، وأن
الأمم المتحدة ستحتفظ بهذه القوة إلى أن تنتهى من مهمتها في الإشراف
على وقف إطلاق النار وسحب القوات المعتدية .

ونتيجة لهذا الموقف والحاجة بريطانيا وفرنسا إلى تأييد الولايات المتحدة السياني ومعوته الاقتصادية لم تجد بريطانيا بدا من إعلان الانسحاب على مراحل ، وأعلنت هي وفرنسا في آخر شهر نوفمبر عدولها نهائياً عن تدخلهما المسلح في مصر وأنها ستسحبان قواتهما دون قيد ولا شرط . وفي ٣ ديسمبر أعلن وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد ذلك الموقف في مجلس العموم ، وقال أنه قد أصدرت تعليمات إلى الجنرال كيتلي قائد القوات البريطانية الفرنسية المعتدية بالاتفاق مع بيرنز قائد قوة البوليس الدولية على جدول الانسحاب ، وذكر أن ذلك الانسحاب يستغرق وقتاً قصيراً ، وأما فيما يتعلق بمستقبل القناة ، فلقد أعلن أن همرشولد سيعمل في أقرب وقت على عودة المفاوضات من جديد بين مصر وإنجلترا على الأسس الآتية :

١ - النقط الست التي أقرها مجلس الأمن يوم ١٣ أكتوبر .

٢ - المباحثات بين همرشولد ووزراء خارجية مصر وبريطانيا وفرنسا .

٣ - الرسالة التي وجهها همرشولد يوم ٢٤ أكتوبر إلى وزير خارجية مصر وموافقة مصر على المبادئ التي تضمنتها .

وأبدى سلوين لويد تفاؤله من أمر الوصول إلى اتفاق يكفل الضمانات اللازمة لتنفيذ النقط الست التي أقرتها الأمم المتحدة .

وتم فعلاً انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من الأراضي

المصرية — وتوالت الأزمات على إنجلترا في اقتصادها وفي حياتها السياسية
وغادر إيدن منصة الحكم ورياسة حزب المحافظين ليحل محله ماكيلان .
وكانت سياسة ماكيلان العمل على توثيق صلات إنجلترا بالولايات
المتحدة ، وتأيد السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط .

.....

١٢ - من أهم المصادر والمراجع

(١)

مصر طريق للتجارة بين الشرق والغرب

- Charles - Roux, J. : Autour d'Une Route. — ١
————— : L'Isthme, et Le Canal de — ٢
Suez. Paris. 1901. 2 vols.
Ghorbal S. Bey. : The Beginnings of the Egyptian — ٣
Question London 1928.
Hoskins, H. L. : British Routes to India Long- — ٤
mans. 1928.

(٢)

موقف إنجلترا من امتياز ومشروع قناة السويس

زيادة على المراجع السابقة

- Fitzgerald, P. : The Great Canal at Suez. 1876. — ٥
Foreign Office. 78 Turkey. في السنوات ١٨٥٤ - ١٦٦٩ — ٦
Foreign Office Suez Canal Papers. — ٧
Hallberg, C. W. The Suez Canal New York 1931. — ٨
Hansard's Parliamentary Debates. — ٩

- DeLesseps. P. : Inquiry into the Opinion of the — ١٠
Commercial Classes of Britain.
- Journal et Documents — ١١
- Martin, E. : L'Angleterre et Le Canal de Suez. — ١٢
Paris 1892.
- Mc. Coan J. C. : Egypt as It is. 1877. — ١٣
- Safwat M. M : تونس والملاقات الانجليزية الفرنسية — ١٤
Great Powers.
- Wilson, A. T. : The Suez Canal. London 1939 — ١٥
- ١٦ — الأستاذ عبدالعزيز الشناوي : السخرة في حفر قناة السويس في عهد سعيد باشا
رسالة للماجستير تحت اشراف الأستاذ محمد شفيق غريال

(٣)

ديزيلي وقناة السويس

- ١٧ — بالاضافة الى المراجع السابقة
- Buckle G.F. : Life of Disraeli. London 1929
- ١٨ — الوثائق الفرنسية الدبلوماسية التي نشرتها الحكومة الفرنسية عقب الحرب
الكبرى الأولى : Documents Diplomatiques Français
- Seton - Watson : Disraeli and Gladstone. — ١٩
- ٢٠ — الدكتور محمد مصطفى صفوت : موقف ألمانيا إزاء المسألة المصرية بمجلة كلية
الآداب ١٩٤٨ ، ومجلة الجمعية التاريخية الملكية العدد الأول ١٩٤٨ .

(٤)

احتلال الإنجليز لقناة السويس

٢١ — الدكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه . دار الفكر العربي ١٩٥٢ .

Blue Book of 1882. — ٢٢

Journal Officiel — ٢٣ وتوجد المناقشات في البرلمان الفرنسي في

(٥)

إنجلترا وتحديد مركز القناة

المراجع السابقة و

٢٤ — الدكتور عبد الله رشوان : المركز الدولي لقناة السويس وظائرها . ١٩٥٠

Blue Books 1886. — ٢٥

٢٦ — محمد رفعت باشا : التيارات السياسية في البحر الأبيض المتوسط ١٩٤٩ .

(٦) ، (٧)

إنجلترا والقناة من ١٨٨٨ — ١٩٣٥

المراجع السابقة

Earle, E.M. : Turkey, the Great Powers and The — ٢٧
Baghdad Railway New York 1923.

- Langer, W : Diplomacy of Imperialism 2 vols. — ٢٨
 ——— Alliances. New York 1931. — ٢٩
 Documents on International Affairs, Oxford, University — ٣٠
 Press.

مجلدات سنوات ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٦

- Survey of International Affairs. — ٣١

لسنوات ١٩٣٠ ، ١٩٣٦

- ٣٢ صحيفة الأهرام وخاصة من سنة ١٩٥١ — ١٩٥٦

- ٣٣ صحيفة التيمز اللندنية من سنة ١٩٥٠ — ١٩٥٦

- ٣٤ صحيفة New York Times ١٩٥٥ — ١٩٥٦

- Verbatim Records of the discussions of the Security — ٣٥
 Council Concerning the Anglo-Egyptian Dispute 1947

- ٣٦ الكتاب الأخضر للحكومة المصرية عن مفاوضات ١٩٥٠ ، ١٩٥١ .

- Anglo Egyptian Conversations on the Defence of — ٣٧
 Suez - Canal and on the Sudan 1950 - 1951 وهو الكتاب

- الرسمى للحكومة البريطانية عن المفاوضات المصرية الانجليزية في سنتي ١٩٥٠ ، ١٩٥١

مركزية بن الطيبة
مركزية بن الطيبة
مركزية بن الطيبة

